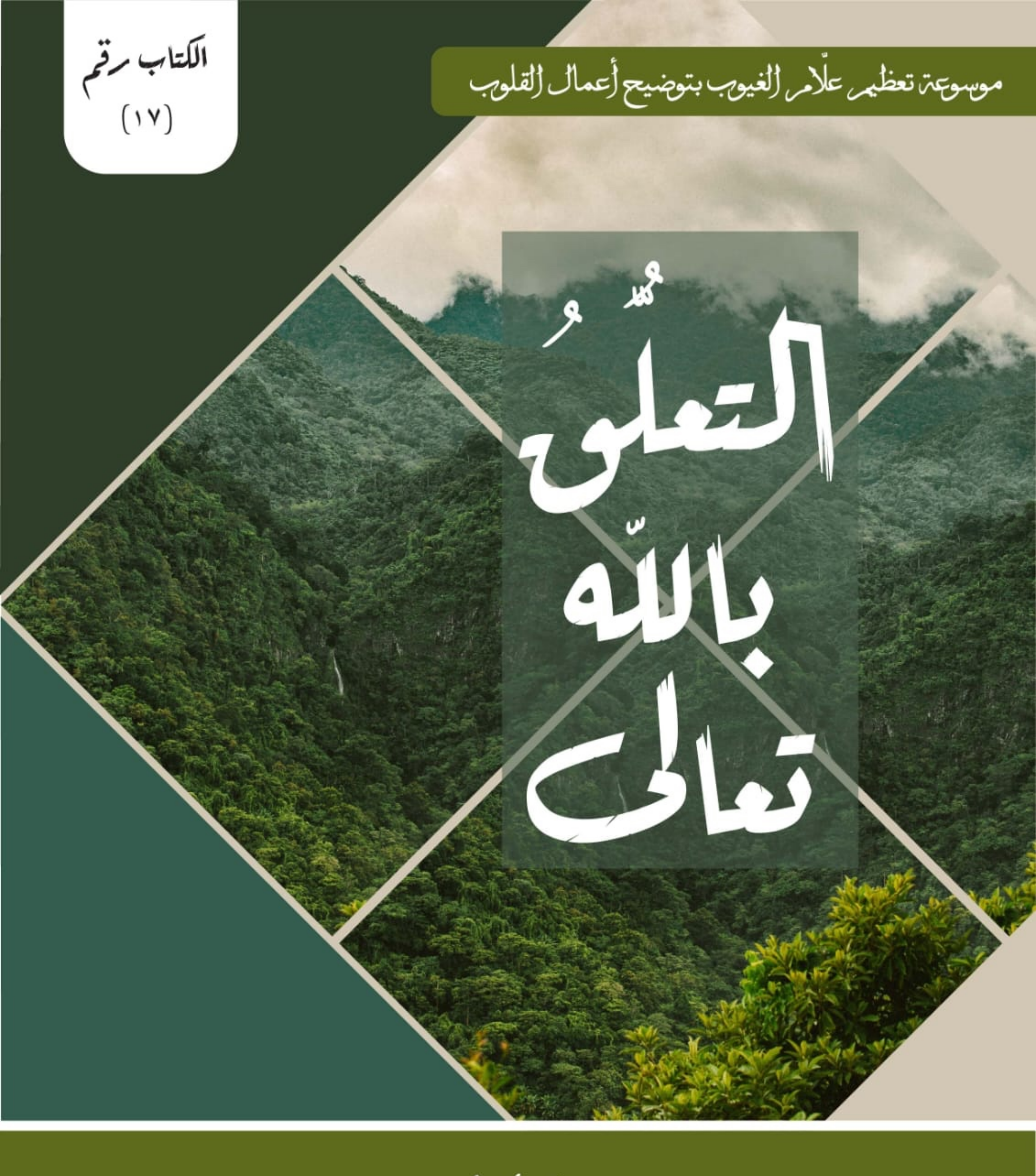


تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن التركي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (١٧)

التعلّق بالله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين



فهرس المحتويات

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، يسمعُ دعاءَ الخلائق ويُجيب، يُؤنسُ الوحيد، ويَهدي الشريد، ويُذهب الوحشة عن الغريب. يغفر لمن استغفره، ويرحَم مَن استرحمه، ويُصلح المعيب. يستر العصاة، ويمهل البُغاة، ويقيم حُجّته على الغُواة، ومن تاب منهم قُبِل وأثيب. من أطاعه تولّاه، ومن غفل عنه لا ينساه، وله من رزقه نصيب.

أحمده تبارك وتعالى، وأرجوه الأمن والأمان والرضا والرضوان في يوم يَسقط الجنينُ فيه والصغيرُ من هولِه يشيب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المهيمنُ والرقيب. من تبع شرعه والاه، ومن آوى إليه آواه، ومن توكّل عليه كفاه، ومن اعتصم به فهو مولاه، ومن ارتجاه مخلصًا لا يخيب.

وأشهد أن نبيّنا محمدًا عبده ورسوله المُقرّب والحبيب. خَلْقُهُ نعمة، ومبعثُه رحمة، وشمس سُنّته لا تغيب. هو تاجُ أولي العزائم، وقدوةٌ لكل عابد وصائم وقائم، وباتّباعه تحلو الحياة وتطيب. اللّهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى الصحب والآل ومن تبعهم بإحسانٍ يا قريب يا مجيب.

أما بعد؛ فإنّ التعلّق بالله تعالى هو لُبابُ تحقيق كلمة التوحيد لا إله إلا الله، فمن صَدَقَ التعلّق به استقام دينه، وصحّت عبادته، وكَفَر بما سواه، وصدقت دعواه؛ فصار من السابقين المُقرّبين. وهذه ـ أحسن الله إليَّ وإليك ـ حروفٌ يسّرها الله تعالى في بيان ذلك وما يتعلّق به، سائلًا ربي التوفيق

والقبول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي
٢٢/ ٠٤/ ١٤٣٩هـ
aldumaiji@gmail.com

التعريف

التعلّق انجذاب وافتقار واحتياج ولزوم، كتعلق الجنين بحبل أمّه السُّرِّي، فهو لا ينفك عنه لحظة، فغذاؤه ودواؤه وحاجات جسده عن طريقه بإذن الله تعالى، فالقلب إذا تعلق بربه فخضع وخشع واعترف وتوكل وافتقر واغتنى وتألّه؛ فقد قام بعبودية التعلق بربه تبارك وتعالى، وعلى قدر تعلقه بالمخلوقين وانجذابه نحوهم واحتياجه إليهم؛ يكون نقص تعلقه بربه سبحانه، ومن ثمّ استحقاقه الخذلان بقدر التعلق بغير الكريم المنّان سبحانه وتعالى.

وحدُّ التعلق هو ملازمة التّشبّث بالشيء الأعلى، مادّيًا كان أو معنويًّا، وهو الاحتياج والانجذاب والتشبّث والثقة والتقرّب واللزوم والإناطة، قال ابن فارس في مادة (علق): «العين واللام والقاف أصلٌ كبير صحيح يرجع إلى معنىً واحد، وهو أن يناط الشَّيء بالشيء العالي. ثم يتَّسع الكلام فيه، والمرجع كله إلى الأصل الذي ذكرناه. تقول: عَلّقْتُ الشيءَ أعلِّقه تعليقًا. وقد عَلِق به، إذا لزِمَه. والقياس واحد. والعَلَق: ما تعلَّق به البَكَرة من القامة. ويقال العلَق: آلة البَكْرَة. ويقولون: البئر محتاجة إلى العَلَقِ. وأعلقتُ بالغَرب بعيرين، إذا قرنتَهُما بطَرَف رِشائه.

قال الخليل: العَلَق أن يَنشِب الشيء بالشيء. قال جرير:

إذا عَلِقَتْ مخالبُه بقِرْنٍ أصابَ القلبَ أو هتك الحجابا

والعَلَق: الهوى. وفي المثل: «نظرة مِن ذي عَلَق»، أي ذي هَوىً قد عَلِق قلبُه بمن يهواه. وقال الأعشى:

عُلِّقْتُهـا عرَضًـا وعُلِّقـتْ رجـلًا غيري وعُلِّق أخرى غيرَها الرّجُلُ

والعَلاقة: الحبُّ اللازم للقلب(١).

ويقولون: إنَّ العَلُوق من النِّساء: المُحبّة لزوجها. ويقولون: عَلِقتِ المرأةُ: حَبِلت. وقد عَلِقت الفَسيلةُ إذا ثبتت في الغِراس»(٢).

وفي المختار: «العِلْقُ بالكسر: النفيس من كل شيء وجمعه أعْلاقٌ وفي الحديث: «**أرواح الشهداء في حواصل طير خُضر تَعْلُقُ من ثمر الجنة**»(٣) بضم اللام أي: تتناول.

و المِعْلاقُ والمُعْلُوقُ ما عُلّق به من لحم أو عنب ونحوه، وكل شيء عُلّق به شيء فهو مِعْلاَقُهُ(٤) والعِلاقَةُ بالفتح علاقة الخُصومة، وأعْلَقَ أظفاره في الشيء أنشبها، والإعْلاقُ أيضًا إرسال العَلَقِ على الموضع ليمص الدم. وعَلَّقَ

---

(١) وأنشدوا لابن الدُّمَيْنَة:

ولقد أردْتُ الصّبْرَ عنكِ فعاقَني علَـقٌ بقَلْبي من هَـواكِ قَديمُ

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس (٤ / ١٢٦ -١٣٢) بانتقاء.

(٣) روى أحمد (١/٢٦٦) (٢٣٨٩) وأبو داود (٢٥٢٠) من حديث كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ أرْواحَ الشُّهَدَاءِ في حواصلِ طير خُضْر، تَعْلُق من ثمر الجنة، أو شجرِ الجنة**» ومعنى تعلق: أي تأكل، وذلك في الإبل، إذا أكلت العضاه، فنُقل إلى الطير.

(٤) ولا زال عند العامة بالتذكير: (مِعْلَاق) أي: ما عُلِّقَ عليه من غيره.

الشيء تَعْلِيقا واعْتَلَقَهُ أحبَّه. وتَعَلَّقهُ و تَعَلَّق به بمعنى(١)، وتعلّقه أيضًا بمعنى علَّقه تعليقًا»(٢).

وقال ابن منظور: «عَلِقَ بالشيءِ عَلَقًا وعَلِقَهُ نَشِب فيه، وفي الحديث: «**فَعَلِقَت الأَعراب به**»(٣) أي نَشِبوا وتعلقوا، وقيل: طَفِقُوا. وقال أَبو زبيد:

إِذا عَلِقَــتْ قِرْنًــا خَطَــاطيفُ كَفِّــهِ ... رأى المـوتَ رَأْيَ العينِ أَسودَ أَحمرَا

وهو عالِقٌ به أَي نَشِبٌ فيه، ويقال للصائد: أَعْلَقْتَ فأَدْرِكْ، أَي عَلِقَ الصيدُ في حِبالتك.

وعَلِقَ الشيءَ عَلَقًا وعَلِقَ به عَلاقَةً وعُلوقًا لزمه، وعَلِقَتْ نفْسه الشيءَ فهي عَلِقةٌ وعَلاقِيةٌ، وعَلِقْنَةٌ: لَهِجَتْ به، قال:

فقلــت لهــا والــنَّفْسُ منِّــي عَلِقْنَــةٌ ... عَلاقِيَــةٌ تَهْــوَى هواهــا المُضَــلَّلُ

والعَلاقة الهوى والحُبُّ اللازم للقلب، وقد عَلِقَها ـ بالكسر ـ عَلَقًا وعَلاقةً وعَلِقَ بها عُلوقًا وتَعَلَّقها وتَعَلَّقَ بها وعُلِّقَها وعُلِّق بها تَعْلِيقًا: أَحبها، وهو مُعَلَّقُ القلب بها. قال كثيِّر:

ولقـد أَرَدْتُ الصـبرَ عنـكِ فعـاقَني ... عَلَــقٌ بقَلْبــي مــن هَــواكِ قــديمُ

وعَلِقَ حبُّها بقلبه: هَوِيَها، قال ذو الرمة:

---

(١) أي بنفس المعنى.

(٢) مختار الصحاح (١ / ٤٦٧).

(٣) صحيح البخاري (٤ / ٩٤) (٣١٤٨) بلفظ: «علقت رسولَ الله ﷺ الأعرابُ يسألونه..» وفي البخاري ٤/٢٧ (٢٨٢١) بلفظ: «فعلقه الأعراب يسألونه».

لقـد عَلِقَـتْ مَـيٌّ بقلبـي عَلاقـةً بَطِيئًـا عـلى مَـرِّ الليـالي انْحِلالُهـا

وعَلَّقَ الشيءَ بالشيء ومنه وعليه تَعْليقًا ناطَهُ، وفي الحديث: «**من تَعَلَّق شيئًا وكِلَ إليه**»(١) أي من عَلَّقَ على نفسه شيئًا من التعاويذ والتَّمائم وأشباهها معتقدًا أنها تَجْلُب إليه نفعًا أو تدفع عنه ضرًّا.

وكلُّ ما يُتَبَلَّغُ به من العيش فهو عُلْقةٌ(٢)، والعُلْقةُ والعَلاقُ ما فيه بُلْغة من الطعام إلى وقت الغذاء، وفي حديث الإفك: «**وإنما يأكُلْنَ العُلْقةَ من الطعام**»(٣)(٤).

وفي المحكم: «والمعلقة: بعض أداة الراعي(٥)، وقال أبو حنيفة: العليق شجر من شجر الشوك لا يعظم، وإذا نشب فيه شيء لم يكد يتخلص من كثرة شوكه، وشوكه حجن حداد، ولذلك سمي عليقًا. قال: وزعموا أنها الشجرة التي آنس موسى ﷺ فيها النار. وأكثر منابتها الغياض والأشب. والعلقة شجر يبقى في الشتاء تبلّغ به الإبل، حتى تدرك الربيع»(٦). «وقالوا: ما في

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣١٠) بسند صحيح.

(٢) قال الأزهري: «والعُلْقةُ من الطعام والمركبِ ما يُتَبَلَّغُ به وإن لم يكن تامًّا».

(٣) البخاري (٣/٢١٩، و٤/٤٠،و٥/١١٠،و٦/٩٦،و٨/١٧٢،١٦٨ و٩/١٧٦) ومسلم (٨/١١٢) وانظر: (حديث الإفك، عِبَرٌ وعَبَرات) للمؤلف.

(٤) لسان العرب (١٠ / ٢٦١ - ٢٦٤) باقتصار.

(٥) يظن بعضهم أن العامة تقلبها فتقول: ملعقة، وهذا خطأ فهي لغة صحيحة مشتقة من اللّعق، واللعق مغاير للتعليق.

(٦) المحكم والمحيط الأعظم (١ / ٢٠٨).

الأرضِ عَلاق ولا لَماق، أي: ما فيها ما يُتبَلَّغُ به من عيْش. ويقال: ما فيها مَرْتَعٌ. قال الأعْشى:

وفَـلاةٍ كأنّهـا ظهْـرُ تُـرْسٍ ... لـيسَ إلا الرّجيـعَ فيهـا عَـلاقُ

يقول: لا تَجِد الإبلُ فيها عَلاقًا إلا ما تُردِّده من جِرَّتِها.

ويراد به الثبوت، وفي المثَل: علِقَتْ معالِقُها وصَرَّ الجُنْدَبُ، وأصلُه أنّ رجلًا انْتَهى الى بئْرٍ، فأعْلَق رِشاءَه برِشائِها ثم سار الى صاحِب البِئْر، فادّعَى جوارَه، فقال له: وما سَبَبُ ذلك؟ قال: علّقْتُ رِشائِي برِشائِك، فأبَى صاحِبُ البِئْر، وأمَره أن يرتَحِل، فقال: عِلقَتْ معالِقُها وصَرَّ الجُنْدَبُ، أي جاءَ الحرُّ ولا يُمْكِنُني الرّحيلُ.. وقال ابنُ سِيدَه: يُضربُ للشّيءِ تأخُذُه فلا تُريدُ أن يُفْلِتَك»(١).

قلت: فعاد التعلّق إلى ملازمة التّشبّث بالشيء الأعلى مادِّيًا كان أو معنويًّا. كما أنّ التعلق من مفردات المحبة ومراتبها، فإذا أطلق التعلق في بابها فهو المحبة والميل الشديد والاحتياج.

وبعد؛ فالتعلق دائر بين هذه المعاني، واشتقاقاته كلها راجعة إلى اللزوم والتشبّث، وبالله التوفيق.

❀❀❀❀

(١) تاج العروس من جواهر القاموس (٢٦ / ١٨١ - ١٨٥) مختصرًا.

علاقة التعلق بالتوكل

كأنّ التعلّق أخصّ من التوكل لكنه أدوم بحيث لا يغيب المُتَعلَّقُ به عن قلب المُتعلِّق، فالمتعلق بالله تعالى لا ينفك لحظة عن إحساسه بضرورته وقربه من ربه تعالى. ففي التوكل تعلّق لأنه لا تفويض على التمام إلا لمن تعلق القلب به، ولا يقوم التوكل إلا بالتعلق، وفي التعلق توكّل من جهة ثمرته.

فجامعهما التعلق، لذلك فسر جمعٌ من العلماء أحدهما بالآخر ـ وهو اختيار ابن القيم ـ لملاحظتهم هذه الحيثية، والتحقيق أن بينهما عموم وخصوص كما قدمنا، والله أعلم.

قال أبو تراب النخشبي: «التوكل: طرح البدن في العبودية، وتعلّق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكر وإن منع صبر»[(١)].

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال: «التعلق بالله تعالى في كل حال. فقال السائل: زدني، فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب، حتى يكون الحق هو المتولي»[(٢)] أي ترك التعلق بالسبب وتوحيد التعلق بالمُسَبِّب، وهذا من ذخائر التوحيد للمؤمنين، أما ترك الأسباب بالكلية فليس بشيء لأنه مخالف للشرع، فالله أمر باتخاذ الأسباب ومباشرتها مع أمره بالاعتماد والتفويض والتوكل عليه دون سواه، وهذا ملحظ يجب أن لا يغيب عن قلب

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١١٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٦ / ٢٧٣).

كل موفق، بل والمتوكل حينما يباشر الأسباب يوقن أن وكيله سبحانه هو الذي سخرها له، ولولاه وحده لما تيسرت له، ولما تيسرت لوازمها وارتفعت موانعها، فكل توكل يجره لتوكل على الله آخر، وكل تعلق يهديه لتعلق بالله جديد، فهو ينهل من معين العبودية لربه ما تقرُّ به عينه، وتسعد به نفسه، ويفلح منقلبه لربه ومولاه.

وتأمّل توكل إبراهيم ﷺ، إذ قال له جبريل عليه السلام: «**ألك حاجة؟**» فقال: «**أما إليك فلا**»(١)، وهذا مع كون إبراهيم يعلم قوة سيّد الملائكة جبرائيل التي أودعها إياه ربُّ العالمين، لكن المقام مقام توحيدِ تعلّقٍ، وتجريدِ ثقةٍ، وإفرادِ تألّهٍ بمن هو على كل شيء قدير، فلا يأتي الخير إلا من قِبَله، ولا يُدف الشرُّ إلا من جهته تبارك وتعالى.

وليس في هذا تركٌ لدعاء ربه كما روى بعضهم بإيراد زيادة: «قال جبريل: فسل ربك، فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي» وهي رواية لا تصح بحال(٢)، وهي مخالفة لمنهج الأنبياء في دعاء ربهم تبارك وتعالى، ومن ضمنهم الخليل عليه السلام، وفي القرآن أدعية إبراهيمية كثيرة، كما في سورته عليه السلام كما في الآيات (٣٥ ـ ٤١) وغيرها.

والمقصود؛ أن قطع الناس عن ضرورتهم لدعاء ربهم بحجة تفويضهم

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١٠٤٥). وقال ابن تيمية: «أول هذا الحديث معروف، وأما قوله: حسبي من سؤال علمه بحالي فكلام باطل». الفتاوى (٨/٥٣٩).

(٢) قال الألباني في الضعيفة (٢١): «لا أصل له».

لعلمه مخالفٌ لسبيل الأنبياء، مجانبٌ لجادّة المرسلين، وهم سادة العُبّاد بلا ريب، وهم أعلم الخلق بربهم وما يحبه ويرضاه من سبل الزلفى لديه والقربى بين يديه.

وتأمل حال نبينا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه مع الدعاء والإلحاح على ربه لعلمه بمحبة الله تعالى لذلك، وأنه من شواهد تحقيق العبودية له سبحانه، وقد أمر الله تعالى في كتابه بدعائه وتوحيده بدعائه فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢] وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وكما قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[١] وغير ذلك كثير في القرآن والسنة.

قال الغزالي معلقًا على قصة إبراهيم عليه السلام: «فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخّر جبريل لذلك[٢]، فيكون هو المتولي لذلك، وهذا حالُ مبهوتٍ غائب عن نفسه بالله تعالى، فلم يرَ معه غيره، وهو حالٌ عزيز في نفسه، ودوامه - إن وجد - أبعد منه وأعز»[٣].

---

(١) الترمذي (٥ / ٤٥٦) من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني.

(٢) وقد سخّر الله له النار التي أرادوا بها عذابه حتى صارت بردًا وسلامًا عليه، فمنع المُسبِّبُ السببَ عن ما خُلق له من الإحراق، كرامة لوليه وخليله عليه الصلاة والسلام.

(٣) الإحياء (٦/ ٧٣).

فالتوكل هو التعلق بالله مخلصًا في كل حال، مع بذل الأسباب، ثم التفويض لله وحده، وهذا النعيم القلبي هو الذي يثمر الرضا بقضاء الله وقدره. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يصح التوكل إلا بالقيام بالأسباب، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد، والراحة هي إلقاء حمل الكل، فيظن صاحبه أنه متوكل من دون بذل أدنى الأسباب»[(١)].

«قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «التوكل عمل القلب» فعمل القلب هو التوكل، ولا شك أنه من أعظم أعمال القلوب، وبعض العلماء فسر التوكل على الله بالرضا، أن يرضى الإنسان بأمر الله سبحانه وتعالى ويسلم لله تبارك وتعالى أموره كلها، وإذا سلم أموره كلها اعتمد على الله سبحانه وتعالى سواء جاءت الأسباب بما يحبه أو بما لا يحبه، فيرضى بما قدر الله سبحانه وتعالى له، ولذلك سئل يحيى بن معاذ فقيل له: متى يكون الرجل متوكلًا؟ فقال: «إذا رضي بالله وكيلًا».

وبعضهم قال: «إن التوكل هو التعلق بالله في كل حال».

وهذه مسألة مهمة، فيتعلق بربه تبارك وتعالى في كل أحواله، فإن جاءه المال والشرف لا يقطعه ذلك عن التوكل على الله تعالى، وإن ابتلي بالفقر والمرض لا يقطعه ذلك عن التوكل على الله، وهكذا في أحواله وأموره كلها، حتى إن بعضهم قال: «إن التوكل معناه: أن يستوي عندك الإقلال والإكثار».

ويستويان حينما تعلم أن الله هو المدبر الرازق، وحينما تعلم أن الله

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٤٣).

سبحانه وتعالى هو الذي بيده الأمر كله، وهو الله سبحانه وتعالى المتصرف بعباده كما يشاء، فإذا ما صرت غنيًا أو فقيرًا لا تتغير أحوالك ومعاملتك لربك تبارك وتعالى»(١).

❁❁❁❁

(١) حقيقة التوكل ومعناه عند السلف، عبد الرحمن المحمود (٢٠ / ٣) بتصرف يسير.

فضل التعلق بالله تعالى وأهميّته ووجوبه وضرورة العبد إليه

لا إيمان إلا بتعلق، ولا عبودية إلا بتعلق، ولا إحسان إلا بتعلق، فمدار الدين على تعلّق القلب برب العالمين من جهة ربوبيته له وإحاطته به وحفظه وإمداده ورزقه، ومن جهة إلاهيته وحبه وعبادته وتوجّهه وإسلامه.

فقلب المؤمن معلّق بربّه مهما باشرت يده تقليب الأسباب، قال الشيخ عبد الله بن أبي حمزة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أشتمل القرآن على أحكام عديدة؛ فمنها عمل الأسباب في الظاهر وخلو الباطن من التعلق بها، وهو أجلّها وأزكاها، لأن ذلك جمعٌ بين الحكمة وحقيقة التوحيد، وذلك لا يكون إلا للأفذاذ الذين منّ الله عليهم بالتوفيق.

ولذلك مدح الله تعالى يعقوب عليه الصلاة والسلام في كتابه فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨] لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم ردّ الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد، فقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [يوسف: ٦٧] فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين»[(١)].

(١) تفسير الثعالبي (٢ / ٢٤٧) بتصرف.

والمؤمن يعلم أن الملك ملك الله، والخلق خلقه، والعبيد عبيده، فهو لا ينفك عن تعلقه بمن هذا شأنه سبحانه وبحمده، «وذكر الله تعالى انفراده بالتدبير والعطاء والمنع فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ من رحمته عنهم ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ وهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها»(١).

والمؤمن الموفق يعلم أن الله خلقه لعبادته، وأن زبدة رسالة المرسلين هي تحقيق التوحيد وتجريد العبودية لله وحده لا شريك له «ولما بعث صلوات الله وسلامه عليه صار يقول للناس: «**قولوا: لا إله إلا الله**»(٢) فكان هذا هو أول ما أمرهم به، ومعنى لا إله إلا الله: أن يكون التألّه ـ الذي هو حب القلب وخوفه ورجاؤه ـ لله وحده، فلا يكون القلب متعلقًا بغير الله جل وعلا، وكل شيء تتعلق به القلوب من غير الله يجب أن يُبطَل وأن يُنصرف عنه، فليس لأحد من الخلق من الألوهية شيء، وإنما هي مجرد أوضاع تواضع عليها الآباء واتبعهم عليها الأبناء، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣]، يعني: مجرد أسماء سموها الآلهة، وليس لها

(١) تفسير السعدي (١ / ٦٨٤).

(٢) «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» رواه أحمد (١٦٦٠٣) بسند صحيح.

من معنى الإلهية شيء، فالإلهية يجب أن تكون لله، والتأله هو حب القلب وخوفه ورجاؤه، ثم كانوا مختلفين، منهم من يعبد شجرًا، ومنهم من يعبد حجارة، ومنهم من يعبد الجن، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد عبادًا صالحين دفنوا كاللاتّ ـ على قراءة التشديد ـ فقد جاء عن ابن عباس وغيره من السلف: أنه كان رجلًا يلت السويق بالسمن، ثم يقدمه لمن يأتي إليه من الحجاج وغيرهم، فلما مات دفن تحت صخرة في الطائف فعُبد، وصاروا يعكفون عنده للتبرك، ويطوفون بقبره، ويأتونه سائلين أن يشفع لهم عند الله، فكانت هذه هي عبادتهم، وما كان أحد منهم يأتي إليه ويقول: أنزل المطر، أنبت النبات، ادفع عني العدو، أعطني الصحة، وأزل المرض مني، ما كان أحد يقول هذا ولا يعتقده، وإنما كانوا يجعلونهم وسطاء، ويقولون: اسأل لنا الله أن يفعل لنا كذا وكذا؛ لأنهم يزعمون أنه أقرب إلى الله منهم، ولم يفرق الرسول ﷺ بين هؤلاء. ومعلوم في التواريخ وكتب السيرة أن الشيطان كان يأتي أحيانًا في هذا البناء الذي يبنونه أو تحت الشجرة التي يعظمونها ـ مثل العزّى ـ فيكلمهم ليضلهم؛ لأنهم حين يسمعون الكلام يعتقدون أنه يستجيب لهم»(١).

والمتعلق بالله لا يُخذل في أشد الأهوال ولا يُنسى مع تتابع الكروب، بل تتابع عليه ألطاف الملك الوهاب، وتتوالى عليه أمداد اللطيف الخبير، وهو ذاكرٌ لربه في كل حال، حتى مع التحام الأقران بتوالي الطعان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]

---

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان (١٢٨ / ٩).

قال أبو حيان الأندلسي: «أمرهم الله تعالى بذكره كثيرًا في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدو والتلاحم بالرماح وبالسيوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء، فأُمروا بذكر الله، إذ هو تعالى الذي يُفزع إليه عند الشدائد، ويُستأنس بذكره، ويُستنصر بدعائه، ومن كان كثير التعلق بالله ذَكَرَهُ في كل موطن حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء ويغيب فيها الحسّ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وحكى لي بعض الشجعان: أنه حالة التحام القتال تأخذ الشجاع هزّة وتعتريه مثل السكر لهول الملتقى، فأمر المؤمنين بذكر الله في هذه الحالة العظيمة. وقد نظم الشعراء هذا المعنى فذكروا أنهم في أشقّ الأوقات عليهم وأشدّها لم ينسوا مَحبوبَهم، وأكثروا في ذلك فقال بعضهم:

ذكــرت سـليمى وحــرّ الــوغى ... كقلبـــي ســـاعة فارقتهـــا
وأبـــصرت بـــين القنـــا قـــدّها ... وقــد ملــن نحــوي فعانقتهــا(١)

قال قتادة: «افترض الله ذكره أشغل ما يكون العبد عند الضراب والسيوف». والظاهر أن الذكر المأمور به هو باللسان، فأمر بالثبات بالجنان وبالذكر باللسان، والظاهر أن لا يعيّن ذكر(٢)، وقيل: هو قول المجاهدين: الله

---

(١) ومثله قول عنترة:

ولقد ذكرتكِ والرماح نواهلٌ ... منّي وبِيض الهند تقطر من دمي
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المتبسّمِ

(٢) وهو الراجح، لإطلاق الآية الكريمة.

أكبر الله أكبر عند لقاء الكفار، وقيل: الدعاء عليهم: اللّهم اخذلهم اللّهم دمرهم وشبهه، وقيل: دعاء المؤمنين لأنفسهم بالنصر والظفر والتثبيت كما فعل قوم طالوت فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وقيل: حم لا ينصرون، وكان هذا شعار المؤمنين عند اللقاء.

وقال محمد بن كعب: «لو رخص ترك الذكر لرخص في الحرب»»[١].

والمتعلق بالله لا تضيق عليه المخارج عند ادلهام الخطوب وتكاثف الغموم وتراكُمِ الرزايا، قال واعظ الإسلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «ضاق بي أمر أوجب غمًّا لازمًا دائمًا، وأخذت أبالغ في الفكر في الخلاص من هذه الهموم بكل حيلة وبكل وجه. فما رأيت طريقًا للخلاص. فعرَضت لي هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل غم. فما كان إلا أن هممت بتحقيق التقوى فوجدت المخرج.

فلا ينبغي لمخلوق أن يتوكل أو يتسبب أو يتفكر إلا في طاعة الله تعالى، وامتثال أمره، فإن ذلك سبب لفتح كل مرتج.

ثم أعجَبْهُ أن يكون من حيث لم يُقدّره المتفكر المحتال المدبّر، كما قال عز وجل: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله عز وجل كافيه فلا يعلق قلبه بالأسباب،

(١) تفسير البحر المحيط (٤ / ٤٩٨).

فقد قال عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

والمتعلق بالله بصير بحاله، عليم بعاقبة أفعاله، يعلم من أين يؤتى لذلك قلت ذنوبه، حسن الظن بالمولى لذلك كثرت ضراعته وعظمت رغائبه، ويعلم أن لمولاه حِكَمٌ في تأخير إجابة دعواته أحيانًا، يحدّث نفسه وغيره فيقول: من العجب إلحاحك في طلب أغراضك وكلما زاد تعويقها زاد إلحاحك! وتنسى أنها قد تمتنع لأحد أمرين، إما لمصلحتك فربما مُعجّل أذى، وإما لذنوبك فإن صاحب الذنوب بعيد من الإجابة.

فنظف طرق الإجابة من أوساخ المعاصي.

وانظر فيما تطلبه هل هو لإصلاح دينك، أو لمجرد هواك؟

فإن كان للهوى المجرد. فاعلم أن من اللطف بك والرحمة لك تعويقه.

وأنت في إلحاحك بمثابة الطفل يطلب ما يؤذيه فيُمنع رفقًا به.

وإن كان لصلاح دينك فربما كانت المصلحة تأخيره، أو كان صلاح الدين بعدمه.

وفي الجملة؛ تدبير الحق عز وجل لك خير من تدبيرك، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليبلو صبرك. فأره الصبر الجميل تر عن قرب ما يسر.

ومتى نظّفت طرق الإجابة من أدران الذنوب، وصبرت على ما يقضيه

لك؛ فكل ما يجري أصلح لك، عطاءً كان أو منعًا»[١].

ومن فضائل التعلق بالله دون سواه أن مَن تعلق بربه ومولاه ربِّ كل شيء ومليكِه؛ كفاه ووقاه، وحفظه وتولاه؛ فهو نعم المولى، ونعم الرازق، ونعم الهادي، ونعم المُجيب، ونعم الظهير، ونعم النصير.

ومَن تعلق بغيره وَكَلَه الله إلى مَن تعلق به؛ والتعلق يكون بالقلب وبالفعل، ويكون بهما جميعًا.

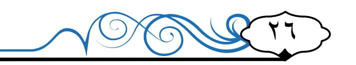
فالمتعلقون بربهم، المنزلون به حوائجهم، المفوِّضون إليه أمورهم، يكفيهم ويحميهم؛ يقرِّب لهم البعيد، وييسر لهم العسير.

ومَن تعلق بغير ربه، وسَكَن إلى رأيه وعقله، وركن إلى الأسباب الظاهرة، واعتمد على الخلق دون الخالق، وأشرك العبيد الفقراء الفانين مع الربِّ الحي القيوم؛ وَكَلَه ربه إلى ما تعلق به، وخَذَلَه أحوج ما يكون إليه.

قال عطاء الخراساني: «لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه داوُد عليه السلام: يا داوُد! أما وعزّتي وعظمتي لا يعتصم بي عبدٌ من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن؛ إلا جعلتُ له من بينهن مخرجًا، أما وعزّتي وعظمتي لا يعتصم عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته؛ إلا قطعتُ أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدمه، ثم لا

---

(١) صيد الخاطر (١ / ٦٣).



أبالي بأي أوديتها هلك»[١].

إنّ المتعلق بالله لا يخشى غيره الله ولا يخاف سواه، لعلمه أن المخلوقين مهما أوتوا من قوة وخبرة وسلطان وبطش؛ فلا يخرجون عن قَدَره وقُدرته طرفة عين، ولو اجتمعوا على أن ينفعوا أو يضروا أحدًا فلا يكون لمرادهم وقوع إلا إن شاء الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون.

وإن مما ينافي حقيقة التعلق بالله: الخوف من المخلوق خوفًا يدفع إلى ترك ما يجب أو فعل ما يحرم مداهنة في الدين رَغَبًا ورهَبًا، محاباةً لمخلوق أو خوفًا من شره، أو طمعًا في لعاعةِ حطامٍ زائل، فالطمع في نفع المخلوق أو الخوف من شرِّه إذا أدّى إلى ضعف التعلق بالله عز وجل، وَوَهَنِ التوكّل عليه تبارك وتعالى، وزلزلة الثقة به سبحانه، وزعزعة جبل اليقين به في صدره، والغفلة عن حقائق الأشياء؛ فإن هذا يقدح في أُسِّ التعلق، ويضعفه إن لم يذهبه، فيضعف في القلب حتى يتلاشى إن لم يتداركه ربه بعنايته، ويغمره بلطفه، ويأخذ بيده لتوفيقه وهداه ونوره، ومن تعلق بشيء وُكِلَ إليه، ومن وُكل إلى غير الله عز وجل ضاع وهلك، وخاب وعطب، وكان من الخاسرين. «ومما

(١) رواه الإمام أحمد في المسند وأسنده بقوله: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا أبو سعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن منبه..» فذكره. وانظر أيضًا: حلية الأولياء (٢٦/٤). ونقله ابن القيم في إغاثة اللهفان (٣٤/١) ومعناه حسن عظيم، وقد روي عن كعب بن مالك مرفوعًا ولا يثبت، بل قد حكم عليه الألباني بالوضع، كما في ضعيف الجامع (٤٩٢٣).

يصلح التمثيل به في عصرنا اليوم على هذا الضعف: ما يعتري بعض الدعاة وهو في دعوته إلى الله عز وجل من خوف على نفسه أو رزقه أو منصبه، الأمر الذي يؤدي ببعضهم إلى ترك ما هم عليه من تعليم للعلم أو دعوة إلى الله عز وجل، والإحجام عن مجالات الخير ونفع الناس، بحجة الحذر والبعد عن الفتن. والله سبحانه أعلم بها في قلوب العالمين. ثم إنه لو كان يغلب على الظن حصول الأذى والابتلاء؛ لكان لذلك بعض الوجه في الأخذ بالرخصة وترك العزيمة، أما وأن الأمر على العكس من ذلك؛ حيث يغلب على الظن عدم التعرض للأذى، فإنه لا تفسير لهذه المواقف إلا ضعف التوكل على الله عز وجل، والوسوسة الشديدة، والمبالغة في الخوف، والحذر الزائد من المخلوق الضعيف، وتهويل أمره، وهذا من كيد الشيطان ووسوسته، وكأننا لم نسمع ولم نعِ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وكما قال أحد الصالحين: الشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن يتضخم الشر، وأن يتبدّى قويًّا قادرًا قاهرًا بطّاشًا جبارًا، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمد له مُدافِع، ولا يغلبه غالب.

الشيطان صاحب مصلحة في أن يبدو الأمر هكذا، فَتَحْت ستار الخوف والرهبة، وفي ظل الإرهاب والبطش: يفعل أولياؤه في الأرض ما يقرّ عينه، يقلبون المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، وينشرون الفساد والباطل والضلال، ويُخفتون صوت الحق والرشد والعدل. والشيطان ماكر خادع غادر يختفي وراء

أوليائه، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته. ومن هنا يكشفه الله ويوقفه عاريًا، لا يستره ثوب من كيده ومكره، ويُعرِّف المؤمنين الحقيقة: حقيقة مكره ووسوسته؛ ليكونوا على حذر، فلا يَرهبوا أولياء الشيطان، ولا يخافوهم، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته»[١].

ومن عرف الله لم يبتغِ غيرَه، ولم يرجُ سواه، ولم يخف إلّاهو، ومن عرف الناس استراح، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

❁❁❁❁

(١) المفهوم الصحيح للتوكل ومظاهر الانحراف فيه. عبد العزيز بن ناصر الجليل. مجلة البيان (١٠٨ / ٢٢) بتصرف.

علامات المتعلق بالله تعالى

١-الخضوع والخشوع لربه.

إذا تعلّق المؤمن بربّه فإنه يذل لأمره ويخضع ويخشع، ويعلم أن الأمرَ كلّه لله تبارك وتعالى، وأن الدينَ دينُه، والشرعَ شرعُه، والعبدَ مُلْكُه، والخليقةَ كلّها مفتقرةٌ إليه بإطلاق، فإذا عقل المُوفّق هذا المعنى العظيم؛ استقرَّ علمُه على حقيقة الأمر، ورسخَ قلبُه في جَذْرِ اليقين، وتفرّعت شجرة إيمانه على شعب الإيمان الجميلة، وأثمرت ـ بفضل الكريم ـ صلاحَ القلب وسلامةَ الحال وبركةَ الحياة، فمهما جرت به رياح الأحكام فهو جارٍ معها، رخيّةً كانت عليه أو شديدة، فالله تعالى قد خلقه ليبتليه ويبتلي به، وليظهر رسوخ قدمه في التصديق والتسليم لخبره وأمره وشرعه.

فمن ابتلاء التصديق بالخبر؛ خبر الإسراء للمسجد الأقصى والرجوع في ليلة، فلقد كان زلزالًا شديدًا لأهل الإيمان، ومكرًا ربّانيًا بأهل الكفران، وكان فتنةً للناس وابتلاءً وامتحانًا ليميز الله الخبيث من الطيب، وليجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا، وليُخلّص صفّ المؤمنين من كل شائبةِ تردّد، أو هنّة رَيْبٍ، أو مائلةٍ بيقين، فثبّتَ الله تعالى على جادّة الإيمان من شاء من خُلَّصِ السابقين، وله الأمر من قبل ومن بعد، وتبارك الله كيف يُؤفكُ الناس عن آياتِ تنزيله وشرعه وخلقه وتدبيره؟!

أما من جهة الابتلاء بالأمر، فمن ذلك؛ تحويل القبلة للصلاة، ففيها ابتلاء للمؤمنين، ونخلٌ لصفوفهم من دَغَلِ المُخلّطين والمنافقين، فتمايزت حينها

أقدام المتعلقين به ممن تردّدت قلوبهم عن القبول والإذعان. قال الحرالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في جملته إنباء بأن القبلة مجعولة ـ أي مصيّرة ـ عن حقيقةٍ وراءَها ابتلاءٌ بتقليب الأحكام، ليكون تعلّق القلب بالله الحكيم لا بالعمل المحكم، فالوجهة الظاهرة ليكون ذلك علمًا على المتّبع عن صدق، فيثبت عند تقلّب الأحكام بما في قلبه من صدق التعلق بالله والتوجه له أيان ما وجّهه، وعلى المجيبِ عن غرضٍ ظاهر ليس يسنده صدق باطن، فيتعلق من الظاهر بما لا يثبت عند تغيره»(١).

وقال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم بيّن شدتها على من أخلد إلى العادة لغلبة القوة الحيوانية البهيمية، ولم يتمرن في الانقياد للأوامر الإلهية على خلع الإلف وذل النفس فقال: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾ أي ثقيلة شاقة جدًّا، لأن مفارقة الإلف بعد طمأنينة النفس إليه أمر شاق جدًّا، ثم استثنى من أيّده سبحانه بروح منه وسكينة فقال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خلق الذي له الأمر كله الهدايةَ في قلوبهم فانقادوا لما هداهم إليه»(٢).

٢-الاستعداد للرحيل.

المتعلق بالله مستعدٌّ للرحيل، حازمٌ أمره قبل الموت، حاملٌ زاده قبل الفوت، حبلُ أمله في الدنيا أقصر من كراع نملة، وفي الآخرة أوسع من شعاع

(١) عن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١ / ٢٦٤).
(٢) نظم الدرر (١ / ٢٦٤).

الشمس، هو في واد بهيج كريم، وأكثر الناس في أودية الدنيا صرعى، له حال ولهم أحوال، يرى الآخرة بعين بصيرته، إذ طمست الغفلةُ أعينَ أناسٍ وأعشَتْ آخرين، يرحمهم وينصح لهم، ويجتهد صادقًا في الخير لهم والهدى والبر والنجاة وحسن العاقبة وطيب المنقلب، يحمدُ الله فرحًا به شاكرًا مُعظّمًا مُنيبًا، مستعدًّا للرحيل لربه على الدوام، حتى إذا جاءه هتفت روحُه مُشتاقةٌ جَذْلى: مرحبًا بحبيبٍ جاء على فاقَةٍ، وحَيْهَلًا بفتحِ الباب للقاء ربي وسيدي ومولاي، غدًا ألقى الأحبة محمدًا ﷺ وحزبه، قد أعدَّ للأمر أُهبته من صالح العلم والعمل والحب والخوف والرجاء وحُسْنِ الظن بمن لا يأتي الخير إلا من قِبَلِه، ولا يُدفعُ الشرُّ إلا من جهته تبارك وتعالى وتقدس، «ويجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعدًا.

وَيَبكي عَلى المـوتَى ويَـترُكُ نفسه ... ويـزعَمُ أَنَّ قَـد قَـلَّ عَنها عَـزَاؤُهُ
ولَـو كـانَ ذا رأيٍ وعقـلٍ وَفِطنَـةٍ ... لكـانَ عَليـهِ لا عَلـيهِم بُكَـاؤُهُ

ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقلّ من يموت الأشياخ، وأكثر من يموت الشبان. ولهذا يندر من يكبر، وقد أنشدوا:

يعمّـر واحـدٌ فيُغـرّ قومًـا ... ويُنسى من يموت من الشبابِ

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه. فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلًا، وإنما يقدم على المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل وتبادر الشهوات، وينسى الإنابة لطول الأمل.

وإن لم تستطع قصر الأمل؛ فاعمل عمل قصير الأمل. ولا تمسِ حتى تنظر

فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلة فامحها بتوبة، أو خرقًا فارقعه باستغفار. وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك. وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس:

وخُـذْ لـكَ منـكَ عـلى مُهلـةٍ ... ومقبـل عيشِـكَ لم يُـدبرِ
وخَـفْ هجمـةً لا تُقيـل العثَـارَ ... وتطـوي الـورودَ عـلى المصـدرِ
ومثّـلْ لنفسـك أيّ الرّعيـل ... يضـمُّكَ في حَلبـةِ المحـشرِ

ثم صور لنفسك قصر العمر، وكثرة الأشغال، وقوة الندم على التفريط عند الموت؛ وطول الحسرة على البدار بعد الفوت. وصوّر ثواب الكاملين وأنت ناقص، والمجتهدين وأنت متكاسل.

ولا تخل نفسك من موعظة تسمعها، وفكرة تحادثها بها، فإنّ النفس كالفرس المتشيطن، إن أهملت لِجَامَه لم تأمن أن يرمي بك، وقد والله دنَّسَتْكَ أهواؤُك، وضيّعت عمرك.

فالبدار البدار في الصيانة، قبل تلف الباقي بالصبابة، فكم تعرقل في فخِّ الهوى جناحُ حازم، وكم وقع في بئر بوار مخمور، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

٣- تجديد التوبة النصوح.

المتعلق بالله تعالى محسنٌ لِمَتَابِه، فهو يعلم أنّه محلّ نظر ربه تعالى الذي لا

(١) صيد الخاطر (١ / ٦٥).

تخفى عليه خافية، ويعلم السرّ وأخفى، ولا يخرج شيء عن علمه وقدرته وحُكمه وحِكمته وتصريفه وتدبيره، فينبغي للعبد أن يتعاهد توبته على الدوام، فهو محتاج للتوبة بكل حال، عن مأمور لم يأت به كما أُمر، أو منهي وقع فيه، أو غفلة أبعدته عن أسباب حياة قلبه، «والحذر الحذر من المعاصي. فإن عواقبها سيئة.

وكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوط أبدًا مع تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا، وحسرة لمن نالها. فلو قارب زمان جزائه على قبيحه الذي ارتكبه كان اعتراضه على القدر في فوات أغراضه يعيد العذاب جديدًا.

فوا أسفًا لمُعَاقَبٍ لا يحسّ بعقوبته، وآهٍ من عقاب يتأخر حتى يُنسى سببه. أو ليس ابن سيرين يقول: «عيّرتُ رجلًا بالفقر فافتقرت بعد أربعين سنة»، وابن الخلال يقول: «نظرت إلى شاب مستحسن فنسيت القرآن بعد أربعين سنة»، فوا حسرةً لمعاقَبٍ لا يدري أن أعظم العقوبة عدم الإحساس بها.

فالله الله في تجويد التوبة عساها تكفّ كفَّ الجزاء، والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تُسقط العبد من عينه، وأصلح ما بينك وبينه في السر؛ وقد أصلح لك أحوال العلانية»[١].

٤- الرضا بالله ربًّا ومعبودًا.

المتعلق بالله تام الرضى بربه وبدينه وبنبيه ﷺ، معترف بالنعمة السابغة

---

(١) صيد الخاطر (١ / ٦٦).

عليه أن خصه بأن خلقه أولًا ولم يك شيئًا، ثم اختار له الجنس الإنساني الذي كرّمه بعبودية الاختيار، ثم اختصه بأن أخّر وجوده حتى يولد في هذه الأمة المصطفاة المرحومة الحمّادة، ثم أسبل عليه أعظم نِعَمِهِ بأن هداه للإسلام، وشرّفه بالقرآن، ووفّقه لاتّباع سيّد الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، فهو متقلب بفكره بين الحمد والشكر وحفظ المِنّة ورجاء مزيدها والثبات عليها والعصمة من مخالفتها، فكيف لا يتعلق بالله من هذا شأنه وشرفه وعبوديته؟! فالحمد لله رب العالمين.

وتأمل البشارة العظيمة لهذه الأمة المحمدية التي اختصها الله تعالى بين الأمم بخصائص كثيرة منها:

أنهم يؤجرون على عملهم القليل أكثر مما يؤجر به من سبقهم بالعمل الكثير فضلًا من الله وإحسانًا. فقد أخرج أبو عبد الله البخاري في صحيحه[1] بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يقول: «**إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم، كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أُعطي أهلُ التوراةِ التوراة، فعملوا بها حتى انتصف النهار، ثم عجزوا، فأُعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُعطي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا به حتى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أعطيتم القرآن، فعملتم به حتى غروب الشمس، فأعطيتم قيراطين قيراطين، قال أهل التوراة: ربنا؛ هؤلاء أقل عملًا، وأكثر**

---

(١) (٧٤٦٧).



أجرًا، قال: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا، فقال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء» وتحت هذا الحديث المبشر فوائد وعبر مسلكية وقلبية تملأ القلب بشرًا وسرورًا، اللّٰهم وفقنا لما وفقت به عبادك الصالحين.

وهذا الحديث العظيم «فيه مثلٌ ضربه النبي ﷺ لهذه الأمة، وللأمم السابقة. وفيه أن نسبة زمان هذه الأمة إلى ما سبق كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، بالنسبة إلى أول النهار، فإذا نسبت ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إلى أول النهار إلى العصر، تجد أن هذه الأمة سبقها أمم كثيرة، وهي في آخر الناس، ونبينا ﷺ هو نبي الساعة، فنسبة بقاء هذه الأمة في الدنيا إلى ما مضى كنسبة ما بعد العصر إلى غروب الشمس، إذا نسبته إلى ما مضى من النهار.

وبيّن النبي ﷺ أن هذه الأمة أقلّ عملًا وأعظم أجورًا، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. وفيه أن النبي ﷺ ضرب مثلًا لليهود والنصارى وهذه الأمة، فاليهود أعطوا التوراة، وقيل: لهم اعملوا بها، فعملوا من أول النهار إلى الظهر على قيراط قيراط، وفي اللفظ الآخر: «**مثلهم كمثل من استأجر أجيرًا فقال له: اعمل من أول النهار إلى الظهر على قيراط قيراط، فعمل وأخذ قيراطًا**». وفي هذا الحديث أنهم عملوا فعجزوا، فأخذوا قيراطًا قيراطًا، واستأجر آخرين من الظهر إلى العصر فعملوا، فأعطاهم قيراطًا قيراطًا، ثم استأجر آخرين من بعد العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين، فغضب الأولون، وقالوا: كيف تعطيهم قيراطين قيراطين، ونحن أطول زمنًا وأقل أجرًا، فقال: هل

ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وفي اللفظ الآخر: «**فغضبت اليهود والنصارى لما أعطى هذه الأمة**». فهذا من فضل الله على هذه الأمة، أنهم أقل عملا وأكثر أجورًا»[(١)].

وتأمل قول الله تعالى: «**ذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**»، «فهذا الفضل هو من الله جل وعلا، وإذا كان من الله جل وعلا؛ فإنّ فضل الإسلام على أهله إنما هو من الله جل وعلا، وهذا يجعل المسلم دائم التعلق بالله جل وعلا معرفةً منه بفضل ربه عليه في دينه هداية، وفي أجره عليه، فمن الذي هدى عباده للإسلام؟ هو الله جل وعلا، من الذي هداك للاستقامة على السنة؟ هو الله جل وعلا، من الذي تفضل عليك بالنور بعد ذلك؟ هو الله جل وعلا، من الذي تفضل بالحظّين من الرحمة والكفلين من الأجر[(٢)]؟ هو الله جل وعلا، فحينئذٍ يكون الأمر من الله جل وعلا وإليه ابتداء وانتهاء، وهذا يجعل قلب المؤمن موطَّنًا على محبة الله جل وعلا والذل له والاعتراف له جل وعلا بالفضل والإحسان دائما وأبدًا»[(٣)].

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري. الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (١ / ٩٧).

(٢) إشارة لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

(٣) شرح رسالة فضل الإسلام. ضمن مجموعة كتب الشيخ صالح آل الشيخ (٣٥ / ٢٧).

٥- الزهد فيما يشغل عن الآخرة.

المتعلق بربه سبحانه زاهدٌ في حطامٍ يشغله عن الآخرة والمنافسة فيها، لأن التعلق فرع عن العلم، والعلم الصحيح مفض للنظر الصحيح للدنيا والآخرة؛ فهو مشغول بالمسابقة للجنة والمسارعة إليها، «ولما ذكر سبحانه في سورة الحديد حال الفريقين يوم القيامة الأشقياء والسعداء قال مبينًا لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة، مصدّرًا له بما يوجب غاية اليقظة والحضور: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ أي أيها العباد المبتلون، وأكّد المعنى بزيادة (ما) لما للناس من الغفلة عنه فقال قاصرًا قصر قلب: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي الحاضرة التي نبّهتُكم للزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن ﴿لَعِبٌ﴾ أي تعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان ﴿وَلَهۡوٌ﴾ أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه، ثم ينقضي كلهو الفتيان، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتها فقال: ﴿وَتَفَاخُرُۢ﴾ أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض.

ولما كان ذلك مخصوصًا بأهل الشهوات قال: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ أي يجر إلى الترفّع الجارّ إلى الحسد والبغضاء، ثم أتبع ذلك ما يحصل به الفخر فقال: ﴿وَتَكَاثُرٞ﴾ أي من الجانبين ﴿فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ أي التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها زائلة ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ الذين لا يغتر بهم إلا سفيه، وأن جميع ما ذكر زائل، وأن الدنيا آفاتها هائلة، وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره، ثم إلى ذلك كله قد يكون

ذهابه عن قرب، فتكون على أضداد ما كان عليه، فيكون أشد في الحسرة.

ومطابقة ذلك لما بعده أن الإنسان ينشأ في حجر وليه فيشبّ ويقوى ويكسب المال والولد، ثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة، فإذا تمّ شبابه وأطفأه مجيئُه وذهابه وأشكاله وأترابه؛ أخذ في الانحطاط، ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم، وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه، ثم في آخر ذلك يموت، فإذا هو قد اضحمل أمره، ونُسي عما قليل ذكرُه، وصار ماله لغيره، وزينتُه متمتعًا بها سواه!

فالدنيا حقيرة، وأحقر منها طالبُها، وأقلّ منها خَطَرًا المزاحمُ فيها، فما هي إلا جيفة[1]، وطُلّابُ الجيفة ليس لهم خطر، وأخسهم من بخل بها، قال القشيري: «وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخرة، فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا».

ولما قرر سبحانه أنها ظلٌّ زائل، وكان بعض الناس يتنبّه فيشكر، وبعضهم

---

(١) الخَطَرُ هنا: هو القَدْرُ والعَظَمَةُ والأهمّية، وأنشدوا للإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومن يذقِ الدنيا فإني طعمتُها ... وسيق إلينا عذبُها وعَذابُها
فلم أرها إلا غرورًا وباطلًا ... كما لاح في ظهر الفلاة سرابُها
وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همّهُنّ أجتذابُها
فإن تجتنبها عشت سلمًا لأهلها ... وأن تجتذبها ناهشتك كلابُها
فطوبي لنفس أوطأت قعر بيتها ... مغلقة الأبواب مرخىً حجابُها

يعمى فيكفر؛ كان القسم الثاني أكثر، لأن وجودها وإقبالها يعمي أكثر القلوب عن حقارتها؛ ضرب لذلك مثلًا مُقرِّرًا لما مضى من وصفها، لأن للأمثال في تقرير الأشياء وتصويرها ما ليس لغيرها، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ﴾ أي هذا الذي ذكرته من أمرها يشبه مثل ﴿غَيْثٍ﴾ أي مطر حصل بعد جدب وسوء حال.

ولما كان المثل في سياق التحقير للدنيا والتنفير عنها؛ عبّر عن الزارع بما يُنفّر فقال: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي الزُّراع الذين حصل منهم الحرث والبذر الذي يستره الحارث بحرثه، كما ستر الكافر حقيقة أنوار الإيمان لما يحصل من الجحد والطغيان[1]، ولا يتناهى إعجاب الزُّرَّاع إلى حدّ يلهي مطلقًا عن الله إلا مع الكفر به سبحانه، فإن المؤمن وإن أعجبه ذلك فإنه يتذكر به قدرة الله سبحانه وتعالى وعظمته، وما أعد لأهل طاعته في الآخرة، فيحمله ذلك على الشكر.

ولما كان الزرع يشيخ بعد مُدَيدة فيضمحل، كما هو شأن الدنيا كلها قال: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يسرع تحركه، فيتم جفافه، فيحين حصاده ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أي عقب ذلك بالقرب منه على حالة لا ثمر معها بل ولا نبات، ولذلك قال معبرًا بالكون لأن السياق للتزهيد في الدنيا وأنها ظل زائل لا حقيقة لها: ﴿ثُمَّ﴾ أي

---

(١) والكفر في اللغة هو الستر والتغطية، كما قال لبيد:

يعدو طريقة متنها متواتر   في ليلة كفر النجومَ غمامُها

وقصد البقاعي أن الله اختار لقبًا مُنفِّرًا لمسمّى الزّرّاع إزراءً بالدنيا حتى بمسمّاها ومسمّى تشبيهاتها.

بعد تناهي جفافه وابيضاضه ﴿يَكُونُ﴾ أي كونًا كأنه مطبوع عليه، وأبلغ سبحانه في تقرير اضمحلاله بالإتيان مع فعل الكون هنا للمبالغة، لأن السياق لتقرير أن الدنيا عَدَمٌ وإن كانت في غاية الكثرة والإقبال والمؤاتاة.

ولما ذكر الظل الزائل ذكر أثره الثابت الدائم مقسّمًا له على قسمين، فقال عاطفًا على ما تقديره هذا حال الدنيا في سرعة زوالها وتحقق فنائها واضمحلالها: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أي لمن أخذها بغير حقها، معرضًا عن ذكر الله، لأن الاغترار بها سببه، فكان كأنه هو.

ولما قدم ما هو السبب الأغلب لأن أكثر الخلق هالك، أتبعه الصنف الناجي فقال: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ أي لأهل الدرجة الأولى في الإيمان ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي الإله الملك الأعظم، وهذا الجزاء الحسن لمن يذكر بما صنعه له في الدنيا عظمته سبحانه وجلاله فتاب من ذنوبه، ورجع إليه في التطهير من عيوبه ﴿وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ لأهل الدرجة العليا، وهم من أقبل عليه سبحانه فشكره حق شكره ببذل وسعه فيما يرضيه.

فآخرُ الآية تقسيم للدنيا على الحقيقة، لئلا يظن من حصرها فيما ذكر أول الآية أنها لا تكون إلا كذلك، فالمعنى أن الذي ذكره أولًا هو الأغلب لأحوالها وعاقبته النار، وما كان منها من إيمان وطاعة وتوحيد الله وتعظيمه ومعرفته تؤدي إلى أخذها تزودًا، ونظرها اعتبارًا وتعبدًا؛ فهو آخرة لا دنيا.

وقد تحرّر أن مثل الغيث المذكور الحطام، وتارة يعقبه نكد لازم وأخرى سرور دائم، فمن عمل في ذلك عمل الحَزَمَةِ فحرس الزرع عن ما يؤذيه،

وحصده في وقته، وعمل فيه ما ينبغي، ولم ينس حق الله فيه؛ سرّه أثره وحُمِدت عاقبته، ومن أهمل ذلك أعقبه الأسف. وذلك هو مثل الدنيا فمن عمل فيها بأمر الله أعقبته حطاميتها سرورًا دائمًا، ومن أهمل ذلك أورثته حزنًا لازمًا، وكما كان التقدير: فما الآخرة لمن سعى لها سعيها وهو مؤمن إلا حق مشهور وسعي مشكور؛ عطف عليه قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي لكونها تشغل بزينتها مع أنها زائلة ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي لهوٌ في نفسه، وغرور لا حقيقة له إلا ذلك، لأنه لا يجوز لمن أقبل على التمتع إلا ذلك، لأنه لا يسر بقدر ما يضر.

ثم قال سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإنه سبحانه لمّا بيّن أن الدنيا خيالٌ ومحالٌ ليصرفَ الكُمّلَ من العباد عنها لسفولها وحقارتها، وأن الآخرة بقاء وكمال ليرغبوا غاية الرغبة فيها، وليشتاقوا كل الاشتياق لكمالها وشرفها وجلالها، أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي افعلوا في السعي لها بالأعمال الصالحة حق السعي، فِعْلَ من يسابق شخصًا فهو يسعى ويجتهد غاية الاجتهاد في سبقه، ولكن ربما كان قرينه بطيئًا فسار هوينًا، وأما المسارعة فلا تكون إلا بجهد النفس من الجانبين مع السرعة، فآية آل عمران الآمرة بالمسارعة الأخص من المسابقة أبلغ(١) لأنها

(١) وهي قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

للحث على التجرد عن النفس والمال وجميع الحظوظ أصلًا ورأسًا، ولذلك كانت جنتها للمتقين الموصوفين. وأما هذه ففي سياق التصديق الذي هو تجرد عن فضول الأموال ولذلك كانت جنته للذين آمنوا.

ولما كان المقام عظيمًا، والإنسان ـ وإن بذلك الجهد ـ ضعيفًا، لا يسعه إلا العفو سواء كان سابقًا أو لاحقًا من الأبرار والمقربين؛ نبّه على ذلك بقوله في السابقين ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ أي ستر لذنوبكم عينًا وأثرًا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي المحسن إليكم بأن رباكم بعد الإيجاد بأنواع الأسباب بأن تفعلوا أسباب ذلك بامتثال أوامره سبحانه واجتناب زواجره.

ولما كان المقصود من المغفرة ما يترتب عليها من نتيجتها قال: ﴿وَجَنَّةٍ﴾ ومن عظم أشجارها واطراد أنهارها سترت داخلها. ولما كان ذلك لا يكمل إلا بالسعة قال: ﴿عَرْضُهَا﴾ أي فما ظنك بطولها؟! ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي هيئت هذه الجنة الموعود بها وفرغ من أمرها بأيسر أمر ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي أوقعوا هذه الحقيقة وهم من هذه الأمة إيقاعًا لا ريب معه ﴿بِٱللَّهِ﴾ أي الذي له جميع العظمة لأجل ذاته مخلصين له بالإيمان ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ فلم يفرقوا بين أحد منهم.

ولما كان ما ذكر من الوعد بالمغفرة والجنة عظيمًا لا سيّما لمن آمن ولو كان إيمانه على أعلى الدرجات؛ عظّمه بقوله ردًّا على من يوجب عليه سبحانه شيئًا من ثواب أو عقاب: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر العظيم جدًّا ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي الملك الذي لا كفء له فلا اعتراض عليه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ولعل التعبير بالمضارع

للإشارة إلى خصوصية هذه الأمة بأنها أقل عملًا وأكثر أجرًا، فإذا حسدهم أهل الكتاب قال تعالى: «**هل ظلمتكم من أمركم شيئًا**» فإذا قالوا: لا، قال: «**ذلك فضلي أوتيه من أشاء**»[(١)] ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي والحال أن الملك المختص بجميع صفات الكمال فله الأمر كله ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي الذي جل عن أن تحيط بوصف عظمة فضله العقول»[(٢)].

٦- إحسان الظن بالمولى الكريم.

المتعلق بربه كلّه أمل في فضله وكرمه وسعة رحمته، وتهش نفسه وتطرب لسماع البشارات للمؤمنين سائلًا ربه أن يسلكه سبيلهم، وفي صحيح الإمام البخاري، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيًّا لها، فألصقته إلى صدرها، وأرضعته فقال: «**أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك؟**» قالوا: لا. قال: «**فوالله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[(٣)] فرحمة الله تعالى لا تُحيطها العقول، ولا تتخيّل الأفئدة سعتها وعظمتها، ولا تتصوّر الأفهام قدرها، فأعظم رحمة في الدنيا على الإطلاق هي رحمة الوالدة، ومع ذلك فالله أرحم بعبده منها، بل وكل رحمات الدنيا - بما فيها رحمة الوالدات - هي جزء من مئة جزء من الرحمة التي يرحم الله بها عباده، قال ﷺ: «**إن لله عز وجل مئة رحمة، فجعل منها رحمة في الدنيا**

---

(١) البخاري (٧٤٦٧).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧ / ٤٥١ - ٤٥٦) بتصرف واختصار.

(٣) البخاري (٥٩٩٩).

تتراحمون بها، وعنده تسعةٌ وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين رحمة، ثم عاد بهنّ على خلقه»(١) فرحمة الله وسعت كل شيء، وهذه الرحمة التي جعلها في عباده مخلوقة، أما الرحمة التي هي صفة من صفاته سبحانه القائمة بذاته فليست مخلوقة، بل هي رحمة لائقة بجلال الله وعظمته، فلا يهلك على الله إلا هالك، أما المؤمن فمتعلق برحمة أرحم الراحمين، فهو منتظر لرحمة ربه في الآخرة، راغبًا راهبًا محبًّا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، منتظر بحسن ظنه بربه تحيّةَ الجليل الجميل سبحانه ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] فيسلم عليهم بأحسن تحية كما قال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

٧- الفرح بالله وبشاراته.

المتعلق بالله فرح مسرور بالله تعالى، مستبشرٌ بحُسْنِ ظنه في العاقبة لديه، فرحٌ بالزلفى بين يديه، محتفٍ بالخير الهائل في قلبه والكرم الكبير في يديه، جَذِلٌ مسرورٌ ببشارات رسوله وحبيبه ﷺ، متمثلًا ومتأسِّيًا بتلك السجايا المحمدية الحميدة والأخلاق الأحمدية الجميلة، مملوءٌ قلبه بمحبته والتمسك بسنته والمسارعة لاتّباعه، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٧].

---

(١) أحمد (١٠٨١٠) بسند صحيح، وبنحوه عند البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٣).

قال وهب بن منبه رحمه الله تعالى: «إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ـ يقال له: شعياء[(١)]: أن قُم في قومك بني إسرائيل، فإني منطق لسانك بوحي وأبعث أُمِّيًّا من الأمّيّين، أبعثه مُبشّرًا، ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه. أبعثه مبشرًا ونذيرًا، لا يقول الخنا. أفتح به أعينا عميًا كُمْهًا[(٢)]، وأذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا.

أسَدّده لكل أمر جميل، وأَهَبُ له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأُعلّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأُعرّف به بعد النُّكْرَة، وأكثّر به بعد القلة، وأغني به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فِئامًا من الناس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التسبيح والتحميد

(١) ويقال: أشعياء، وإشعياء، وهو من مشاهير أنبياء بني إسرائيل، وباسمه سفر من أسفار كتابهم، وقد حوى بشارت كثيرة بنبوة محمد ﷺ، وانظر سلسلة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ للمؤلف.

(٢) الأكمه: الذي وُلد أعمى.

والثناء والتكبير والتوحيد في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلّون لي قيامًا وقعودًا، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزُحوفًا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفًا، يُطهّرون الوجوه والأطراف، ويشدّون الثياب في الأنصاف، قربانُهم دماؤُهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل ليُوث بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين.

أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أُعِزُّ مَنْ نصرهم، وأُؤيّد مَنْ دعا لهم، وأجعل دائرة السَّوء على مَنْ خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئًا مما في أيديهم.

أجعلهم ورثةً لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣٨) وقال: هكذا رواه ابن أبي حاتم، عن وهب بن منبه اليماني، رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ورواه أبو نعيم في الدلائل (٣٣). وابن أبي حاتم في تفسيره (٣١٤١/١٠). وانظر: تفسير الطبري (١٧ / ٣٦٢). وقال الزرقاني في شرح المواهب اللدنية (٤٢٢/٧): «قربانهم دماؤهم»: أي: أضاحيهم وهداياهم، أو المراد أنهم متهيئون للجهاد في سبيل الله، فكأنهم يتقرّبون إلى الله بدماء أنفسهم، أو بدماء من قتلوه من الكفار؛ كما قال كعب بن زهير في مدح الأنصار:

يتقرّبون يرونه نسكًا لهم ... بدماءِ من عَلِقُوا من الكفّارِ

٨- حراسة الوقت من الضياع.

فالمتعلق بالله يعلم أن عمره قصير، وأن سنينه مهما امتدت وبسطت فمناه وآماله أكبر وأبعد من أن تحتويها، لذلك فهو يعمر الباقية ولو بخراب الفانية، يرفع الآخرة حيث رفعها الله، ويضعُ الدنيا حيث وضعها الله، فيجعل الدنيا مُعينة على تحصيل فوز الآخرة وفلاح الباقية، مجتهدٌ في عمارة وقته بذكر الله وما والاه، عاقلٌ يُقدّمُ الأهمَّ على المهم، متكاملٌ في توزيع جهده، منظمٌ في ترتيب وقته، يقطع بحسن نيته وحسن توكّله وقوّة عزيمته وثباتِ إرادته ما لا يقطعه الأفذاذ من أقرانه، متعلق بكلّيته بالله تعالى، واثقٌ به، متوكلٌ عليه، مفوّض أموره إليه، مُحبٌّ لربِّه بكُليّته.

يحزن للساعة التي يغفل فيها عن ربه، فإن اختلستها نفسه الأمارة، واستلبها القرين الرجيم؛ حمل عليهما بنفسٍ لوّامة لهما، فاستعاض عما سلف من غفلته بتدارك ما استقبله، والاجتهاد في تعويض ما فاته، والعَوْدُ الحسنُ للعمل الصالح، فاطمأنت نفسه للخير الذي ترجوه، والأمل الذي ترقبه، فهو بين ادّكار واعتبار وفرح واستبشار، متقلّب على مراضي ربه، راتِعٌ في رياض ذكره، مراوح بين الفرض والنفل، قد جهز راحلتي صبره وشكره، وزاملةَ زاد التقوى، بنورِ بصيرة اليقين.

ولما تولى عمر بن عبد العزيز، دعا زوجه فاطمة، فخيّرها بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فبكت، وبكت جواريها من بكائها، فسُمعت ضجة البكاء من دارهم، ثم اختارت مقامها معه على كل

حال رحمها الله. وقال له رجل: تقرب إلينا يا أمير المؤمنين، فأنشأ يقول:

قد جاء شغلٌ شاغلٌ وعدلْتُ عن طُرُقِ السلامة

ذهب الفراغُ فلا فراغَ لنا إلى يومِ القيامة

وبالجملة؛ فإنّ مِن علامات المتعلق بالله حقًّا أن يكون ضنينًا بوقته النفيس، مقبلًا على شأنه العظيم، منشغلًا بما يَعنيه ويُغنيه عما لا يعنيه ولا يُغنيه، وأن يجتنب كل مجلس يكون على حساب خيره وصلاح نفسه وحسن منقلبه وطيب معاده، فيجتنب مجالسة الناس فيما لا ينفع على حساب الطاعة والعلم والبر والذكر والتلاوة وقيام الليل، اغتنامًا للعمر وأوقاته، وأن يقتصر في مجالس الناس التي يُضطَرّ إليها على الحد القليل، مع نيّته الطيبة نفع الناس ونصحهم، رحمة بهم وحبًّا للخير لهم بقوله وعمله وخلقه، ولا يطيل مجالسة الناس فيما دون ذلك ما استطاع.

ومن لم يغتنم وقته وأضاع عمره بزيارة غير نافعة هنا وهناك؛ لم يجد وقتًا لطلب علم ولا لقيام ليل ولا لذكر، خاصة مع قلة بركة الوقت في زماننا، فكيف الحال والمصيبة الجاثمة بانصباب وسائل التواصل الإلكتروني علينا، وانهيال أسباب الغفلة عبر الشاشات صغيرها وكبيرها لدينا!

أولَم يهد لنا أن نتفطّن لحالنا معها، أمَا هذه سارقة نفيسِ الأوقات، وذابحة جمعيات القلب على رب البريات، بل فيها ذُحُول ذنوب الخلوات، وتراكم رجوم الغفلات، ومن أوضارها يبوسة القلب وقسوته، بل والخوف عليه من الرَّين والطّبع، وقحط العين بعد أن جفّ نبعُ رُوح الخشية من معدن العمر،

وانسلّ بساط المراقبة من تحت قدم المحاسبة، فأمست في الصدر ظُلَمٌ وبلاقع بعدما كان بالوحي بصيرًا مستنيرًا، وبغيث الإيمان مُخصبًا ربيعًا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ألَا إنّ الرزيّة في ذلك يا إخوتاه كبيرة، والشرّ فيها شديد، والخذلان فيها عظيم، والحسرة بها واقعة، إلا من رحم الله تبارك وتعالى من أوليائه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين، فاللهم أجرنا في مصيبتنا، واخلف لنا خيرًا منها، وأعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأيقظنا اللّهم من رقدات الغفلات إلى روضات العبادات، إله الحق.

ولقد بيَّن النبي ﷺ منهجًا لمن خشي أن يُفتن في دينه بمخالطة الناس - بالبدن أو الكتاب أو غيرهما كوسائل التواصل الحديثة - أنّ عليه أن يعتزل أسباب الفتنة، ولو أن يتخذ البادية بدل المدينة مسكنًا وموطنًا - وهذا حالٌ يحتاج إلى فقهٍ متين، وعقلٍ قويم، وقلبٍ عزّام، وروحٍ بالله راضية، حتّى لا تزلّ به عند المعترك القدمُ، فينحرف مِنْ حيث رام الثبات، ويسقط حين أراد القيام - فقال ﷺ: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواطن القطر، يفرّ بدينه من الفتن»**(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله

(١) البخاري (١٩).

سبحانه الكافر ميتًا غير حيّ، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: ٢١]، فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره. فالبرّ والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]. فلا يخلو إمّا أن يكون له مع ذلك تطلّع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية، أو لا. فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك؛ فقد ضاع عليه عمره كلّه، وذهبت حياته باطلًا. وإن كان له تطلع إلى ذلك؛ طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسّرت عليه أسباب الخير، بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسرّ المسألة أنّ عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته»(١).

٩- توحيد التعلق بالله تعالى دون من سواه.

فتوحيد التعلق بالله هو أخص سمات المتعلق الحقيقي، ومن مقتضيات تحقيق العبودية لله تعالى إفراده سبحانه بالتعلق، فمع بذل الأسباب الظاهرة لا بد أن يكون القلب متعلقًا بمسببها سبحانه، فالخير كله بيديه، وهو على كل

---

(١) الداء والدواء لابن القيم (١ / ١٣٨).

شيء قدير.

وَمَن وطّن نفسه على التعلق بالله وحده في أمور معاشه ومعاده، بحيث لا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله، ولا يخشى من غيره، ووطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس، فإن اليأس عصمة، ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله. فيبقى عبدًا لله حقيقة، سالمًا من عبودية الخلق، قد تحرّر من رقّهم، واكتسب بذلك العزّ والشرف، فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم، والله المستعان.

وتفكر في قصة خطبة الصديق عند وفاة رسول الله ﷺ وكيف علّق الناس برب الناس لا بغيره من مخلوقاته، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكلم الناس، وقال: اجلس يا عمر. قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما بعد: فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤- ١٤٥] قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتلاها منه

الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها»[(١)] وعن سعيد بن المسيب أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فَعُقِرْتُ حتى ما تقلّني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض»[(٢)].

فأبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد احتمل هذ الخطب الجسيم لأن قلبه كان شديد التعلق بالخالق عليم بشرعه فوفّقه في ساعة الشدة، وتأمل فقهه بقوله: «فإن الله حيٌّ لا يموت»، فيا لله! كم فيها للمؤمنين من ذخرٍ ورضا.

ومع نماذج أُخرَ من سادة الأمة؛ فعن أبي نجيح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أن رجلًا من المهاجرين مرَّ على رجلٍ من الأنصار يتشحّط في دمه فقال له: يا فلان، هل شعرت أن محمدًا ﷺ قد قتل؟ وكان ذلك في أُحدٍ، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ. فقاتلوا عن دينكم»[(٣)].

وفي غزاة أُحدٍ لـمّا انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ واستقبل رجالًا من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ. فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: يا سعد، واهًا لريح الجنة، إني أجدها من دون أُحد، فقاتل حتى قتل،

---

(١) البخاري (٤٤٥٢).

(٢) البخاري (٤٤٥٣).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٤٨).

ووُجِد به بضع وسبعون ضربة، ولم تعرفه إلا أخته ببنانه(١).

١٠- حفظ اللسان.

إنّ المتعلق مشغول بحفظ لسانه ومراقبته، متذكر قول الله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨] فإن حفظ اللسان عليه المدار، وإليه جرت الإشارات لخطره، فهو مِلَاكُ أمر العبد. فمتى ملك العبد لسانه ملك جميع أعضائه، ومتى ملكه لسانه فلم يصنه عن الكلام الضار؛ فإن أمره يختل في دينه ودنياه. فلا يتكلم بكلام إلا قد عرف نفعه في دينه أو دنياه. وكل كلام يحتمل أن يكون فيه انتقاد أو اعتذار فليدعه، فإنه إذا تكلم به ملكه الكلام، وصار أسيرًا له، وربما أحدث عليه ضررًا لا يتمكن من تلافيه، ومصارع الرجال تحت ألسنتها.

ومن التنبيه المهم أن يحذر المرء من قلمه، فالقلم أحد اللسانين، وكل ما قيل ويقال في اللسان فهو منسحب على القلم فخطرهما واحد، وكم من عيي اللسان سليط القلم، ولو عيّ قلمه لسلمت نفسه وسلم الناس من وَضَرِه!

ويكفي في خطر اللسان وضرورة حراسته وحبسه وصية رسول الله ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أمسك عليك هذا**» فقال معاذ: أوَ نحن مؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا**

(١) زاد المعاد (٣/١٩٨ و٢٠٩) وأصل القصة في الصحيحين.

حصائد ألسنتهم»[١]. وقال ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة»**[٢]. وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»**[٣].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاما ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»[٤].

وقال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[٥].

وعن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده»**[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦) والترمذي (٢٨٠٤) وصححه والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥) وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (٤/٢٥٩) والشوكاني في الفتح الرباني (٣/١٣٥٤).

(٢) البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٤).

(٣) البخاري ٥/٦١ (٣٨٦٦).

(٤) رياض الصالحين. تحقيق د. الفحل (٢ /١٧٧) وقد استفدت منه في تخريج بعض الأحاديث، جزاه الله خيرًا.

(٥) البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٥) ومسلم ١/٤٩ (٤٧) (٧٤).

(٦) البخاري ١/١٠ (١١)، ومسلم ١/٤٨ (٤٢) (٦٦).

وقال ﷺ: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها، يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»**(١) ومعنى يتبيّن: أي لا يتفكّر في مآلها خيرًا كانت أم شرًّا، ولا يبالي بمنتهاها فتهوي به في النار عياذًا بالله.

وقال ﷺ: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم»**(٢). وعن سفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به قال: **«قل: ربي الله، ثم استقم»** قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: **«هذا»**(٣). وصلاح اللسان من صلاح القلب، فإن صلح القلب وقويت الإرادة؛ طاب اللسان بأمر ربه.

١١- شدة الحرص على موارد حياة القلب، ودفع أسباب ضعفه وموته.

فلما كان القلب هو قطب رحى الإرادة، وصندوق ذخائر الإيمان، وبصلاحه صلاح النفس وفلاح المصير؛ كان له المحل الأرفع في استصلاحه، وتنمية موارد الخير فيه، والعمل على حراسته من غوائل الشيطان. ومن كان

---

(١) البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٧) ومسلم ٨/٢٢٣ (٢٩٨٨).

(٢) البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٨).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٧٢) والترمذي (٢٤١٠) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

هذا حاله فهو البصير حقًّا، والعاقل صدقًا، وعلى قدر صلاح القلب تكون نسبة تحسّسه من دغل الذنوب، وتفرُّسه في مآلاتها في حاله ومآله.

ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأمل رائع في حال الثلاثة الأخيار الذين خُلِّفوا، فكان ذنبهم هذا سبب لفتوح الخير بصدق توبتهم، وجِدِّ أوبَتهم، ومحو حوبتهم[(١)]، وذلك لأنهم كانوا من المتعلقين بربهم، الراجين رحمته، الخائفين من عذابه، في حين كان المنافقون لا يحسون بموات أفئتهم، وما لجرحٍ بميّت إيلامُ. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي نهى النبي ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر مَن تخلَّف عنه؛ دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجرَ الصادقين وتأديبَهم على هذا الذنب، وأما المنافِقون، فجُرمهم أعظمُ من أن يُقابَل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق، ولا فائدةَ فيه، وهكذا يفعلُ الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدِّبُ عبده المؤمن الذى يحبُّه وهو كريم عنده بأدنى زَلَّة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حَذِرًا، وأما مَن سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخَلِّي بينَه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نِعمة، والمغرورُ يظن أن ذلك مِن كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عينُ الإهانة، وأنه يُريد به العذابَ الشديد، والعقوبةَ التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: **«إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»**[(٢)].

---

(١) انظر رسالة: (لله درك يا كعب) للمؤلف.

(٢) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن غريب وصححه السيوطي في الجامع =

وقول كعب: «حتى تنكّرتْ لي الأرض، فما هِي بالتي أعرِفُ» هذا التنكرُ يجده الخائفُ والحزينُ والمهمومُ في الأرض، وفي الشجر والنبات، حتى يجدَه فيمن لا يُعلم حاله من الناس، ويجده أيضًا المذنبُ العاصي بحسب جُرمه حتى في خُلُقِ زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويَجِدُه في نفسه أيضًا، فتتنكر له نفسُه حتى ما كأنَّه هو، ولا كأنَّ أهلَه وأصحابَه، ومَن يُشْفِقُ عليه بالَّذِينَ يعرِفُهم، وهذا سرّ من الله لا يخفى إلا على مَن هو ميتُ القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراكُ هذا التنكّر والوحشة.

ومن المعلوم، أن هذا التنكرَ والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلبُ إذا استحكم مرضُه، واشتد ألمُه بالذنوب والإجرام؛ لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامةُ الشقاوة، وأنه قد أيسَ من عافية هذا المرض، وأعيا الأطباء شِفاؤه، والخوفُ والهمُّ مع الريبة، والأمنُ والسرورُ مع البراءةِ مِن الذنب.

فَـمَا في الأرْضِ أَشْـجَعُ مِـنْ بَـرِيءٍ وَلا في الأرْضِ أخْـوَفُ مِـنْ مُريـبِ

وهذا القدرُ قد ينتفع به المؤمنُ البَصيرُ إذا ابتُلِيَ به ثم راجع، فإنه ينتفع به نفعًا عظيمًا مِن وجوه عديدة تفوتُ الحصرَ، ولو لم يكن منها إلا استثمارُه من ذلك أعلام النبوة، وذوقُه نفس ما أخبر به الرسولُ فيصير تصديقه ضروريًا عنده، ويصيرُ ما ناله مِن الشر بمعاصيه، ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق

=

الصغير (٣٨٤) والألباني في صحيح الترمذي.

النبوة الذوقية التي لا تتطرقُ إليها الاحتمالات، وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيتَ وكيتَ على التفصيل، فخالفته وسلكتها، فرأيتَ عَيْن ما أخبرَكَ به، فإنك تَشْهَدُ صِدقَه في نفس خِلافك لهُ، وأما إذا سلكت طريقَ الأمن وحدها، ولم تجد من تلك المخاوف شيئًا، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلًا، فإنّ علمه بتلك يكون مجملًا»(١).

١٢- رعاية أحوال القلب.

المتعلق بالله تعالى عن علم يخشى سقوطه من عين ربه لأدنى زلة، ويخاف إبعاده عن حضرةِ قدسِ محبةِ ربِّهِ لأدنى غائلةِ خطيئة، فخوفه من الله وخشيته وهيبته على قدر علمه به، فهو ممسكٌ بميزان العلم في قلبه، تكشف له بصيرةُ المحاسبةِ حالَهُ مع دينه، لا يركن إلى الغافلين، ولا يطير مع الطامعين، ولا ييأس مع القانطين، بل يَنعَمُ مع المُسبّحين القانتين الأوّابين، يتلمّسهم وحدانًا في سَيره لربه، إن رآهم ببصره وخالطهم بحسّه، وإلّا اكتفى بمعيّة الرعيل الأول، الذين تُفتحُ لأعمالهم أبواب السماء، وتفرحُ برفع أرواحِهم الخضراءُ، ولا تستوحش لهم الغبراءُ، بل تشهد لهم بالخير عند ربها حين تُحَدِّثُ أخبارَها، السابقين السبّاقين الأوّاهِين المسارعين في مراضي رب العالمين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، يتلمّح آثارهم على الطريق، وخُطاهم على المنهاج، وتراتيلهم عبر الزمان، ويتسمّع أخبارهم عبر طروس العلم الأصيل، من آثار السلف

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٥٧٧ - ٥٨٠).

الصالحين، فهو بين رجاء عظيم لربه، وحسن ظن جميل به، وبين خوف شديد من عاقبة ذنبه، ورهبة خجلى من لقاء ربه. وهذا التعلق الصحيح الصادق العميق يثمر في قلبه التقوى والورع والزهد والجِدَّ والاستعانة وقصر الأمل وقوة الإيمان باللقاء.

وتلك الموراد القلبية الصافية النقيّة تثمر أينعَ الثمرِ وأطيبَه وأزكاه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المعرفة تثمر المحبة، والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضا، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل، ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة، والورع يثمر الزهد أيضًا، والتوبة تثمر المحبة أيضًا، ودوام الذكر يثمرها، والرضا يثمر الشكر، والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات، والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه، والمعرفة تثمر حسن الخلق، والفكر يثمر العزيمة، والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام، والحياء والخشية والإنابة وإماتة النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزّه وجبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياءَ من الله عز وجل، واستكثارَ ما مِنْهُ، واستقلالَ ما مِنْكَ من الطاعات، ومحوَ أثر الدعوى من القلب واللسان، وصحةُ البصيرة تثمر اليقينَ، وحسنُ التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كلّه أمران: أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتُسكِنَه في وطن الآخرة، ثم تقبل به كلّه على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله، وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته تنزلها على داء قلبك، فهذه طريق مختصرة قريبة سهلة موصلة إلى الرفيق الأعلى، آمنة

لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ولا جوع ولا عطش، ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق البتة. وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم ويدفع عنهم.

ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها، والله المستعان»(١).

فيا من علّمك الله وعرّفك وهداك: عرفت فالزم، واشكُر تُشكر، وأقبل يُقبل عليك، وجاهِد تُعَنْ، وأخلِص تتخلّص، وما خاب مَن صَدَقَ الله تعالى!

١٣-توطين النفس دائمًا لأحسن الأخلاق مع الله تعالى مع اختلاف الأحوال.

المتعلق بالله قد وطّن نفسه على إحسان العبادة على كل حال قدر طاقته ووسعه، وحسن المعتقد والعمل هو جوهو حسن الخُلُق مع الله تبارك وتعالى، فالموفّق من أولياء الله تعالى هو من أَطَرَ نفسه على الخير حتى سكنت، ثم انقادت، ثم اطمأنت، فوصلت وحصّلت، «فهو قد وطّن النفس على التعلق بالله وحده، في أمور معاشه ومعاده، فلا يسأل إلا الله، ولا يطمع إلا في فضله. ويوطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس؛ فإن اليأس عصمة. ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله، فلا يعلق قلبه إلا بالله. فيبقى عبدًا لله حقيقة، سالمًا من عبودية الخلق. قد تحرر من رقِّهم، واكتسب

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٨ - ٣١) باختصار يسير، ولم يذكر الإمام الأمر الثاني في هذا الموضع، فلعله شُغل عنه.

بذلك العز والشرف؛ فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم. والله أعلم»(١).

١٤- تعليق القلب ببيوت الله تعالى.

لمّا تعلق قلب المؤمن بربه هفت نفسه لبيوت الله التي رُفعت لذكره، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٦- ٣٧] فالمسجد هو قطب رحى راحة المؤمن، فإذا خرج منه أحس بِبَضْعَةٍ منه بقيت خلفه تجذبه إليها، فلا يطمئن حتى يعاودها ويرتاضها ويعيش بروحه فيها، فيستريح ويُسَرّ وتقرّ عينُ عينِه بها. فهو ينتقل مُهتزًّا بحَبْرَةِ السرور بين جِنَانِ لذائذ الأرواح، ومغاني هناءات الأفراح، من صلاةٍ لقراءةٍ لذكرٍ لتفكّرٍ لدعاءٍ حتى اختلط حبُّ المسجد بروحه وفؤاده ولحمه ودمه وعصبه، وغَدَا بيت الله تعالى (أوكسيجينًا) لرئةِ روحه، برحابه تنعم وتسعد، بل تحيا وتصحّ. وكذلك المؤمنة في مصلاها في قعر بيتها، فسلوتها وراحتها في صلاتها وذكرها ودعائها.

ويكفي المؤمن الذي أمسى بهذا الحنين لموطن السجود بشارة رسول الله ﷺ بأنّ من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**رجل قلبه معلّق بالمساجد**»(٢). فأمسى قلبه كأحد قناديل المسجد المُعلّقة من حُبِّه والكَلَفِ

---

(١) مجموع مؤلفات السعدي (٧ / ٢٠٣).

(٢) البخاري (٦١١٤) ومسلم (١٠٣١).

به، كيف لا والمساجد أحبّ البقاع إلى الكريم تبارك وتعالى، ولا يعني هذا دوام العكوف بها، فلا رهبانية في الإسلام، إنها الأمر حُبٌّ لها وَصَل الشِّغَافَ، واستولى على ما سِواهُ ممّا سِوَى مَرَاضي مولاه، وثبت عبر المدى، وصَدَقَ بحُسن التعبّدِ وسرعة الإجابة ورسوخِ القنوت، وهؤلاء في الأمة كثيرون بفضل الرحمن جل جلاله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فالمؤمن من عُمّار بيوت الله بقلبه وقالبه، «وليس المقصود بتلك العمارة أداء الصلوات فيها فقط، ولكن لا بد كذلك من تعلُّق قلبه بها، قال النووي في شرح حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى ومنهم: «**رجل قلبه معلّق بالمساجد**»: «معناه شديد الحبّ لها، والملازمة للجماعة فيها، وليس معناه دوام القعود في المسجد»[(١)]. وقال ابن حجر في الفتح: «ظاهره أنه من التعليق، كأنه شُبِّه بالشيء المُعلّق في المسجد، كالقنديل مثلًا؛ إشارة إلى طول الملازمة بقلبه، وإن كان جسده خارجًا عنه، ويدل عليه رواية الجوزقي: «كأنما قلبه في المسجد».

ويُحتمَل أن يكون من العَلاقة، وهي شدة الحب، ويدل عليه رواية أحمد: «**معلّق بالمساجد**» وكذا رواية سلمان: «**مِنْ حُبِّها**»، وزاد مالك: «**إذا خرج منه حتى يعود إليه**»، وهذه الخَصلة هي المقصودة من هذا الحديث»[(٢)].

وجاء في فيض القدير للمناوي: «قلبه معلق بالمساجد من شدة حبه إياها، لـمّا آثر طاعة الله وغلب عليه حبُّه؛ صار قلبه ملتفتًا إلى المسجد، لا يُحِبّ البَرَاح

---

(١) المنهاج (٤/١٠٨).
(٢) فتح الباري (٢/١٤٥).

عنه؛ لِمَا وجد فيه من رَوْح القُربة، وحلاوة الخدمة، فآوى إلى الله مؤثِرًا فأظله»(١).

وقال المباركفوري في التحفة(٢): «لأن المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالطير في القفص، فإن القلوب كثيرةُ التقلبات والتحولات، فلِلْقَلبِ من اسِمْه حظٌّ ونصيب، ونستطيع أن نُشَبِّهها بالإناء، فيمكن أن يُعْرَف به ماءٌ عذبٌ، ويمكن أن يُعرَف به ماءٌ أُجَاجٌ، وهكذا القلب، يمكن أن يتقبل الخير، ويمكن أن يتقبل الشر، ويمكن أن يتقبل الخير والشر، وهو إلى ما غلب أقرب، ولذلك فقد جاء الثناء والمدح لأصحاب القلوب الخيرة ـ نسأل الله أن يجعلنا منهم ـ».

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف الرجل المعلَّق قلبُه بالمساجد: «فهو يحب المسجد ويألفه لعبادة الله فيه، فإذا خرج منه تعلَّق قلبه به حتى يرجع إليه، وهذا إنما يحصل لمن ملك نفسه، وقادها إلى طاعة الله، فانقادت له؛ فإن الهوى إنما يدعو إلى محبّة مَواضِع الهوى واللعب المباح أو المحظور، ومواضع التجارة واكتساب الأموال، فلا يَقْصُر نفسه على محبة بقاع العبادة إلا من خالف هواه، وقدَّم عليه محبةَ مولاه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

---

(١) فيض القدير (٤- ٨٩) ولو أنّه عبّر بحلاوة العبادة بدلًا عن التعبير بالخدمة لكان حسنًا من جهة أصل اللفظ الشرعي وبركته وسلامته.

(٢) تحفة الأحوذي (٨/٤٨).

﴿ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا يُوَطِّنُ الرجلُ المساجدَ للصلاة والذكر إلا تَبَشْبَشَ اللهُ به مِنْ حِينِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ كما يتبشبش أَهْلُ الغائب بغائبهم إذا قَدِم عَلَيْهِمْ»[1][2].

وقد روي عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: «من جلس في المسجد؛

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه واللفظ له (٦٥٢)، وأحمد في المسند (٢٣٠٧، ٣٢٨، ٣٤٠، ٤٥٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر (٨٥٠١)، ورواه الدارمي في رده على بشر المريسي ص (٢٠٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٥٢) وصحيح الترغيب والترهيب (٣٢٥). وفي الحديث إثبات صفة البَشْبَشَةِ لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي بمعنى الفرح.

قال ابن الأثير: «البَشّ: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة، والإقبال عليه. وقد بششت به أبشّ». فمعنى البشّ: الفرح. ويُضرب إذا تلقّى الصديق صديقه بالبرّ، وقرّبه، وأكرمه. النهاية في غريب الحديث (١١٣٠). وقال أبو يعلى الفراء بعد الكلام على صفة الفرح لله تعالى: «وكذلك القول في البشبشة؛ لأنّ معناه يُقارب معنى الفرح. والعرب تقول: رأيتُ لفلان بشاشة، وهشاشة، وفرَحًا. ويقولون: فلانٌ هشٌّ بشٌّ فَرِحٌ؛ إذا كان منطلقًا؛ فيجوز إطلاق ذلك كما جاز إطلاق الفرح».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لفظ البشبشة جاء أيضًا أنَّه يتبشبش للداخل إلى المسجد كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم، وجاء في الكتاب والسنة ما يُلائم ذلك ويُناسبه شيءٌ كثير، فيُقال لمن نفى ذلك: لم نفيتَه؟ ولم نفيتَ هذا المعنى؛ وهو وصف كمال لا نقص فيه؟ ومن يتصف به أكمل ممَّن لا يتصف به؟ وإنَّما النقص فيه أن يحتاج فيه إلى غيره، والله تعالى لا يحتاج إلى أحد في شيء، بل هو فعَّال لما يُريد». النبوات (١٦٣).

(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبلي (٥/٢٩).

فإنما يُجَالِس ربَّه عز وجل». فهو رجل تعلق قلبه بالمساجد، كلما نودي للصلاة فيها سارع إليها وإليه بشوقٍ ولهَفٍ وشديدِ رغبة؛ لينال القلب ارتياحه الذي لا يتهيأ بمتاع الدنيا وإنْ عَظُم، فسبيله في ذلك سبيل من كان يأمر بلالًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَرِحنا بها يا بلال»[1] صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبارك، وإذا قُضِيَت الصلاة ظلَّ القلب معلَّقًا بالمسجد حتى وإن خرج منه الجسد، حتى يعود إليه مرة أخرى، فتسكن لوعتُه بطيب اللقاء.

وما كان هذا التعلُّق أن يأتِيَ من فراغ، ولا أن يُزْهِر بلا ابتداءِ نَصَبٍ، ولكنه ثمرة التعلق بالله سبحانه وتعالى، محبةً وإنابةً ورغبة ورهبة وخوفًا ورجاءً وإخلاصًا وتوكُّلًا وذلًا وتعبُّدًا، فالتعلق بالله عز وجل وحده هو الغاية العظمى والنجاة الحقة.

ومن تعلَّق بغير الله عز وجل شأنه خَسِر خسرانًا مبينًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وكما قيل:

والمستجيرُ بعمرٍو عند كربته ... كالمُستجير من الرمْضَاء بالنارِ

وإن المتأمل لأحاديث رسول الله ﷺ عن فضل الارتباط بالمسجد، يجد الثواب العظيم في فضل المشي إليها، وأداء الصلوات فيها، وطول المُكث بها،

---

(١) «يا بلالُ! أَقِمِ الصلاةَ، أَرِحْنا بها» أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

وهذا مما يدل على أن المسجد ينبغي أن يَحتَلَّ مساحة معتبرة في الحياة اليومية للمسلم، وأن يُرَتِّب أموره عليه. وهذه بعض الفضائل المتعلقة به:

فمنها الاتّصاف بصفة من يُظِلُّهم الله في ظله، وكذلك تبشبش الله تعالى به. ومنها: زيادة الحسنات ومحو السيئات فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من راح إلى مسجد الجماعة فخطوةٌ تمحو سيئةً، وخطوةٌ تكتب له حسنة، ذاهبًا وراجعًا**»(١).

ومنها: الحياة الطيبة وحسن الخاتمة ففي حديث اختصام الملأ الأعلى: «**قال لي: يا محمد، أتدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قلتُ: نعم، في الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في السَّبَرَات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ومن حافظ عليهن عاش بخير، ومات بخير، وكان من ذنوبه كيومَ ولدَتْه أمه**»(٢).

ومنها إعداد النُّزل له في الجنة: فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نُزُلًا في الجنة، كلما غدا أو راح**»(٣).

---

(١) المنذري في الترغيب والترهيب (١/١٦٦) وحسنه.

(٢) صحيح الترغيب (١٩٤) قال الألباني: صحيح لغيره، وصححه شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية (٧/٢٠٥) والسّبرات: جمع سبرة، وهي شدة البرد.

(٣) مسلم (٦٦٩).

ومنها أنه ضامن على الله عز وجل: عن أبي أُمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة كلُّهم ضامن على الله، إن عاشَ رُزِقَ وكُفِي، وإن مات دخل الجنة: من دخل بيته فسَلَّم فهو ضامن على الله، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله، ومن خرج في سبيل الله فهو ضامن على الله**»(١).

ومنها أن الله عز وجل يباهي به الملائكة: فعن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: صلَّيْنا مع رسول الله ﷺ المغرب، فرَجَع من رجع، وعَقَّبَ مَنْ عقّبَ، فجاء رسول الله ﷺ مُسْرِعًا، قد حفزه النَّفَس، قد حسر عن ركبتيه، قال: «**أبشِروا، هذا ربكم قد فتح بابًا من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة، يقول: انظروا إلى عبادي، قد قَضَوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى**»(٢).

فلنربط قلوبنا بالمساجد، ولنجعلْها بيوت قلوبنا، ولنكُنْ كصحابة رسول الله ﷺ في تعلُّقهم بالمساجد، وشعورهم بالأمان فيها، فقد كانوا إذا فَزِعوا من شيء أتوا إلى المساجد، ولنسابق للصف الأول طلبًا للمنزلة العظيمة المُعَدَّة لأهله، قال ﷺ: «**إن الله وملائكته يُصلّون على الصفّ الأول**»(٣) فالصف الأول على مِثْل صفّ الملائكة، كما قال ﷺ: «**والصف الأول على مثل صفّ**

---

(١) ابن حبان (٤٩٩) الترغيب والترهيب (٧٢/١) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٠٩).

(٢) ابن ماجه (٨٠١) وأحمد (٤٩٤٦) صححه الألباني في صحيح الترغيب (٤٤٥).

(٣) أحمد (٢٢٢٦٣) وصححه الأرنؤوط لغيره وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥١٣).

الملائكة، ولو تعلمون فضيلته لابْتَدَرْتُموه»(١)، فهم مثل صفّ الملائكة في القُرب من الله عز وجل، ونزول الرحمة، ومثله في إتمامه واعتداله.

وإن للْمُعَلَّقَة قلوبُهُم بالمساجد صفات منها:

١ ـ حب صلاة الجماعة.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في الجماعة تضعُف على صلاته في بيته وفي سوقه خَمْسًا وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خطوة إلا رُفِعَت له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما دام في مصلاه: اللّٰهم صلِّ عليه، اللّٰهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة»(٢).

وقال سعيد بن المسيب: "من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة فقد ملأ البَرَّ والبحر عبادة". وقال: "ما فاتتني الصلاة في الجماعة منذ أربعين سنة".

٢ ـ كثرة الخطى إلى المساجد.

عن عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى صلاة مكتوبة، فصلاها مع الإمام، غُفِر له

---

(١) أحمد (٢١٢٦٥) وحسنه الألباني في صحيح النسائي (٨٤٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧).

ذنبه»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّبَاط فذلكم الرباط**»[٢]. وقوله: «**فذلكم الرباط**» أي: المرابطة في سبيل الله؛ فكأنه يحمي ثغرًا من ثغور المسلمين.

سبحان الله، وهذا من عظيم نِعَم الله وفضله علينا، فالجالس في المسجد في انتظار الصلاة، كالقائم على الثغور في المناطق التي يقاتل فيها المسلمون، فيحرسون حدود بيضة الإسلام، ويدفعون عن الأمة عاديات الكفار!

وليس هذا بعجيب؛ لأن الذي يُرابط في سبيل الله يمكث مُرابطًا مدة محدودة، أما المحافظ على الصلاة دائمًا فكالمرابط عليها طوال العام، بل طوال العمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. فيمنع نفسه عن شهواتها خمس مرات في اليوم والليلة، ويذهب ليرابط في سبيل الله تعالى.

٣ـ الصلاة لوقتها.

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى

---

(١) أحمد (١/ ٢٣٨) وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١).

اللهِ؟ قالَ: «الصَّلاةُ على وقتِها» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: «ثمَّ برُّ الوالدينِ» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: «ثمَّ الجهادُ في سبيلِ اللهِ» قالَ: حدَّثَني بهنَّ، ولوِ استزدتُهُ لزادَني[(١)].

٤ ـ الحرص على الصف الأول وتكبيرة الإحرام.

فعن أنس مرفوعًا: «**من صلى لله أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، كُتِبَت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق**»[(٢)]. فالصلاة طهارة للقلب من رجس النفاق ونجاسة الرّيب.

٥ ـ عمارة المساجد والإنفاق عليها.

فعمارة المساجد من علامات الإيمان بالله والخشية، قال الله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨].

وعمارتها تكون بالعمل الصالح فيها من إيمان وصلاة وقرآن ودعاء وذكر واعتكاف، كما أنها تعمر ببنائها وتنظيفها وتطييبها وتهيئتها لراحة المصلين وعونهم على عبادة الله فيها.

وقد بشّر النبي ﷺ ببشارة عظيمة فقال: «**من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بَنَى الله له مثلَهُ في الجنة**»[(٣)(١)]. وإذا بنى الله تعالى لك بيتًا سكنتَه بكرمه

---

(١) مسلم (٨٥).

(٢) الترمذي (٢٤١) وعند أحمد (١٢٥٨٣) بنحوه. وصححه الألباني، انظر الصحيحة (٢٦٥٢).

(٣) البخاري (٤٥٠).

ورحمته.

١٥- التواضع والإزراء بالنفس.

فالإزراء بالنفس، والشعور بالتقصير في حق الله تعالى وشكره من أجلى علامات المتعلق بالله، لعلمه أنه بالله ولله، فهو مستيقن أنه مهما فعل من الأعمال الصالحة فلن يوفي حق شكر نعمة واحدة من نعم الله تعالى؛ فكيف بباقي النعم التي لا تعد ولا تحصى. وفي هذا إذهاب لأي أثر من آثار الإعجاب بالنفس، واعتراف دائم بالتقصير والتفريط. وهذا له أثر مباشر في تحقيق التعلق بالله سبحانه وتعالى، والتضرع بين يديه، وسؤاله سبحانه الإعانة على شكر النعم، وصرفها في طاعته عز وجل؛ كما ذكر ذلك سبحانه عن أنبيائه وأوليائه:

فهذا سليمان عليه الصلاة والسلام لما رأى نعم الله عليه من الملك، وفهم لغة الطير، وحوار النملة مع أُمّةِ النمل سأل ربه سبحانه أن يلهمه شكر نعمته عليه؛ قال الله عز وجل: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]. وقال عن دعاء الولد المؤمن البار بوالديه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

=

(١) وانظر: «رجل قلبه معلّق بالمساجد» مقال في موقع الألوكة لمحمد كامل السيد.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ومن جدير التنبيه: أن كثيرًا من التائبين والسُّلاك والنّسّاك والمتعبّدة يبتدئ بمقتِ نفسه والإزراء بها حتى تُلين له قيادها، وهذا حسنٌ، لكنّه مشروط بضبط الشريعة لذلك الإزراء والمقت، فالشريعة تُصفّي النفس، وتغسل العقل، وتنقّي الفكر، وتُزكّي القلب، وتحقن في النفس الإيجابية والتفاؤل والسعادة والعمل وحسن الظن، لا القنوط والفشل والكآبة والسوداوية، فكثير من الزهّاد والعُبّاد والنُسّاك قد خرجوا عن نهج الشريعة وسبيلها لرسومٍ زيّنتها لهم أنفسهم ظنوها هدًى وهي محضُ باطلٍ.

فالمؤمن كريم على ربه تعالى، والله تعالى يقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] وخلق الله له جنته، وخلق له ما في الأرض جميعًا، وأنزل عليه كتبه الهادية، وأرسل له رسله الناصحين، وأمدّه بملائكته الكرام، وفرح بتوبته، وجعل له شأنًا في أرضه وسمائه وعليائه.

والمقصود: أن مقت النفس والإزراء بها لا بد أن يُخلط مزيجُه بتذكّر إكرام الله لجنس بني آدم، ومحبته لمطيعيهم، ودفاعه عن المؤمنين، ومعيّته للمحسنين، ونصره للمجاهدين، ومحبته للتائبين. فالتوازن مطلب شرعي، فلا عُجب وتيْه، ولا إهلاك بالإزراء، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وبالله التوفيق والعصمة.

❁❁❁❁

البراءة من التعلق بالخلق

لا يجتمع في قلب عبدٍ تمامُ تعلُّقٍ بالله وبغيره، فأحدُ التعلُّقين سيطرد صاحبه لا محالة، ويخلي موقعه له، وهي ليست على جهة المناقضة بل المناقصة، فعلى حسَب تعلّق القلب بالله تعالى تكون براءته وسلامته من التعلق بمخلوقاته، وهذا راجع إلى تمكّن توحيدَي المعرفة والإثبات (الربوبية والأسماء والصفات) والطلب والقصد (توحيد الألوهية) من القلب، فإذا استقرّا في القلب وتمكنا من سويدائه؛ فليس له بغير الله متعلّق. وكلما ازداد معرفة بالله عظُمَ تعلّقه به حتى لا يبقى في فؤاده بغير ربه أدنى تعلق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ومن تعلق بغير ربه فقد حكم على نفسه الحرمان وختمها بالخذلان، بل إنّ أصل مادّة الشرّ في العالم هي من تعلّقِ المخلوق بغير خالقه، وتألُّهِ قلبه لغير إلهه الحق، فما دخل القلب شرك بالله إلا من باب التعلق، فليعتن الفطن اللبيب الناصح لنفسه غاية العناية بحراسة هذا الباب لقلبه، فله عظيم الخَطَرِ، وأيّما خَطر! «ومن أعظم أسباب تأليه البشر ضعف التعلق بالله تعالى، وضعف تحقيق العبودية لله تعالى وحده لا شريك له.

فإذا ضعف تعلُّق العبد بربه، وانحسر تحقيقه لعبودية الله تعالى قوي تعلُّق قلبه بغير الله، وصُبَّ في قلبه من العبودية للبشر بحسَب ذلك؛ فما كان لبشر أن يُستعبَد قلبه لبشر مثله إلا بسبب إخلاله بعبودية الله تعالى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير ذلك: «كلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه؛ فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له؛ فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم مدبِّرًا لأمورهم، متصرفًا بهم؛ فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر؛ فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقى قلبه أسيرًا لها تتَحَكَّم فيه وتتصرف بها تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها»(١).

لقد كان النبي ﷺ يربي أصحابه على تمام التعلق بالله وحده(٢)، ومن ذلك نهيه ﷺ أصحابه أن يسألوا الناس شيئًا؛ فإن من احتاج إلى الناس نقص قدره عندهم وفاته من عبودية الله تعالى بحسب ذاك الاحتياج «والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقرب إليه، وأعزّ له، وأعظم لقدره؛ فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله؛ فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله

---

(١) العبودية، لشيخ الإسلام (٩٤ - ٩٦) باختصار.
(٢) انظر الرد على البكري لابن تيمية (٣٣٧).

ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يُشرَك به شيء»[١].

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما صدق اللهَ في عبوديته مَنْ لأحد من المخلوقين عليه ربَّانية»[٢]، أي تعلّقٌ واحتياج.

ومما سطره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب: «إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده، تحمَّل الله سبحانه حوائجه كلها، وحَمَل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وإن أصبح وأمسى والدنيا همّه حمَّله اللهُ همومَها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم؛ فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكِيرِ ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره. فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته»[٣].

ولذا كان اليأس مما في أيدي الناس أعظم التحرر من رقّ عبوديتهم، فأما إذا طمع فيما عندهم فإن قلبه يتعلق بهم ويفتقر إليهم، ولهذا يقال:

العبدُ حُرٌّ ما قَنِعَ   والحُرُّ عبدٌ ما طَمِعَ

(١) الفتاوى (١/٣٩).
(٢) الفتاوى (١٠/٥٩٨).
(٣) الفوائد (٧٧). والكِيْرُ: كِيرُ الحداد، وجمعه: كِيَرة. ويسمّى عند عامتنا الآن: المنفاخ، لأنه ينفخ الهواء على النار ليهيج اشتعالها بالأُوكسيجين.

ويُروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه».

وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه؛ فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيرًا إليه، ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه فإن قلبه يتعلق به فيصير فقيرًا إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله»(١).

وما أروع كلام ابن الجوزي إذ يقول: «والقناعة بما يكفي، وترك التشوُّف إلى الفضول أصل الأصول، ولما أيأس الإمام أحمد بن حنبل نفسَه من قبول الهدايا والصلات اجتمع همّه وحسُن ذكره، ولما أطمعها (فلان) وغيره سقط ذكرهم.

ثم فيمن يطمع؟ إنما هو سلطان جائر، أو مُزَكٍّ منّان، أو صديق مُدِلٌّ بما يعطي! والعزُّ ألذُّ من كل لذة، والخروج عن ربقة المحنة ولو بسفّ التراب»(٢).

ولما أعرض قوم فرعون عن عبادة الله تعالى؛ اشتغلوا بتأليه فرعون حتى صدَّقوه في دعواه ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وما كان لفرعون أن يدّعي ذلك لولا أن قومه خارجون عن عبادة الله تعالى فاستخفهم فأطاعوه، كما قال عز

(١) العبودية (٨٩).

(٢) صيد الخاطر (٢٦٧).

وجل: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

يقول أحد الدعاة الباحثين(١): «فأما المؤمنون فيصعب خداعهم

(١) وقد أهملت ذكر اسم الكاتب لأن بعض الصدور تضيق عن احتماله لتعلقها بأمور نُسبت إليه هو منها بريء، أو صدر بعضها منه وتاب منها ونقضها، أو وسّع العبارة حتى التبست على قارئ كلامه، أو صدر منه تقريرٌ باطلٌ مخالفٌ للحق، فحقُّه تصحيح ما لديه من خطأٍ أو خطيئة، وتنبيه قارئِ محتواه المُحدَّد بموضعِ الخطأ نصحًا له ولكاتبه، وليس باطّراح كل ما كتب. وفقهُ موازنات نقد الكتب والرجال تُراعى فيه اختلافات الأشخاص والأحوال والمآلات، بما لا يهدم للدين أصلًا، ولا يثلم له فرعًا، ولا يخرم لمسلم حقًّا، وبخاصة لدى طالب علم يفقه ويَعِي ويُميّز، ولا يطيشُ ويطيرُ مع كل مُطَيِّرٍ، فثَمَّ الصِّدِّيق والزنديق وما بينهما، ويُعتبرُ كلّ امرئ بما ظهر من حاله، وبالجملة؛ فالإنصاف عزيز، والله المستعان. والمقصود؛ بيان أن ليس في وسع بعض الأفاضل احتمال مجرد ذكر اسمه! ولربما اطّرح الكتاب جملة لورود اسم مخالفٍ له في هامشه! كما أن بعضهم لا يستوعب مسألة الخلاف السائغ من غيره، ولا يستحضر أعذار أهل الدعوة لدين الله، وما يكتنف أمورهم من مشاق تمنعهم من إتمام ما يُظنُّ بهم من خير، أو البراءة مما ينسب لهم من خلافه، والحكمة ضالّة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها.

وليس يضيره ولا غيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أهملنا ذكر اسمه، ونشرنا ما رأيناه مفيدًا من علمه ودعوته، وعند الله في ذاك الجزاءُ. وقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وددت لو أن علمي نشر للناس ولم ينسب لي منه شيء». وهذا من دقة فقهه وعظيم نصحه وسعة عقله رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقد شرح ابن أبي العزّ الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطحاوية بكلام شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم بدون نسبة كلامهما لهما، لأن الدعاية ضدهما كانت
=

واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا كانت استجابة الجماهير لفرعون كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»(١). ومن أسباب تأليه البشر وبواعثه: الغلو في محبة البشر وتعظيمهم وإطرائهم؛ فهؤلاء النصارى لما غلوا في إطراء عيسى عليه السلام جعلوه إلهًا من دون الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى؛ فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًّا أو باطلًا، أو ضلالًا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا، ولهذا قال الله تعالى:

=
مغرضة خبيثة واسعة. فشكر العلماء صنيعه، رحمةُ الله على الجميع. وانظر: (ولا تفرقوا. معالم وتأصيلات) للمؤلف.

(١) عن مقال بعنوان تقديس البشر، د. عبد العزيز آل عبد اللطيف مجلة البيان (١٥٢ / ١٦).

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]»[١].

ومن حكمة الشارع أنه نهى عن الغلو وحذّر منه أيما تحذير، حتى قال ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**»[٢].

كما قرّر عجز البشر وضعفهم، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

ومن الظواهر المؤسفة في الواقع والإعلام: الغلو في الإطراء، والمبالغة الممجوجة في المديح لا سيما إن كان ذاك الإطراء المكشوف صادرًا عمن ينتسب للعلم!

قال الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثناء حديثه عن ذاك المديح: «إن إطراء الشيوخ للحكام ومسارعتهم المريبة إلى تهنئتهم في كل مناسبة، وتعزيتهم في كل مصيبة بأسلوب يكتبه الأرقّاء والأتباع، ويتنزه عنه الرجال الأحرار، هذه الظاهرة التي تدل على داء بالقلوب، قد غَضَّت من شأن الدين ومنزلته لدى العامة.

وقد تذاكر الناس أن شيخًا كبيرًا من جلة العلماء كما يقولون كان في المرض الذي يُسقِطُ عنه الصلاة لا ينسى أداء مراسم الوثنية السياسية، على حين كان الدكتور طه حسين وموقفه من الدين معروف يتكلم بحذر ويرسل

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٨).

(٢) رواه النسائي (٢/ ٤٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣).

مدائحه بقدر!

هذا في الوقت الذي شُطبت فيه ميزانية الأزهر، وأُرسل المال سيلًا غدقًا إلى وزارة المعارف التي كان يشرف عليها آنذاك طه حسين»(١).

ومما يحسن ذكره ها هنا ما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يثني على رجل ويطريه في المدحة فقال: «**لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل**»(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: «قال ابن بطال: حاصل النهي أن من أفرط في مدح آخر بما ليس فيه لم يأمن على الممدوح العُجب لظنه أنه بتلك المنزلة؛ فربما ضيع العمل والازدياد من الخير اتكالًا على ما وصف به، ولذلك تأوّل العلماء في الحديث الآخر «**احثوا في وجوه المداحين التراب**»(٣) أن المراد من يمدح الناس في وجوههم بالباطل، وقال عمر: «المدح هو الذبح»، قال: وأما من مُدِحَ بما فيه فلا يدخل في النهي، فقد مُدِح ﷺ في الشعر والخطب والمخاطبة ولم يحثُ في وجه مادحه ترابًا»(٤). قلت: وليس هذا بظاهرٍ لحديث أبي موسى الآنف في قطع ظهر الرجل بالمدح، وكذلك في إطلاق المدّاحين

(١) تأملات في الدين والحياة، محمد الغزالي (٣١، ٣٢).

(٢) البخاري (٦٠٦٠).

(٣) رواه أحمد (٢٣٨٢٤). وعند مسلم (٣٠٠٢) بلفظ: «**إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**».

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٧٧).

بالحثو عليهم. فلا يخرج من ذلك إلا للمصلحة الشرعية كالحضّ على الخير، أو الدفاع عن تهمة المسلم، أو تربية الناس ذريةً أو طلابًا، ونحو تلك المصالح المُثلى.

وإذا كان مدح الشخص بما فيه لا يأمن أن يحدث فيه كبرًا أو إعجابًا أو فتورًا عن العمل الصالح، فكيف إذا مُدِح الشخص بما ليس فيه مما يعدّ كذبًا وباطلًا؟! بل وما ظنك بمن يُمدح بنقيض حاله؟! كمن يُمدح بأنه أكمل الناس بِرًا وعدلًا، وهو في الحقيقة من أعظم الناس فجورًا وظلمًا.

وكم أفضت كثرة المديح والإطراء إلى الولوغ في آفات الكبر والغرور والعُجب والتّيه، ومن ذلك أن عبد الله بن زياد بن ظبيان خوّف أهل البصرة أمرًا، فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من نواحي المسجد: أكثر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلّفتم اللهَ شَطَطًا! .تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا ..

قال الماوردي معلقًا على حال هذا المغرور وأشباهه: «فانظر إلى هؤلاء كيف أفضى بهم العُجْب إلى حمقٍ صاروا به نكالًا في الأولين، ومثلًا في الآخرين، ولو تصوّر المعجَب المتكبِّر ما فُطِرَ عليه من جِبِلَّة، وبُلي به من مَهْنة[1] لخفض جناح نفسه، واستبدل لينًا من عُتُوِّه، وسكونًا من نُفُوره.

وقال الأحنف بن قيس: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف

---

(١) من الامتهان والإهانة.

يتكبّر؟!»(١).

وإنّ من أقبح الغلو في محبة الأشخاص وأشنعه: عشقهم واستغراق القلب في ذكرهم ووصلهم؛ حتى آلَ ببعضهم العشقُ إلى الشرك بالله تعالى وأفضى بهم لسوء الخاتمة عياذًا بالله تعالى، كما في قصة عاشق الغلام أَسْلَم(٢) الذي أنهكه العشق وأتلفه، حتى أنشد عند موته:

أسلمُ يا راحةَ العَليلِ — رفقًا على الهائم النحيلِ
وصلُكَ أشهى إلى فؤادي — من رحمة الخالق الجليلِ!

فعياذًا بالله تعالى من مصارع السوء، ومراقد الفتن، ومهاوي الردى، ومن الحَوْر بعد الكَوْر.

وهذا رجل كان يجاهد مع المسلمين فعشق نصرانية فتنصّر من أجلها(٣). وثالث كان مؤذِّنًا فشُغِفَ قلبُه بنصرانية فارتد عن الإسلام وتنصّر ومات على ذلك(٤). ورابعٌ كان متنسّكًا عابدًا فهوى شخصًا فتهتّك، وأظهر الخلاعة والفجور(٥).

---

(١) أدب الدنيا والدين (٢٣٣).
(٢) انظر تفصيل القصة في المنتظم لابن الجوزي (٢٤٧/١٥) (٢٤٩) والبداية لابن كثير (٣١٧/١٢).
(٣) انظر القصة في البداية لابن كثير (٦٤/١١).
(٤) انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي (٤٠٩).
(٥) انظر تفصيل قصته في المنتظم لابن الجوزي (٧١/١٠).

ولقد «كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينشد:

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها ... من الحرامِ ويبقى الخزيُ والعارُ
تبقى عواقبُ سُوءٍ في مغبَّتِهَا ... لا خيرَ في لذةٍ مِن بعدها النارُ(١)

ومما يجدر ذكره أن هؤلاء المُعظَّمين من البشر يُضفون على أنفسهم أنواعًا من الهالات والبهرجة والأبَّهة والرسوم التي تسلب عقول السذج والجهّال والرعاع والطغام، وضعيفي الإدراك من أشباه الأنعام، وتشغل قلوبهم بالمهابة والتقديس والإجلال والتعظيم لأولئك المتألّهين.

وها هي قبور الأموات إذا بُني عليها وأُسرجت وزُيّنت أورثتْ تأليهًا لأولئك المقبورين، فكيف ببهرجة الأحياء من ذوي النفوذ والتأثير ورسومهم؟!

وكما قال العلاَّمة الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أثر بناء القبور وتزيينها: «إن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبّة فدخلها، ونظر على القبور الستور الرائعة والسرج المتلألئة، وقد سطعتْ حوله مجامر الطيب؛ فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيمًا لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه العقائد الشيطانية»(٢).

---

(١) روضة المحبين لابن القيم (٣٧٤).
(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور (١٧).

ومن أسباب تأليه البشر: إلغاء دور العقل وطمسه عن التأمل والتفكّر، وتحييده عن التدبر والتبصّر، فيمشي بين الناس بلا عقلٍ راجح، ولا لُبٍّ صالح. ولمَّا غلب على غلاة المتصوفة وأيضًا غلاة الشيعة والنصارى تحجيم وتقزيم وإلغاء العقل وإهماله؛ استحوذ عليهم تقديس البشر وتأليههم، فاستعاضوا عن الهدى ضلالًا، وعن الاستقامة انحرافًا وعن الرضوان سخطًا ومقتًا، والمعصوم من عصمه الله تعالى بنُهْيَةٍ بها يستبين مواطنَ خطوِ أعمالِه، ومفاوز بَصَرِ معتقداته، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إن تحرير العقل من رق تقديس الأشخاص إنما يكون بالتفكر وإمعان النظر والتأمل، والحذر من وصاية الآخرين وهيمنتهم، وعدم قبول الدعاوى إلا ببينة وبرهان، فالمؤمن لا تطمئن نفسه إلا بسلطان الدليل عن ربِّه، لا سلطان التقليد لِمِثْلِه.

ولذا فإن المجتمعات التي يعمها الجهل وتقليد الآخرين والتبعية العمياء تكون ذليلة منقادة لكل ناعق، مصفّقة لكل أحمق، تابعة لمن عَلَا صوتُه، لا لمن علا برهانُه. وقد وصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الصنف بقوله: «همجٌ رعاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق»(١).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٢) في سياق كلام عُلْوِيٍّ عَلَوِيٍّ شريف حَرِيٌّ بالتدبّر والدرس. وقال الحافظ ابن عبد البر عن هذا الأثر: وهو حديث مشهور عند أهل العلم يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم. ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩ - =

ولابن هبيرة كلام جميل في شأن التدبر والتأمل وخطر وثنية التقليد بلا حجّة ولا مسوّغ من الشرع؛ حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورّعًا. ومنها أن يقيم أوثانًا في المعنى تُعبد من دون الله، مثل أن يَبين الحقُّ، فيقول: ليس هذا مذهبنا، تقليدًا للمعظَّم عنده، قد قدَّمه على الحق»(١).

ومن أسباب تأليه البشر وبواعثه: الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للمتألهين؛ وإنما استكبر من استكبر من الفراعنة والجبابرة لأنهم وجدوا من الرّعاع من يسارع إلى إجابة أهوائهم، وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر؛ فعتوا في الأرض وعلوا علوًّا كبيرًا.

«وفساد الأديان الأولى جاء من طراوة الأتباع في أيدي رؤسائهم، وتحولهم إلى أذناب مسيَّرة لا فكر لها ولا رأي.

إن الفراعنة والأباطرة تألّهوا؛ لأنهم وجدوا جماهير تخدمهم بلا وعي. والأحبار والرهبان والبابوات تألهوا كذلك؛ لأنهم وجدوا رعايا تمنحهم الثقة المطلقة وتلغي وجودها الأدبي أمام ما يصدرون من أحكام، والشعوب التافهة في

=
٨٠) والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٢ - ١٨٣) وذكره الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٨٧٥ - ٨٧٦).

(١) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٣/٢٧٣).

كل زمان ومكان هي التي تصنع المستبدين وتغريهم بالأثرة والجبروت»[١].

ومن ثم فينبغي الاعتناء بضوابط الطاعة وشروطها؛ فإن الطاعة العمياء والاستجابة المطلقة للبشر لا تقل ضررًا وفسادًا عما يضادها من الطيش والفوضى. وإنّ من الشرك -فاعلمن- شركُ الطاعة.

ومن تلك الضوابط: أنه لا طاعة مطلقة إلا للرسل عليهم السلام، فليس من المخلوقين مَن أمرُه حتمٌ بإطلاق إلا الرسل عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد: «من نصّب إمامًا فأوجب طاعته مطلقًا اعتقادًا أو حالًا فقد ضل في ذلك، كأئمة الضلال الرافضة الإمامية؛ حيث جعلوا في كل وقت إمامًا معصومًا تجب طاعته، فإنه لا معصوم بعد الرسول، ولا تجب طاعة أحد بعده في كل شيء»[٢].

ومن هذه القيود: أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما في قصة سرية عبد الله بن حذافة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عندما أمر أصحابه بأن يوقدوا نارًا ويدخلوها؛ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: **«لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا؛ إنما الطاعة في المعروف»**[٣].

ومما قاله ابن القيم في شأن تلك الحادثة: «وإن كانوا مطيعين لولي الأمر

---

(١) من معالم الحق، محمد الغزالي (٢٣٨، ٢٣٩) باختصار.

(٢) الفتاوى (١٩/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري (٧١٤٥).

فلم تدفعهم طاعتُهم لولي الأمر معصيتَهم لله ورسوله؛ لأنهم قد علموا أن من قتل نفسه فهو مستحق للوعيد؛ فإذا كان هذا حكم من عذب نفسه طاعة لولي الأمر، فكيف من عذّب مسلمًا لا يجوز تعذيبه طاعة لولي الأمر.

وأيضًا فإذا كان الصحابة المذكورون لو دخلوها لما خرجوا منها مع قصدهم طاعة الله ورسوله بذلك الدخول، فكيف بمن حمله على ما لا يجوز من الطاعة الرغبةُ والرهبة الدنيوية؟!»(١).

ومن ضوابط الطاعة أنه ليس لأحد أن يلزم بمسائل الاجتهاد إن لم يكن معه دليل من كتاب أو سنة، وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في مناظرته خصومه بشأن العقيدة الواسطية، كما قررها أثناء محنته في مصر سنة ٧٠٦ هـ كما في مقدمة كتابه التسعينية. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما إلزام السلطان في مسائل النزاع بالتزام قولٍ بلا حجة من الكتاب والسنة، فهذا لا يجوز باتفاق المسلمين، ولا يفيد حكم حاكم بصحة قول دون قول في مثل ذلك... ومما يجب أن يُعلم أن الذي يريد أن ينكر على الناس ليس له أن ينكر إلا بحجة وبيان؛ إذ ليس لأحد أن يلزم أحدًا بشيء، ولا يحظر على أحد شيئًا بلا حجة خاصة إلا رسول الله ﷺ المبلِّغ عن الله»(٢).

وبالجملة: فمن حقق التعلق بربه، فليهنِهِ الفلاح، ومن خَلَّط خُلِّط عليه! ومن أدبر رُفعت عنه العافية، ووكله الله إلى نفسه العاجزة! والله المستعان.

❁❁❁❁

(١) زاد المعاد (٣/٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٢٤٠، ٢٤٥).

التعلق بالله في زمن الابتلاء

المتعلّقُ بالله تبارك وتعالى هو أثبت الناس عند الابتلاء مهما اشتدت وطأته، وأصفاهم عند التمحيص مهما سخنت نارُه، وأخلصهم عند الامتحان مهما بلغت لأواؤه، ذلك أن سنة الله تعالى قد اقتضت معونته لمن وحّد تعلّقه به، فهو مُجيب المضطرين، ومُعين المُبتهلين، وسامعُ الداعين، وشاكرُ العاملين الصادقين.

والبلاءُ مَنْسَأةٌ يتّكئُ عليها اليقين، لأنّ المؤمن موعود بابتلاءٍ يُعانُ عليه إن صدق مع ربه تعالى، فالابتلاء قَبَسُ الهُدى، ومِعرَاج الفلاح، ومَدْرَجَةُ الجنّة.

والابتلاء للمؤمن تزكية؛ فيُصفّيه من كَدَر الغفلات، وينقّيه من شائبات الدنايا، ويُطهّره من دَنَسِ سيّئاتِ الأخلاق، كالنار تستخلص الذهب من شوب المعادن الرديئة، فيزيد الابتلاء في نقاء قلبه وصفائه وصلابته واشتداده وثباته وطهارته وسلامته، فلا يزال المتعلق بالله مع الابتلاء المتتابع مدفوعًا إلى تعلق آخر بالله تعالى، وذاك التعلق يجره لتعلق آخر، فهو متعلق بالله على الدوام مع تتابع البلاءات، لائذًا بربه الأعلى، منطرحًا بين يديه، كسيرًا في جَنَبات تألُّهِه، لاهجًا بدعائه لإصلاح دينه، وإعانته على مراضي ربه، وحفظه من غوائل الشر وأهله، ولا يزال ثوابه يعمل عمله في تكفير سيئاته، وزيادة حسناته، ورفع درجاته حتى يكون أهلًا لولاية الله التامة، فالاصطفاء بعد الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤].

وأهل هذه المراتب وإن كانوا من المؤمنين المتقين، المستحقين لوَلاية الله تعالى إلا أنهم ليسوا بمعصومين، فقد يصدر من أحدهم بعض الصغائر أو الكبائر، لكنهم ملازمون للتوبة مبادرون لها، وعلى خطيئة لا يُصِرُّون، كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

والمؤمن المتعلق بربه قد بنى بنيانه على أساس صلب راسخ، وعلى معتقد صحيح، وتصوّر للدين سليم، «والأساس العَقدي يقتضي من الإنسان الصبر والثبات والثقة بالله وحده، وكذلك فإن هذه الأسس العقدية تقتضي من الإنسان الصمود والصبر والثبات وعدم التزحزح، فالذي يؤمن بالله وحده ويعلم أنه لا نافع ولا ضار إلا الله، وأن الله كتب ما هو كائن في قدره النافذ، وأنها قد رفعت الأقلام وجفت الصحف، وأن الأمة كلها لو اجتمعت على أن تنفعه بشيء لم تنفعه إلا بشيء قد كتبه الله له، وأنها لو اجتمعت على أن تضره بشيء لم تضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه؛ لا يمكن أن يخضع ويذل لغير الله، ولا يمكن أن يؤثر رضا المخلوق على رضا الله، ولا يمكن أن يخاف إلا من الله سبحانه وتعالى وحده، ذلك لأن إيمانه بالله سبحانه وتعالى مقتضٍ لمعرفته به، بمعرفته وأنه ديّان السماوات والأرض، الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، بيده مقاليد كل شيء، هو الحق الملك المبين لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويعلم أنه سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، وأنه المدبر للكون كله، وأنه لا يغفل عنه لحظة واحدة، ومن هنا فإن قناعته

بهذا مقتضية منه تمام التعلق بالله والاتصال به[(١)] والتوكل عليه ورجائه وخوفه، وعدم رجاء من سواه أو خوفه أو الاعتماد عليه في أي شيء؛ لعلمه أن كل من سوى الله لا يملك لنفسه فضلًا عن الغير حياة ولا موتًا ولا نشورًا ولا نفعًا ولا ضررًا، ومن هنا لا يحق أن يُتوكل عليه، ولا أن يُرجى نفعه، ولا أن يخاف ضرره.

وإيمان الإنسان الراسخ بأن الأنفس كلها بيد الله، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، مقتضٍ منه كذلك أن لا يثق فيها سوى الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي لا يبدو له البَدَاءُ[(٢)]، فعلمه سابق لكل خلقه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣١] والمخلوق يبدو له البداءُ في كل لحظة، فيتغير رأيه ويعدل عن الآراء التي كان يراها»[(٣)].

وفي جواب للشيخ محمد المختار الشنقيطي حفظه الله عن حال المؤمن مع ما يجري للأمة من ابتلاءات شديدة قال: «الله المستعان! وإلى الله المشتكى، ماذا يقول الإنسان - حقيقةً - في جراحٍ لا تزداد إلا نزيفًا؟! لكن نسأل الله العظيم أن يجبر كسرهم.

الحقيقة: عَظُمَت الفتن والمحن، وخاصة في هذا الزمان، وتكالَب أعداء

---

(١) أي بالعبادة إيمانًا وتعلّقًا وتألّهًا.

(٢) أي: يبدو له أمر جديد على خلاف أمره القديم، فالله تعالى منزه عن ذلك لكمال علمه.

(٣) دروس الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي (٤١ / ٦).

الله ورسوله على أولياء الله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] تكالب الأعداء من كل حدبٍ وصوب على أولياء الله، يقتِّلونهم، ويشرِّدونهم، وييتِّمون أطفالهم، ويرمِّلون نساءهم، وكان من البلاء ما لا يعلمه إلا الله جل جلاله. فالذي أوصي به إخواني في خضم هذه الفتن والمحن ما يلي:

أولًا: التعلق بالله جل جلاله واليقين بِهِ سبحانه: فما يقف المؤمن أمام الفتن والمحن بشيء مثل وقوفه باليقين بالله جل جلاله، وهذا اليقين يغرس في قلبه إيمانًا كاملًا بأنّ الكلمة كلمة الله، وأن الدين دين الله، وأن الرسالة رسالة الله، وأنها ستَبْلُغ ما أراد الله أن تَبْلُغ وإن رَغِمَت الأنوف، وذلّت لله جل جلاله.

فأول ما أوصي به: ألا تكون هذه الفتن سببًا لتحبيط الهمة، وضعف النفوس؛ ولكن تكون سببًا لقوة الإيمان بالله، وقوة التعلق بالله، والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى. فينبغي أن يكون عندك يقين بأن أعداء الإسلام مهما فعلوا فإن الله وراءهم، ولهم الرصد، وهو ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

عندما دخل التتار على دولة الإسلام وخلافة المسلمين وضعوا تراث الأمة في نهر دجلة، حتى ساح بلون المِدَاد، تراثُ أمّة قرون عديدة وُضِع في النهر؛ لكي تسير الخيول عليه لتعبر نهر دجلة، حتى أصبح ماء دجلة متلوِّنًا بلون المداد، فهل انتهى الإسلام؟! أبدًا، بل عاد يُمَكَّن أقوى مما كان عليه، فالإسلام دينٌ يَغْلِب ولا يُغْلَب، ويَنْفُذُ ولا يُرَدُّ، لا يستطيع أحدٌ أن يقف في

وجهه.

جاءت سَخِينَةُ كي تغالبَ ربَّها وليُغلَبنَّ مُغالِبُ الغَلَّابِ(١)

مَن هذا الذي يستطيع أن يقف أمام مَلِكِ الملوك؟! ومن هذا الذي يستطيع أن يطفئ نور الله جل جلاله؟! إن هذه الفتن لَمَّا نسمعها تؤلم القلوب؛ ولكن الذي نخشاه أن شباب الصحوة أو الشباب الأخيار قد تخور قواهم أمام هذا السيل الجارف من الكيد للإسلام والأذية لعباد الله؛ ولكن صبرٌ جميلٌ، فإن الله بالرَصَدِ، والله يُمْهِل ولا يُهْمِل، والقوة لله، والأرض أرضُ الله، والكون كونُ الله، والخلق خلقُ الله، والأمر أمرُ الله، ولَيَنْفُذَنَّ أمرُ الله جل جلاله.

فعندما كان النبي ﷺ في المدينة كان من عجيب ما يقع غالبًا أنه إذا اشتدت الفتن والمحن يجعل الله فَرَجَها من حيث لا يدور بالحسبان، فكل ما اشتدت الفتن على المؤمنين خاصةً الفتن التي يراد بها الدين يأتي الفرج منها غالبًا من حيث لا يحتسب المؤمن.

فانظر في غزوة بدر، حيث التقى المسلمون بالكفار، فكانت الغلبة

(١) البيت لكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يهجو به قريشًا لما هجوا رسول الله ﷺ. وسَخِينة: لقب لقريش تُعيّرُ به لمحبتهم لها وولعهم بأكلها، وهي من الدقيق والسمن. وقد قال ﷺ لكعب - لما قال ذلك البيت - شاكرًا له: «**أمَا إنّ الله لم ينسَ لك ذلك**». أخرجه الحاكم ٣/ ٥٥٦ (٦٠٦٥) ووافقه الذهبي. وقوّى سنده الألباني في الصحيحة (٤/٦١٨).

للمسلمين؛ لكن القتال قتال ماذا؟! قتالٌ حِسِّي. لكن يوم الأحزاب قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب:١٠] الله أكبر! نبي الله والصحابة الذين هم صفوة الأمة يقول الله عنهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾! وماذا بعدها؟! ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ ما معنى ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠]؟! معناه: أنه بلغ بالصحابي مرتبةً مِن كيد الشيطان، سبحان الله العظيم! قد يدخل الشيطان على الإنسان بشيء من الهم والغم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى! يقول الله عن هذا الأمر العظيم: ﴿هُنَالِكَ﴾ ما قال: هناك؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام العظيم من الابتلاء والامتحان، ﴿ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليس ابتلاءً واحدًا، بل ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ انظر كيف يكون الزلزال إذا ضرب أرضًا! فكيف بزلازل القلوب؟! فكذلك تُزَلْزَل مثلما زُلْزِلَ الصحابة، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ كما قال الله عن الأنبياء وصفوة الأنبياء في ذلك الأزمنة، قال: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب:١١] إذا كان الله زلزل الصحابة زلزالًا شديدًا؛ فكيف بنا نحن الفقراء؟! فالكُفْرُ مِثْلَما مَرَّ، الحق هو الحق، والباطل هو الباطل، وإن تغير الستار، وتبدل الشعار؛ فهو ملّة الكفار، شئنا أم أبينا؛ وإنما هي أيامٌ تَمُرُّ(١)؛ ولكن الحقيقة واحدة، حقٌّ وباطل.

فإياكم ثم إياكم أن تكون هذه المآسي المؤلمة ـ ولا شك أنها جارحة

(١) وكلّ مُرٍّ سَيَمُرُّ.

للقلوب ومؤلمة للقلوب ـ لكن لا ينبغي أن تكون سببًا للتخذيل، بل ينبغي أن تكون سببًا لقوّة الشَّكِيمَة(١): ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] إنه اليقين، فما تقف أمام الشدائد والمحن والفتن بشيء أقوى من اليقين بالله جل جلاله، وأن يكون عندك قوة ثقة بالله سبحانه وتعالى في أن الكلمة ستَنْفُذ، وأن الأمر سيمضي، إن عاجلًا أو آجلًا.

الأمر الثاني: ينبغي أن نأخذ بالأسباب: وهي: إلهية، وكونية، أي: شرعية، وكونية.

فالشرعية هي: ما أمرنا الله عز وجل بها، ومن أعظمها: الدعاء: ـ أن نكثر من الدعاء لإخواننا، فأقل ما فيه أنك في السحر إذا أوترت ودعوت لإخوانك تترجم عما في قلبك من أنك بذلت شيئًا لإخوانك، فتدعو لهم، وتذكَّر ـ أخي ـ أرملة من المسلمين فقدت زوجها من أجل لا إله إلا الله! تصوَّر أنها لو كانت قريبتك أو كانت أمك أو أختك أو ابنتك فكيف يكون حالك؟! هل يهنأ لك العيش؟! هل يهنأ لك البال؟! هل ترتاح؟! فلذلك يجب أن تدعو لهم وأن تستشعر أن إخوانك يفتقرون منك الدعوة الصالحة، والدعاء سلاح المؤمن، فيجب أن نكثر من الدعاء لإخواننا، وأن نجعل هذا الدعاء أشجانًا وأحزانًا مع أشجان إخواننا وأحزانهم.

---

(١) الشكيمة: هي الأَنَفَة والعزّة والقوّة والإباء. وأصلُها من الحديدة المعترضة في فم الفرس.

والكونية هي: الأخذ بالأسباب التي نؤمر بها في الدين: بأن نُعِدَّ لأعدائنا ما أمر الله بإعداده، فمن استطاع أن يعين بنفسه فليُعِن بنفسه، ومن استطاع أن يعين بماله فليُعِن بماله، ومن استطاع أن يعين بالكلمة فليَقُل.

فينبغي أن نكون مع إخواننا، فنعيش أشجانهم وأحزانهم، ولذلك لما بلغ خبر مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي حميد الساعدي قال: «اللّهم لك عليَّ ألاَّ أضحك أبدًا»(١) وذلك من شدة ما سمع من مصاب أخيه في الله عثمان الخليفة الراشد، فكيف بأعراض تُنْتَهك! ودماء تُسْفَك! وغيرِ ذلك مِن نساءٍ للمسلمين يُرَمَّلْن! ويُيَتَّم أطفالهن؟! وإلى الله المشتكى.

فالذي نحب أن نقوله: أنه ينبغي أن نوطِّن أنفسنا، وأن نعد العدة لأعداء الله عز وجل ـ وذلك لِمَا ذكرنا ـ على قدر استطاعة الإنسان ووسعه، فيبذل كل ما يستطيع لإعانة إخوانه والوقوف معهم، ويقف الوقفة الصادقة.

الأمر الأخير: الإخلاص: ـ إذا أردنا أن نقف مع إخواننا يجب أن نقف بإخلاص، ولَمَّا يتحدث الإنسان في هذه القضايا يجب أن يتحدث بإخلاص، فلا يتحدث من أجل غَلَبَةٍ شخصية، أو حَنَقٍ شخصي أبدًا(٢)، بل يجب أن يتحدث من واقع إسلامي وبشعور إسلامي نابع من القلب يريد وجه الله،

---

(١) الحزن على ذلك مشروع، ولكن التزام ترك الضحك ليس بمستحب، وقد مات رسول الله ﷺ فلم يلزم كبار الصحابة وفقهاؤهم أنفسهم بتركه.

(٢) وهذا ملحظ مهم، فللشيطان مداخل كثيرة من أبواب الأغراض أو الثارات أو غيرها.

حتى تكون الكلمات هادفةً ومؤثرةً وبالغةً إلى القلوب»[١].

وتأمل ابتلاء أهل الشام بالتتر وكيف نصرهم الله حين تعلقوا به وكفروا بما سواه، وقد وصفها إمام وقف على أحداثها، وصفها وشخّص فيها أحوال الناس، وصور مشاعرهم ومواقفهم بدقّةٍ وعلمٍ وخبرة، ذاكم هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ حيث قال: «فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده ودأب الأمم وعاداتهم، لاسيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرُها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررُها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيها عمود الكتاب أن يُجتثّ ويُخترم، وحبلُ الإيمان أن ينقطع وينصرم، ودارُ المؤمنين أن يحلّ بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أنْ ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورًا، وأنْ لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدًا.

ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السكران، وتركت اللبيب لكثرة الوساوس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإيقان من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق أو ضعف إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة،

(١) مجموع دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٧ / ٨).

وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامه مختصرة من القيامة الكبرى... وفرّ الرجل فيها من أخيه، وأمه وأبيه، إذْ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه، وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عُرسِه... وبُليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنها الضمائر، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المآل»[(١)].

ومن حكم الابتلاء: تمحيص الصفوف، وتكفير الذنوب، وهذا أمرٌ بين، فكم هم الدخلاء على الصف الإسلامي، الذين لا يعرفهم إلا الندرة من الناس، فإذا جاءت مثل هذه المحن والابتلاءات ميّزت الطيب من الخبيث. وهذا دين الله الذي تكفّل بنصره، وأمرنا بأن نسعى لذلك، ولم يكلفنا أن نحصد ثمرة النصر، بل هذه لم تُطلب من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣] فكيف يدبُّ اليأس إلى قلب مؤمن بعدها؟!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا يشكل على بعض الناس، فيقول:

(١) الفتاوى (٢٨/ ٤٢٨ – ٤٢٩). وانظر: (وزلزلوا زلزالًا شديدًا. بين الأحزاب وشقحب وملاحدة الزمان)، للمؤلف.

الرسل قد قُتل بعضهم، فكيف يكونون منصورين؟

فيقال: القتل إذا كان على وجهٍ فيه عزّة الدين وأهله كان هذا من كمال النصر، فإن الموت لا بد منه، فإذا مات ميتةً يكون بها سعيدًا في الآخرة، فهذا غاية النصر، كما كان حال نبينا ﷺ، فإنه استشهد طائفة من أصحابه فصاروا إلى أعظم كرامة، ومن بقي كان عزيزًا منصورًا، وكذلك كان الصحابة يقولون للكفار: أخبرنا نبينا أنّ من قتل منا دخل الجنة، ومن عاش منّا ملك رقابكم. فالمقتول إذا قتل على هذا الوجه كان ذلك من تمام نصره، ونَصْرِ أصحابه.

ومن هذا الباب حديث الغلام . الذي رواه مسلمٌ(١) . لما اتّبع دين الراهب، وترك دين الساحر، وأرادوا قتله مرة بعد مرة، فلم يستطيعوا حتى أعلمهم بأنه يُقتل إذا قال الملك: باسم الله رب الغلام، ثم يرميه، ولما قتل آمن الناس كلهم، فكان هذا نصرًا لدينه»(٢).

وفي ظل هذه الفتن، وتتابع هذه المصائب، يجب ألا تشغلنا هذه الفتن عن عباداتنا الخاصة بيننا وبين ربنا صلاةً وتلاوة وذكرًا ودعاء وتفكُّرًا وصدقة، وكذا ما تحتّم على كلِّ مؤمنٍ صِلةً وبرًّا وغيرها، فالضرورة تتأكد بوجوب العناية بإصلاح القلب في كل حال، وتفقّدِ سلامته كل حين، وبذل أسباب عافيته على الدوام، وإطعامِهِ أغذيةَ الروحِ التي لا غناء له عنها، وهي الصلة

---

(١) في صحيحه (٣٠٠٥).

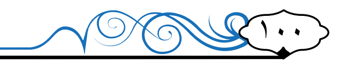
(٢) نقله عنه تلميذه ابن عبدالهادي في اختيارت ابن تيمية (٧٠-٧١).

بالله العلي العظيم، وتشتدُّ الفاقةُ لذلك عند ادلهامّ الفتن والمُلِمّات، وإن كانت ضرورة لازمة كل وقت، وفي حديث معقل بن يسار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العبادة في الهَرْجِ كهجرة إلي»(١). فالنفوس عند الاضطراب الشديد ربما ذهلت عن معادها بُرهَةً، وغفلت عن ربها هُنيهةً، ولرُبّما أعرض بعضهم عن مصالحه لمَصَارِعِه، فهو يُفتَنُ في العام عَدِيدَ مرّاتٍ ولا يعقلُ سبيل عافيته، ولا يأخذُ بحبل نجاته، حتى تُعطِبَ قلبَهُ الفتنُ، حينها لا يدَّكُرُ إلا بعد الفوات، ولات حين مندم!

لكن الموفّقون لا يضيعهم ربهم، ولا يخذلهم، بل يلطف بهم فيهديهم لحسن عبادته في زمن غفلة الناس، وللتعلق الحقِّ به حين سقوط المخذولين في الالتباس، وهذا من خصائص أهل الإخلاص والشكر والتعلق.

فلا بد من التعلق بالله عز وجل دائمًا، واللجأ إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء، وملازمة الضراعة والافتقار والاستكانة على عتبات أبواب إجابته، فلا خاب من أحسن به ظنه، ولا ندم من وَحَّدَ إليه قصدَهُ، وأخلصَ به تعلُّقَهُ، فإن الله تعالى نعى على قومٍ أصيبوا بالضراء، فلم يكن ذلك سببًا في تضرعهم، إذ لم يكونوا من المخلصين، فقبضوا الخذلان، وتزيين الشيطان، وقسوة القلب، وخيبة المنقلب! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ

(١) مسلم (٢٩٤٨).

 [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

والمؤمن أولى الناس بذلك التعلّق الخالص، فمهما كانت المصيبة فهو على غنم، فهو بين أجرَي الشكرِ والصبرِ، وعامِلُ اللهَ لا يخيبُ، قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له**»(١). وإذا نزلت مصيبة - خلا مصيبة الدِّين - ونزل معها صبر ورضا وحمد فهي نعمة، فإن صاحبها جزع وتسخّط فهي نقمة وعذاب. فخذها أمَارَةً صادقة لفحص مصابك يا عبد الله.

بل حتى مع الصبر على الضراء ترى المؤمن يحمد الله أن جعل مصيبته في دنياه لا في دينه، بل ترى بعضهم يشهد في ذلك المقام المنّةَ عليه للهِ اللطيف الكريم الرحيم، فيعلم أنه وإن أعسر شهرًا فقد أيسر دهرًا، وإن مارس الشدة أيامًا، فقد لابس النعمة أعوامًا، على ثقة من أن ساعة الضراء تزول، كما أن مدة السراء قد تحول، وكما لم تثبت نوبة المنحة، فلن تلبث نوبة المحنة، فما أعظم طمأنينة قلب من كان هذه حاله، وهنيئًا له الفوز بالدرجات العُلا يوم القيامة(٢).

ويعقوب عليه السلام طراز فريد من أولئك، ونسيجٌ جميلٌ مما هُنالِك،

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٩٥) (٢٩٩٩).

(٢) وانظر كتاب الصبر، للمؤلف.

وقد جمع الله له بين الصبر الجميل وبين التعلق بالله القدير، ففرّ إلى مَن بيده مفاتيح الفرج سبحانه، لعلمه بأن من آوى إليه كفاه، ومن استهداه هداه، ومن فزع إليه جلّله سكينة النفس، وطمأنينة القلب، وراحة البال، وحمْدَ العاقبة، وتدبر حاله وحال ابنه يوسف عليهما السلام، وكيف وصف الله حالهما مع تصاريف البلاء، وساق جميل خبرهما مع اشتداد اللأواء، ولا جَرَمَ فسورة يوسف هي سورة الفرج بعد الشدة لعباد الله المحسنين.

فالفزع إلى الله تعالى عند نزول المصائب يربط على القلب، ويقرِّب من الرب، ويخفف من وطأة المصيبة على النفس، وهو دأب الصالحين في كل زمان. ونبينا ﷺ كان «**إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة**»(١) وقد أحسَنَ من قال:

إذا أرهقتــــك هـمـــومُ الحيـــاة ... ومسّــكَ منهــا عظــيمُ الضَّــرَرْ
وذُقــتَ الأمــرّين حتــى بكيــتَ ... وضــجّ فــؤادك حتــى انفجــرْ
وسُــدَّتْ بوجهــكَ كــلُّ الـدروبِ ... وأوشــكتَ تســقط بــين الحفــرْ
فـــيمّم إلى الله في لهفـــــةٍ ... وبـــثّ الشّـــكاةَ لـــربِّ البشـــرْ

هذا؛ ولا ينافي الصبر والفرار إلى الله بذل الأسباب بل يقتضيها، فهذا يعقوب عليه السلام، صاحب الصبر الجميل، قال وهو الصادق فيما يقول: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، ومع ذلك لم يغفل ناموس الأسباب، ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ

---

(١) ابن كثير (١/٨٨).

﴿لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فالله تعالى قد بنى الكون على نظامٍ دقيق مُحكَمٍ وِفْقَ أسبابٍ رتَّبها لمسبّباتها، فلله تعالى سنن شرعية دينية فهذه متعلّقها الأمر، وله سنن كونية قدرية فمتعلّقها الخلق، وبينهما تناسب وتكامل. فسننه الكونية لا تتخلّف ولا تتبدل ولا تتحول إلا حينما يشاء سبحانه لحكمة كآيات الأنبياء وكرامات من أراد من الأولياء واستدراج من شاء من الأشقياء.

وتدبر حال يعقوب عليه السلام وهو يوجّه بنيه، وكأنه يهتف بهم بحنان ويقين وإيمان: يا بَنِيَّ، لا تيأسوا من روح الله، فكلّ عسير إذا يسّره الله يهون، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، لا يقعدنكم اليأس، تحركوا وامضوا، فابحثوا عن أخبار من تلومونني في ذكره، وعن أخيه، وفي هذا بيان لقوة نفسه عليه السلام وثبات جنانه، ولك أن تقدر ما يقوله الناس له، وعظيم إنكارهم عليه، وما يتحدثون به في مجتمعه، وخذ مقياسًا لذلك كلمة بنيه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ فإذا كان هذا قول الأبناء المقربين فكيف بالغرباء الأبعدين، بل كيف بمن لم يعرف له مقام نبوة؟

إنك ترى كثيرًا من الناس ربما قال بحقٍّ في مسألة من المسائل التي بدت له أدلتها، وظهر له برهانها، فيلبث قليلًا فيعظم إنكار بعض الناس عليه، فيخنس! أما الأنبياء، أما مَن عرف قدر الحق من أصحاب النفوس القوية والقلوب الأبيّة فلا، بل يثبتهم الله تعالى بالعلم واليقين فيصبرون، وعندها

يجعل الله منهم أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

إن يعقوب عليه السلام لقي من الإنكار ما لقي حتى من الأبناء، وربما رأى من لا يُبصّر بنور الوحي أنّ رأيهم هو الرأي، إلاّ أن يقين يعقوب وصبره عكسا القضية، فإذا بالمُنْكِرِ المخالفِ منذ قليل يتوجه إلى البحث عما أنكر، لما رأى الصبر واليقين ماثلين أمامه. ويعقوب عليه السلام من أئمة المتقين الموقنين المتعلقين بالله العلي العظيم، فلقد فرّ من كل أحدٍ إلى من بيده مفاتيح الفرج سبحانه وبحمده.

إننا بحاجة في واقعنا المعاصر إلى أهل علم راسخين ينظرون بنور الله في الأمور، ثم يبصرون بنور الله أهل العمى، ويثبتون فلا تصرفهم عن ذلك شناعة شنعت، عندها يجعل الله منهم أئمةً وقادة لسفينة الحياة، وعندها يرسى الناس عند شاطئ السلامة وبر النجاة، بفضل اتّباعهم الذين يعلمون من الله ما لا يعلمون، مِن ورثة الأنبياء أهل العلم والإيمان[١].

هذا «ويتحتم على المؤمن مراجعة إيمانه، ومحاسبة نفسه بين وقت وآخر، ولا سيما في أوقات الفتن والمحن والابتلاءات، وأحوال علو الكافرين وطغيانهم، وظهور المنافقين وافترائهم، وضعف المؤمنين وانزوائهم، وذلك لئلا تميد بالمسلم الفتن فتخرجه من دينه أو تجعله يسيئ الظن بربه، فيظن أن الله تعالى لا ينصر أولياءه ولا يكبت أعداءه، وأن القوة المادية المحسوسة فوق

(١) ينظر: موسوعة فقه الابتلاء (٤ / ١٧٥).

كل قوة، وأنه لا اعتبار بعالم الغيبيات، وإذا تمادى به الظن السيئُ إلى هذا الحد فيُخشى عليه من إنكار الغيب، ومن ثم إنكار الخالق جل جلاله، نعوذ بالله من هذا الحال!

ومن الناس من يتخلى عن دينه لا شكًّا فيه وفي وعد ربه تبارك وتعالى، ولكنه يستبطئ ذلك، فيتفلت من الأوامر والنواهي شيئًا فشيئًا، ويوجِد لنفسه الأعذار والمسوّغات حتى يخرج من الإسلام وهو لا يشعر، ولا سيما إذا صاحب الفتن موجات من السخرية بالدين وأهله، ووصفهم بالأوصاف التي تنفر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للإيذاء والابتلاء، كما هو الواقع في هذا الزمن من اتهامات باطلة للإسلام والمسلمين المتمسكين بدينهم، المعظمين لشعائره، المحافظين على سننه وأحكامه؛ إذ يوصفون في الإعلام العالمي اليهودي والنصراني والعلماني العربي بأوصاف تجرّمهم، ويُتهمون بتهم تخوّف الناس منهم، وذلك بقصد صرف الناس عن دينهم، وتخويفهم منه ومن شريعته، واستبداله بدين آخر ممسوخ تم صفُّه وإعداده في الدوائر السياسية والمؤسسات الأكاديمية الغربية، وتلقفه العلمانيون العرب، وعملوا له الدعاية في وسائل الإعلام المختلفة، وليس في هذا الدين الجديد حرام، ولا له حدود، ويؤمن بالحرية والديمقراطية وبكل المقررات العلمانية.

إنهم باختصار يريدون أن يكون ديننا كدين النصارى الذي ما بقي منه من كثرة التحريف والمسخ إلا بعض الوصايا الأخلاقية التي ينطق بها رهبانهم على استحياء.

وإن تعجب فعجب أمر فئام الناس مِمَّنْ صاروا يتساءلون في الصحف والفضائيات، بعضهم يلمح وبعضهم يصرح بطريقة أو بأخرى، قائلين: أين رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين الذين التزموا دينه، وأقاموا شريعته في أنفسهم وأهليهم ورعاياهم، واختاروا الإسلام الحق الذي أنزل على محمد ﷺ دون ما سواه؟! ها هم يوصمون بالتطرف والإرهاب وبكل نقيصة، ويوصفون بما ينفر الناس منهم!

ها هم أولاء في بلاد الأفغان قد قُتلوا، وأُخرجوا من ديارهم، وشُردت أسرهم، وعذبوا واضطهدوا، وفقدوا مقومات الحياة من الأمن والطعام والكساء والمأوى. فأين رحمة الله تعالى بهم؟! وأين رحمة الله تعالى بأهل فلسطين وقد فعل بهم اليهود والنصارى ما فعلوا؛ من هدم ديارهم، وإتلاف زروعهم، ومصادرة أراضيهم، واعتقال أبنائهم، ولا سيما من يرفعون لواء الإسلام.

وأين هي رحمة الله تعالى بالمسلمين في بلاد الشيشان المنكوبة التي يعيش نساؤها وأطفالها في مخيمات جليدية، لا يجدون أمنًا ولا طعامًا ولا كساءً؟! وأين هي نقمة الله تعالى على أعدائه: اليهود والنصارى والرافضة والباطنية والهندوس والمنافقين؟![1].

---

(١) وانظر ما سلف من جواب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة، وزبدتها أن حقيقة النصر هي الثبات على الدين حتى الممات، حتى وإن صاحب ذلك بعض متالف الدنيا، وأن أهل الإيمان يُبتلون ثم تكون لهم العافية بإذن الله تعالى.

إنها أسئلة بدأ المنافقون الماديون الذين لا يؤمنون بالله تعالى، وينكرون الغيب، يلقونها بطريقة أو بأخرى ليشككوا الناس في رحمة ربهم، بل في وجوده تبارك وتعالى! داعين إلى تحرير العقول مما يسمونه: خرافات دينية، وأطروحات عاطفية، وأحلام يقظة وردية، تعالى الله عن إفكهم وكفرهم علوًا كبيرًا.

وهذه الأسئلة ومثيلاتها ترد على قلوب ضعاف الإيمان عند كل نازلة تنزل بالمسلمين، ومصيبة تحل بهم، لكن ألسنتهم تعجز عن النطق بها؛ لأن ما في قلوبهم من إيمان ـ ولو كان ضعيفًا ـ يحفظ ألسنتهم من نطقها. ونعوذ بالله العزيز الحكيم من أن تلفظها أفواهنا، ونعتصم به تبارك وتعالى من أن ترد على أذهاننا، أو تنكت في قلوبنا؛ لأنها أسئلة مكتوبة على بوابة الإلحاد والزندقة، لا ترد على قلب عبد وينطق بها لسانه إلا ولج البوابة التي من دخلها لا يرجى خروجه منها إلا أن يرحمه الله بتوبة يرزقه إياها، فتصله قبل أن يصل إلى النار. وإلا فكيف ترد هذه الأسئلة ومثيلاتها على قلب مؤمن يوحّد الله تعالى، ويؤمن بوعده، ويعرف أسماءه وصفاته، ويتعلق به؟!

إن المؤمن المتعلق بربه يوقن أن الله أرحم بنا من أنفسنا، وربنا جل جلاله قد وسع كل شيء رحمة وعلمًا، فوسعت رحمته كل شيء، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وهو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو تعالى أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه،

وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بالعبد من أوصل له مصالحه ودفع عنه مضاره ـ ولو بمشقة ـ ولهذا كان من رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على عباده المؤمنين من القتل والتعذيب والحرق والأسر والحبس والتهجير والجوع والخوف ونحو ذلك من البلايا؛ مما هو مشاهد.

المسلمون في ضعف. وهذا الابتلاء للمسلمين هو من رحمة الله تعالى بهم، وهو من أعظم ما يحقق المصالح الدائمة لأولياء الله تعالى وأحبابه في الدنيا والآخرة، ومن أهم تلك المصالح:

١ ـ التوبة والإنابة والرجوع إلى الله عز وجل.

كما قال سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، فما يصيب المسلمين في أقطار كثيرة في هذا العصر من الأذى والقهر والتسلط من قِبَل أعدائهم؛ ما هو إلا من الابتلاء بالسيئات لعلهم يراجعون أنفسهم، ويعودون إلى دينهم، ويتعلقون بجناب ربهم تبارك وتعالى.

٢ ـ استخراج الدعاء.

فلولا هذه المصائب العظيمة التي نزلت بالمسلمين لما سمعت الخطباء في الجمع يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء لإخوانهم المسلمين المنكوبين، وكذلك يفعل أئمة المساجد في قنوت النوازل، ناهيك عن عباد الله وإمائه الضارعين لمولاهم بكشف كرب المستضعفين ونصر المجاهدين.

وهذا من أعظم المصالح التي تحصل بسبب الابتلاءات، وقد بين الله

تعالى أن هذا من مقاصد الابتلاءات التي تحصل للبشر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] فالبأساء والضراء التي أصابت ولا تزال تصيب إخواننا في فلسطين وأفغانستان وكشمير والهند والشيشان والشام واليمن والعراق وغيرها تستخرج التضرع منهم، وتلجئهم إلى التعلق بالله تعالى ودعائه والانطراح بين يديه، بل إن كثيرًا من المسلمين الذين يشاهدون عذاب إخوانهم تأثروا بذلك، لجأ كثير منهم إلى الله تعالى، وصاروا يكثرون من الدعاء والتضرع، وهذا مصلحته عظيمة لأهل البلاء خاصة، ولكل الأمة عامة؛ لأن الدعاء من أعظم العبادات التي يحبها الله تعالى.

قال وهب بن منبه ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ: «ينزل البلاء ليستخرج به الدعاء»(١) وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يكره العبد خير له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه»(٢).

وقد قيل: «مصيبة تقبل بها على الله؛ خير لك من نعمة تُنْسيك ذكر الله»(٣). وقال بعضهم: «يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك»(٤).

(١) الشكر، لابن أبي الدنيا (١٣٢).
(٢) الفرج بعد الشدة، لابن أبي الدنيا (٢٢).
(٣) تسلية أهل المصائب (٢٢٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٧٧).

٣- كشف المنافقين وفضحهم.

فإن الأمور إذا استقامت للمسلمين، واستقر لهم الأمن، ولم يكن ثمة مخاطر تحيق بهم؛ دخل فيهم من ليس منهم من المنافقين وعبّاد الدنيا والمصالح الذاتية، ولا يبين حينئذ من هو صادق في إيمانه موقن بإسلامه مهما كانت النتائج، ممن يظهر الإسلام ويقيم بعض شعائره؛ لأنه أمام المسلمين، ولأن ضرورة العيش معهم تقتضي مسايرتهم ومجاملتهم. وقد قال الله تعالى عقب غزوة أُحد: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- تعليقًا على هذه الآية: «أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين، حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أُحد، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميزون في غيبه وعلمه، وهو سبحانه يريد أن يميزهم تميزًا مشهودًا، فيقع معلومه الذي هو غيب وشهادة»(١).

هذا؛ وإن الغلبة والنصر والتمكين للمؤمنين مُبرمٌ محتوم مهما ضاقت بهم شدائد العاديات، فقد كتب ذلك رب البريات تبارك وتعالى، فقد قال الله تعالى وقولُه الحقُّ ووعدُه الصدقُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٠).

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نذكر هنا نكتة نافعة؛ وهي أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيرًا من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من المصائب، وما يصيب كثيرًا من الكفار والفجّار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلًا، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين، وأن العاقبة للتقوى.. وهو ممن يصدق بالقرآن؛ حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط، وقال: أما الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ولهم العزة والنصرة، والقرآن لا يرد بخلاف المحسوس، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق... والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية؛ بناهما على الجهل بأمر الله ونهيه وبوعده ووعيده، فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق؛ فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور تارك للمحظور، وهو على العكس من ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق، وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا، وقد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على

المؤمنين ولأهل الفجور على أهل البر، فهذا من جهله بوعد الله تعالى.

أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها وبوجوبها، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم، ويترك ما أوجب، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل.

وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين؛ بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى وسبيل آخر[(١)].

ولهذا أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين باتّباع ما أنزل إليهم وهو طاعته وهو المقدمة الأولى، وأمرهم بانتظار وعده وهي المقدمة الثانية، وأمرنا بالاستغفار والصبر لأنهم لا بد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار، ولا بد مع انتظار الوعد من الصبر، فبالاستغفار تتم الطاعة، وبالصبر يتم اليقين بالوعد كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]»[(٢)].

ويؤكد شيخ الإسلام ـ رَحِمَهُٱللَّهُ ـ على أن حصول النصر وغير ذلك من

(١) ففي الأول لم يَرَ نقص دينه، وفي الثاني لم يفقه وعد ربه، وكلاهما جهل.

(٢) انظر: النبوات، لشيخ الإسلام (٢٤٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/٣٢)، ومجموع الفتاوى (١٧/١٠٢)، وشفاء العليل (٢٠٢)، وإغاثة اللهفان (٢/١٧٧) وقاعدة في المحبة، (١٤٠ – ١٩٠)، وعنه نقل ابن القيم في إغاثة اللهفان، (٢/١٧٣ – ١٨٧).

أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى، وذلك أن الخلق كلهم يموتون، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم[١]، فمن عدّ القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس، بل الفتن التي تكون بين الكفار، وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره، ومن جوع وغيره، وبأسباب خاصة، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل، بل الأمر بالعكس[٢] كما قد جربه الناس، ثم موت الشهيد من أيسر الميتات[٣][٤].

(١) عند الترمذي (١٦٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الشهيد لا يجد أَلَمَ القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة**». وحسنه الألباني في المشكاة (٣٧٥٩).

(٢) قال الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة».

(٣) قاعدة في المحبة، لابن تيمية، (١٤٩)، وعنه ابن القيم في إغاثة اللهفان، (٢/١٧٧) وما بعدها.

(٤) موقف المسلم عند الفتن، مقال لإبراهيم بن محمد الحقيل، مجلة البيان (١٩٥/ ٢٢) بتصرف يسير.

ثمرات التعلق بالله تعالى

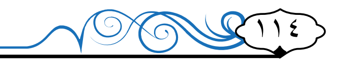
شجرة التعلق بالله تعالى مباركة يانعة مثمرة ثمارًا تغذّي القلب بمادة حياته، وتُلَذِّذُه بحلاوة زمانه، وتُطِيبُ له عيشَ زمانه، فيزكو القلب ويسعد وينفسح وينشرح، ذلك أن أمداد الإعانة وألطاف التوفيق وأسباب الفلاح كتب الله تعالى أن تتنزل بإذنه على القلوب المتعلقة به.

ومن تلك الثمرات التي يحصلها المؤمن جراء تعلق قلبه بربه دون سواه:

١- الثبات عند التقلبات، والرسوخ عند المُلِمات.

وتأمل موقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موت رسول الله ﷺ، فقد نزلت بالمؤمنين مصيبة عظيمة، وابتلاء شديد، ومن خلالها وبعدها ظهرت شخصية الصديق كقائد للأمة فذ لا نظير له ولا مثيل، فقد أشرق اليقين في قلبه، وتجلّى ذلك في رسوخ الحقائق فيه، وشدة تعلقه بالحي القيوم، فعرف حقيقية العبودية، والنبوة، والموت، فثبَتَ وثَبَّتَ الناس بلطف الله تعالى، فأخذ الناس آيات مماته صلى الله عليه وسلم مِن فِيِّ الصديق كأنها لم تنزل إلا يوم تلاها على أسماعهم، فساروا في الطرقات يقرؤونها ويتدبرونها. وفي ذلك الموقف العصيب والحَدَثِ الهائل الشديد ظهرت حكمته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فانحاز بالناس إلى التوحيد بقوله لهم: «من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»[1]، وما زال التوحيد في قلوبهم غضًا طريًا، فما إن سمعوا تذكير الصديق لهم حتى رجعوا إلى الحق، تقول عائشة

(١) البخاري (٣٤٦٧).



رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فوالله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها»(١).

ولما قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] فَقَدَ يوسفَ وفقدَ بصرَه، فلما قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] أعاد الله له ابنه وبصره، فشأن المتعلق بالله عظيم جِدُّ عظيم.

ولما حاول أبو سفيان بث الرعب في قلوب المؤمنين، وأرسل وعيده لهم بعد أحد أنه عائد لاستئصالهم قال سيد المتعلقين برب العالمين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣- ١٧٤].

فالمتعلق بالله قد آوت نفسه إلى ركن شديد، فلا تزعزعه عظائم الخطوب، ولا تقلقله كوارث الزمان، ولئن طارت بالناس الفتنُ مع كل مُطَيِّرٍ؛ فالمتعلق بالله راسخٌ بيقينه، ثابت بإيمانه، عزيز بربه، شامخ بدين رب العالمين.

٢- أنه خير معين على الدعوة إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. «فسبيل النبي ﷺ ومن قبله الأنبياء واضح لا لبس فيه، قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ

---

(١) البخاري (١٢٤١، ٢٤٢).

ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] أي: «ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج»(١).

«ولا بد من هذا الوضوح والظهور في السبيل الذي يسلكه الأنبياء، فلو كان غامضًا لكان عسير المنال، صعب الاتباع، والرحمن لا يكلف عباده بمثل هذا.

وقال العباس بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «والله ما مات رسول الله ﷺ حتى ترك السبيل نهجًا واضحًا، وأحلّ الحلال، وحرّم الحرام، ونكح وطلّق، وحارب وسالم، وما كان راعي غنم يتبع بها رؤوس الجبال يخبط عليها العضاة بمخبطه، ويمدر حوضها بيده بأنصبَ ولا أدأب من رسول الله ﷺ كان فيكم»(٢).

وهو سبيل واحد وصراط فرد، وهو الحق وحده، ولا سبيل إلى الله تعالى غيره، وتحيط به سبل كثيرة، قاطعة عنه، مضطربة معوجّة مشوّشة، وهو من بينها واضحٌ بيّن لا اشتباه فيه، مستقيم لا اعوجاج فيه؛ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «**هذا سبيل الله**» ثم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٤٦/٣).

(٢) الدارمي في سننه (٨٣) من حديث عكرمة مرسلًا. وقال الأرناؤوط في تحقيقه جامع العلوم والحكم (١٩٦/١): رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٦٦ - ٢٦٧) عن عارم بن الفضل، عن حماد بن زياد، عن أبي أيوب، عن عكرمة.. وهذا سندٌ رجاله ثقات إلا أنه مرسل.

خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله وقال: «**هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**. وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[١].

قال ابن القيم في هذا الحديث والآية الواردة فيه: «فوحّد سبيله؛ لأنه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة ومتعددة... والمقصود: أن الطريق إلى الله واحد؛ فإنه الحق المبين. والحق واحد مرجعه إلى واحد، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى باطل فهو باطل»[٢].

وقِفْ قليلًا عند الياء في قوله: ﴿سَبِيلِيٓ﴾ فتلاحظ فيها قوة ارتباط المتكلم بها ونسبتها إلى نفسه، وتمسّكه بها، وأنه يعيش ويموت من أجلها[٣]، إنه معنًى سامٍ تتشوق النفوس للتحلي به، والحياة عليه، والموت من أجله، ونسأل الله أن نعيش ونبعث عليه، آمين إله الحق.

---

(١) رواه أحمد وغيره، وحسنه الألباني في المشكاة (١٠/١٦٦).

(٢) طريق الهجرتين (١٦٨، ١٦٩) وقال في النونية:

فلواحدٍ كُنْ واحدًا في واحدٍ   أعني سبيلَ الحقِّ والإيمانِ

(٣) قال ﷺ وهو ذاهب للحديبية – وتأمّل العزم واليقين والثبات النبويّ-: «**وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، وليُنْفِذَنَّ الله أمره...**» الحديث. رواه البخاري (٢٧٣١) كذلك قالها صدّيقه وخليفته لـمّا ارتدّت بعض القبائل عن الإسلام، لا جَرَم فهو يقبس من مشكاة النبوة، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وتلمّح أيضًا من قوله ﴿سَبِيلِيٓ﴾ أنها سبيلي قبل أن تكون سبيل غيري، فمن شاهد هذا المعنى أدرك أنه لا بد من سلوكه هو لهذا السبيل والتزامه به قبل دعوة غيره إليه.

والدعوة إلى الله هي تعبيد الناس له وحده، وهي الغاية العظمى في هذا السبيل، وتدبّر أنها إلى الله لا إلى النفس، ولا إلى الحزب، ولا إلى الشيخ الفلاني أو الطريقة الفلانية؛ فهي خالية من حظوظ النفس، ومن حظوظ الخلق؛ فهي دعوة إلى الله تعالى وحده، لا إلى نفوس بشرية، أو مناهج أرضية.

ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب إذ يقول في هذا المقام: «التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرًا من الناس ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه»[١] وتبرز في هذه الآية حقيقة الاتباع للسبيل النبوي، فها هي أمامنا: أصلها الدعوة إلى الله على بصيرة؛ وهذا يكفي في التأكيد على الاتباع والتأسّي؛ لأننا مأمورون بالاقتداء بسنة النبي ﷺ، وعطف عليه الاتباع فهم يدعون إلى الله على بصيرة[٢] كما يفعل النبي ﷺ، نعم هذه حقيقة الاتّباع، فلا يكون الرجل من أتباعه حقًّا حتى يدعو إلى ما دعا إليه، ويكفيك شرفًا وثباتًا على المنهج أنك من أتباع النبي ﷺ.

---

(١) كتاب التوحيد، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

(٢) اختلف المفسرون في عطف: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ والراجح كما قال ابن القيم: «والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة، الذين يدعون إلى الله» الصواعق (١/١٥٥) نقلًا عن بدائع التفسير (٢/٤٧٧).

ويقول ابن القيم عمّن التزم هذا المنهج النبوي: «فهؤلاء خلفاء الرسل حقًّا وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علمًا وهداية وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، وهؤلاء هم الصدِّيقون وهم أفضل أتباع الأنبياء»(١). وقال أيضًا: «فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعين إلى الله على بصيرة؛ فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى»(٢). وقال في موضع آخر: «فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسول الله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه. ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ولا هو من أتباعه»(٣).

ويتأكد في هذه الآية تحميل هذا السبيل وهذه الدعوة إلى الله تعالى من يقوم بأعبائها وينصرها ويرفع رايتها، ويتم توارثها جيلًا بعد جيل حتى تقوم الساعة، ولنعمل على تهيئة هؤلاء، ولنعلم أن الله قد تكفل لنا بذلك، فقد ورد في الحديث عن أبي عنبة الخولاني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم في طاعته»**(٤).

وفي الحديث الآخر عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزال**

---

(١) مفتاح دار السعادة (٨٥) نقلًا عن بدائع التفسير (٢/٤٧٧).

(٢) المدارج ٢/٤٨٢ نقلًا عن بدائع التفسير (٢/٤٧٨).

(٣) جلاء الأفهام (٢٤٩) نقلًا عن بدائع التفسير (٢/٤٧٨).

(٤) رواه أحمد (١٧٨٢٢) وابن ماجه (٨) وقال البوصيري: إسناده صحيح. وصححه الألباني.

طائفة من أمتي على الحق منصورين، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله عز وجل»(١).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موضحًا توارث هذه الأمانة بين من يحملونها، فقال واصفًا لهم: «أولئك الأَقَلُّونَ عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدّوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم»(٢).

وينبغي التنبيه أنه مع الحرص على إيجاد فئة يحملون هذه الدعوة، فإنه لا عبرة بالقلة والكثرة، أو استجابة الناس وإعراضهم؛ فالقلة ليست دليلًا على الضعف والإخفاق. قال ابن القيم في شرحه للأثر السابق عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هذا الصنف أقل الخلق عددًا؛ فإنهم قليلون في الناس، والناس على خلاف طريقهم؛ فلهم نبأ وللناس نبأ. وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون؛ فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عددًا، والناس على خلافهم... وقال بعض العارفين: انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب»(٣).

إن الحق لا يعرف بالكثرة؛ وكيف يكون ذلك وقد قال المصطفى ﷺ في

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩) وغيره، وروي من وجوه أخر في الصحاح، وعده بعض العلماء من المتواتر.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٩٧).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/٢٣١) بتصرف.

صفة الغرباء: «**أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم**»(١) وحال من يحمل هذه الدعوة هو كمال التقديس والتعظيم والتنزيه لله سبحانه وتعالى، فلا خوف إلا منه، ولا محبة إلا له. بل إن غاية الدعوة هي تنزيه الله وتعظيمه بعبادته وحده لا شريك له.

وفي هذه الكلمة: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إيماء إلى ضرورة التعلق بالله سبحانه وتعالى فمع هذه الأعباء وهذه التكاليف قد يغفل الداعية عن الاتصال بالله، ويخطئ بأن يبذل وقته للناس وينسى نفسه، فلا يزودها بما يكفل لها الاستمرار والثبات والصبر.

وفي هذه الدعوة تأكيد على الإخلاص، والبراءة من الشرك صغيرًا كان أو كبيرًا، والبراءة من المشركين، فلا أنا من المشركين في جميع أنواع التوحيد: ألوهية، وربوبية، وأسماء وصفات، وطاعة، وحاكمية، ولا أنا ممن يطيع المشركين أو يواليهم أو يقدمهم على طاعة الله، ولا تقارب مع كل كافر سواءً كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو وثنيًّا أو علمانيًّا أو ماديًّا أو غير ذلك؛ كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند هذه الآية: «من أهم مسائل الآية: إبعاد المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم ولو لم يشرك»(٢) قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ [الكافرون: ٤]. قال ابن كثير: «أي ولا أعبد عبادتكم، ولا أسلكها ولا

---

(١) رواه أحمد (٦٦٥٠) والطبراني (١٣/ ٣٦٣) وغيرهما، وصححه أحمد شاكر، وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٢) كتاب التوحيد، باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله.

أقتدي بها، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه، فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه»[١].

ومتى حصل انحراف عن هذه الدعوة مع غير المؤمنين بشتى أصنافهم، فهي ليست دعوة إلى الله، وليست على بصيرة، وفي النهاية: ليست على سبيل المصطفى ﷺ»[٢]. ويا بشارة الداعي إلى ربه المُخلصُ على بصيرة!

٣- السعادة والهناء في الدنيا والآخرة.

إن السعادة كلها، والخير بحذافيره، والفلاح بأنحائه في صدق توحيد التعلق بالله تعالى، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا إله إلا هو، تبارك وتعالى. فمن أراد النُّجْحَ فليبدأ من هنا، «قال إبراهيم بن شيبان: من أراد أن يكون معدودًا في الأحرار، مذكورًا في الأبرار؛ فليخلص عبادة ربه.

إنك بدون ذلك التعلق تبقى عبدًا مأسورًا لحاجتك، ذليلًا لمن تمد إليه يدك غير الله، مقهورًا لكل من تخافه غير الله سبحانه وتعالى، أما إذا علقت القلب به، وأخلصت النية له، ووجّهت القصد والوقت والجهد في طاعته ومرضاته، فأنت حُرُّ الأحرار، وأنت بَرُّ الأبرار، وأنت الناجي من عذاب النار

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٩٩).

(٢) قل هذه سبيلي، محمد بن عبد الله الزغيبي، مجلة البيان (١٢١ / ٨) باختصار وتصرف وزيادات.

بإذنه سبحانه وتعالى.

سئل ذو النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيم يجد العبد الخلاص؟ وكلنا نسأل هذا السؤال كلنا نريد الخلاص كلنا نريد النجاة كلنا نريد السعادة، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخلاص في الإخلاص»، فإذا أخلص تخلّص من كلّ هَمٍّ دنياه[١]، تخلّص من كل تسلّط أعدائه، وتخلص من كل حاجات نفسه الدنية الدنيوية؛ ليبقى ساميًا عاليًا مرتقيًا على الدنيا وما فيها، وعلى أهل الدنيا جميعًا، فإن قوته وصلته بالله تعطيه من الغنى والاستغناء ما لا يكون أهل الأرض كلهم يوازون عنده جناح بعوضة، كما قال سيد الخلق ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة؛ ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[٢].

ونحن لنا مطامع إذا علقناها بالله وجدنا الخير والسعادة والحرية، وإذا علقناها بأسباب الحياة لم نجد ما يشبع النهمة ويروي الظمأ، ثم كنا أسرى ضعفاء لا نستطيع أن نحقق مرادنا في دنيانا، ونخشى ألا نحقق نجاتنا في أخرانا.

وتأمل أخي المؤمن ماذا تريد من الدنيا؟ وماذا تريد في الآخرة؟ اسأل نفسك، وتلمّس الإجابة، فإنك تجدها كلها متعلقة بأمر الله وطاعته، وتعليق القلب به، وربط الحبال بما عنده سبحانه وتعالى. ألست تريد تكثير الحسنات

---

(١) ويا نفس أخلصي تتخلّصي، وقل لمن لا يُخلص: لا تتعب.

(٢) الترمذي (٢٣٢٠) وصححه الألباني.

وتكفير السيئات؟ استمع لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥] ألست تريد العلم والفقه والفهم؟ استمع لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٢] ألست تريد الفرج والرزق ورغد العيش؟ استمع لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق:٢ـ٣] ألست تريد الفرح والسرور والسعادة؟ استمع لقول الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] المعين عذبٌ متدفق فأين الواردون الشاربون؟ والطريق واضحٌ مستقيم فأين السالكون المشمّرون؟ تأملوا لنجد أن شقاءنا مغروس في نفوسنا بما أعرضت عن ذكر الله، وبما فرطت من التعلق بالله سبحانه وتعالى، لنجد أن كل ما نحتاج إليه مرتبطٌ بحقيقة التعلق بالله وحده، ألستم تعرفون أحاديث المصطفى ﷺ؟ ألسنا نحفظ قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»؟[(١)][(٢)].

قال العلامة محمد المختار الشنقيطي: «والسعادة ليست في الصور والأشكال، السعادة ليست في المناظر وليست في زهرة الحياة الدنيا، السعادة سعادة القلب. ولله در الشاعر إذ يقول:

ولستُ أرَ السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكن التقيَّ هو السعيدُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩)، وبمعناه عند أحمد.

(٢) دروس الشيخ علي بادحدح (٩٩ / ٣) بتصرف.

الراحة والطمأنينة والسعادة التي وعد الله بها المؤمن في قلبه وفؤاده، ولذلك تجد الإنسان فقيرًا مدقعًا لا طعام عنده ولا شراب ولا كساء، وتقول له: كيف حالك؟! فيقول لك: الحمد لله، في نعمة وفضل من الله، وتجد الرجل طريح الفراش مشلول اليدين مشلول القدمين أعمى أصم، فتخاطبه ويسمعك فتقول له: كيف حالك؟! فيقول لك: الحمد لله.

والله إن أحد الشباب من الأخيار أصيب منذ عهد قريب فأصبح - والعياذ بالله - مشلولًا لا يتحرك، لكن كل من يدخل عليه يعجب من قوة إيمانه وثبات جَنانه، ويقول: ما رأينا أشرح صدرًا من ذلك الرجل، ليست السعادة في المناظر، وليست السعادة في هذا الزهرة، السعادة في التعلق بالله تبارك وتعالى، المؤمن له السعادة؛ لأن عنده اليقين الذي يتعلق به بالله عز وجل.

لذلك تجد أغنى الناس أشقى الناس بغناه، تجد له قلبًا هُنا، وقلبًا هناك، وقلبًا مع التجارة، وقلبًا مع السيارة، وقلبًا في العمارة. في همٍ ونكدٍ لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، تجده يركب أحسن وأفره السيارات، ولكن في داخل قلبه من الجحيم والقلق والاضطراب النفسي ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، مع أنه في عز وكرامة ومال وجاه لكن فقَدَ السعادة الحقيقية، فقَدَ الإيمان بالله والصلة والثقة بالله عز وجل.

وأضرب لك مثلًا أوسع من ذلك كله: انظر إلى أغنى الناس تجده أكثر الناس مرضًا، تجده أغنى الناس ولو طلب أي طعام يُلبّى له، ولكن عنده مرض السكر، ومرض في الضغط، ومرض في عينه، ومرض في قدمه بسبب

هذه الأموال والهم الذي أصابه من هذه الأموال، ومع ذلك لا يستطيع أن يأكل إلا طعامًا معينًا، ولا يشرب إلا بطريقة معينة؛ لأنه حرُم السعادة الأبدية، ولذلك قد تجد الإنسان فقيرًا مدقعًا، وحوله أبناؤه، لطف الله به من حيث لا يشعر.

هب يا أخي الكريم: أن الله أعطاك الأموال فعظمت تجارتك، وكثرت أموالك، وأصبح عندك في كل وادٍ تجارة، وفي كل مدينة تجارة، يتشتت قلبك، ويتشتت ذهنك، حتى إن أبناءك يتشتتون بهذه الأموال التي لك، يومًا يسافر ويومًا يغادر ويومًا في مكان كذا ويومًا في مكان آخر، ولا يمكن أن يتمتع الغني، سله متى يتمتع بأبنائه؟ ربما يمر عليه العام الكامل لا يرى ابنه أو ربما يراه يومًا أو يومين، ومع ذلك يظن أنه في سعادة، أي سعادة هذه؟ المال الذي يظن الإنسان أنه سعادة قد يكون سببًا في تدمير حياته كلها، فإنَّ قارون أشقاه الله بماله.

ولذلك ذكر لي الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصةً عجيبة، يقول: قامت الحرب العالمية فجئت ذات يوم والطعام قد أصبح شغل الناس، حتى إنه بيع بيت في ساحة المدينة بكيس أرز، نسأل الله ألا يبتلينا بمثل تلك الأيام.

الشاهد على هذه العبرة العظيمة يقول تاجر: دخلت عليه عند قيام الحرب - وكان قد اشترى سفينة من الأرز - فجاءه الخبر أن الأرز قد ارتفع وأنه غلي سعره في السوق، فمن شدة صدمة الفرح خر ميتًا من فوق كرسيه، ثم مرت الأيام تلو الأيام واحتجت أن أشتري أرزًا عند انتهاء الحرب، فوقفت على

تاجر أيضًا قد اشترى سفينة من الأرز وجاءه الخبر أن السوق قد كسد، فسقط ميتًا من ساعته، فسبحان الله! أحدهم عند غلاء السوق والثاني عند كساده، ما نفعت الأموال ولا نفعت التجارات، الأموال والتجارات إذا لم تقرب من الله عز وجل فلا خير فيها.

إن أيام البلايا التي تُكثر فيها التضرع لله عز وجل إذا كشفت كرباتها تتمنى أن تعود لك تلك الأيام التي كنت تناجي فيها الله عز وجل من حلاوة المناجاة وحلاوة مناداة الله عز وجل، هذا كله هو السعادة الحقيقية، فالبلاء الذي يصيب المؤمن يصيبه في الظاهر، أما الباطن فلا يصيبه؛ لأن قلبه مع الله ويقينه بالله»[١]. والله المستعان.

٤- إحسان التعلق بالله تعالى.

من ثمرات التعلق إحسان التعلق، وهذه عجيبة فإذا استغرق القلب في تعلقه بخالقه وإلهه ازداد تعلقًا به، فكل تعلق مفض لتعلق آخر، ومُغَذٍّ له، وسائق له وحادٍ، حتى يستغرق القلب في توحيد تعلّقه بإلهه وتعظيمه وإجلاله والفرح به والافتقار إليه والغنى به والاكتفاء - كل الاكتفاء - به عما سواه، والحسنة تنادي أختها، والإيمان يزيد بالإيمان والعمل الصالح، والدرجة تُقرّب مما يليها عُلُوًّا، والبر يهدي إلى الجنة.

ولا يزال المتعلق بربه يسير في مدارج التعلق، ويمدّ حباله، ويشتدّ

(١) دروس الشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٩ / ١٣) بتصرف يسير.

بأسبابه، وينسج قلائده حتى يتمّ له إحسان التعلق، وهناك تتنزل عليه ألطاف الملك العلام، وتنهمر على فؤاده المنح والفوائد ولذات القلوب والأرواح، فيسير في وادٍ والناس في واد، وله مع الآخرة شأنٌ والناس مع دنياهم في شأنٍ، فهو لله وبالله ومع الله، قد حقق العبودية، وجرّد التوحيد، وأفرد التعلّق، فَلَعَمْرُ إلهي لهو الفائز حقًّا، والمفلحُ صدقًا، عَزَّ بعزّ إلهه، وقوِيَ بقوّة مولاه، واغتنى بغنى سيّده، واهتدى بهدى ربّه، ونال خير الدنيا والآخرة بسعة فضل رب العالمين وأكرم الأكرمين ورحمةِ أرحم الراحمين، نسأل الله الكريم من مواهبه وكرمه وأفضاله، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

٥- العزة بالله تعالى، والأنفة من الذل لمخلوق.

فالحبل المتين القريب الذي لا ينقطع هو حبل الله تعالى وحده، وبضده حبل المخلوق مهما علا شأنه وتوثّقت وسائلُه وظهرت لدى الأَكْمَهِ قُوَاه.

ذلك أنّ مَن أحسن التعلق بالله تعالى انجلت عن بصيرته حجب الآخرة فكأنه يراها رأي عين، وانكشفت لعينَي قلبِه عورةُ الدنيا وغرورها وفنائها فصار أزهد الناس فيها، وأرغبهم فيما يليها من النعيم المقيم في جوار الكريم الجميل الجليل، قد وضع الدنيا حيث وضعها الله، وأعلى في قلبه الآخرة كما هداه إليها مولاه.

فليس في قلبه بعد ذلك مكانُ ذلّةٍ لمخلوق مهما علت ناصيةُ رئاسته، وامتدّ في البَرِيَّة كعبُ سلطانه، وتعاظمَ بين الفانين جبروتُه، ذلك ليقينه أنّ

ناصيته بيد ملك الملوك، ومن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماوات، ومن بيده مقاليد الأمور، وتصاريف الأقدار، وتدبير الأشياء، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

فهو موقن غير مرتاب أن الخلق بيد الخالق، إن شاء أن يسلطهم سلطهم، أو شاء أن يحبسهم ويكفّهم حبسهم وكفّهم، إنما هم مجرّد ذرّات غُبَارٍ فانية في كون الله الواسع، وخلقه الشاسع، لا يعدون أن يكونوا أسبابًا مجرّدة عن أي تدبير مع الخلاق العظيم، إن شاء المُسبِّبُ تبارك وتعالى أمضاها أو ردّها أو حتى قَلَبَهَا، له الأمر كله، وبيده الأمر كله، وإليه يُرجع الأمر كله، لا إله إلا الله العلي العظيم.

فالمتعلق لا يخشى مخلوقًا مع الخالق، إنما يخشى أن يؤتى من قِبَل نفسه الأمارة ومعصيته المُزَيَّنة، فقلبه متعلق بالله وحده، راجٍ خيره، محسن ظنه بكرمه ورحمته، منطرح بين يديه، يسأله الإعانة والهدى والثبات، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، فمثل هذا ليس عليه ضيعة، فالعليُّ تبارك وتعالى لا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ.

حج هشام بن عبد الملك، فلما كان في الطواف رأى سالم بن عبد الله وهو يطوف وحذاؤه في يديه، وعليه ثياب لا تساوي ثلاثة عشر درهمًا، فقال له هشام: «يا سالم، أتريد حاجة أقضيها لك؟» قال سالم: «أما تستحي من الله، تعرض عليّ الحوائج وأنا في بيتِ من لا يُعْوَزُ إلى غيره؟!» فسكت هشام، فلما خرجا من الحرم قال له: «هل تريد شيئًا؟» قال سالم: «أمن حوائج الدنيا أو

الآخرة؟» فقال: «من حوائج الدنيا». فقال سالم: «والله الذي لا إله إلا هو ما سألت حوائج الدنيا من الذي يملكها تبارك وتعالى، فكيف أسألها منك؟!».

٦- التوفيق الملازم للمتعلق بربه تعالى.

قال الله سبحانه في شأن المتعلق به دون سواه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] بلى وعزة ربنا. فعلى قدر التعلق يكون التوفيق والفلاح في الدارين، وكان رسول الهدى ﷺ يربي أمته على ذلك، كما في حديث ابن عباس المشهور أنه ركِبَ خلفَ رسول اللهِ ﷺ يومًا فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا غلامُ إني مُعَلِّمُكَ كلماتٍ؛ احفظِ اللهَ يَحفظْكَ، احفظِ اللهَ تجِدْهُ تُجاهَكَ، وإذا سألتَ فلتسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يَضروك لم يَضروك إلا بشيءٍ قد كتبهُ اللهُ عليك، رُفعتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ**»[1].

فتأمل ربط التوفيق بحذافيره من حفظ وإغناء ومعيّة بالتعلق التام بالله تعالى والسير وفق مراده سبحانه، وهذا الحديث يجمع التوحيد في القلب من أطرافه، حريٌّ بكل والدٍ ومُرَبٍّ وحادبٍ تربيةَ الأفئدة عليه، وتوجيهَ القلوب إليه، وتصحيحَ العقائد به، وبالله التوفيق.

٧- انشراح الصدر وانفساحه بالأنس بالله تعالى.

المؤمن مُفَتّنٌ توّاب، ومن عرف قدر الآخرة هانت عليه نفسه وزالت عن

---

(١) أحمد (٤/٢٣٣) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

عينة غشاوة فتنة الدنيا، وعمر قلبه بحبّ الله تعالى، والأُنس به، والشوق إليه والدار الآخرة.

ذلك أن محبة الله تعالى والتعلق به إذا استحكمتا في القلب هانت عليه الدنيا وتصاريفها، ولم يعبأ بحلوها ومرّها، لأن قلبه قد استضاء بنور الإيمان، وأشرق بشمس الإحسان، والتذّ بحلاوة القرآن، ورغب في مزيد من ثمرات الرضوان. أما من لم يتعلق بالله تعالى فهو في أودية العذاب والهوان، يتقلب في حسرات الحرمان، حتى وإن كان في عزّ سلطته، واستتمام ملكه، وعنفوان صحته، ووفير مالِه، وكثير متاعه فيما يرى المغرورون!

وإنه لتمرّ بي ساعات أتذكّر فيها الراحلين عني للآخرة من معارفي، فيتراءى لي أحيانًا أنّ معارفي الأموات أكثر من الأحياء، لكثرة سوادهم في الذاكرة، وازدحامهم بين حنايا الضلوع، وربما أنه وَهْمٌ أسقطه حنين الذكرى على صفحة القلب الحزين!

وبكل حال؛ فالدنيا بأسرها ممرّ لدار المستقرّ عند من لا تضيع عنده الودائع، ولا يخيب من علق به صِدق الرجاء، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، تبارك وتعالى.

فلا أصدق من محتضر، ولا أنصح من مودّع، وبين يديك رسالة محزون راحل، بث فيها شجنه، وكشف سرّه، وصدق نصحه، وبكى حاله كيما يكون لمن بعده منبّهًا محذّرًا موقظًا، وأنْفَسُ الهدايا ما حوته الحنايا.

فلقد حدثني أحد من أثق بصدقهم في بثّ شجونٍ له بعد توبته ـ وقد توفاه

الله تعالى إليه من نحو عَقدين، أسأل الله أن يقبل توبته وأن يغفر له ويرحمه ويرضى عني وعنه وعنك وقد أخذتُ المعاني منه وصُغتُها لك ـ وكان من عُلَالَاتِ شَجَنِه قولُه المُؤَثِّرُ الباكي والناصح الحادب:

حدثتك ليعلم من تكتب لهم أنّ الدنيا سراب بقيعة! وأن لذّاتِها طيفُ خيال مَرَّ على القلب ولم يلِجْه، وبرقٌ خُلَّبٌ شامَهُ مغرورٌ فخدعه، وأحلامُ منامٍ استيقظ منها مخدوع بها بعد معاينة رُسُلِ الآخرة. ولولا حرصي على استفادة من يقرأها ما فهتُ لك بها حرفًا، لعلمي أنها مجاهرة لك بعصيان، وإن كان قد نما لك بعض أنباء فَعَلَاتي، والأعمال بالنيات، وحسبي أني تبتُ منها لربي، وأرجو أن تكون نصوحًا مُتقّبلة، وأحمده على توفيقي لتوبتي قبل رحيلي للقائه، سائله السترَ والغفرانَ لما مضى، والحفظ فيما أستقبل، وحسن الختام. فلعل المطلع على خبري أن يستغفر لي، وأن يعتبر بحالي، وألّا تغرّه نفسه بالله الكريم المنان، فالسعيد من وُعِظ بغيره، والشقيُّ من وعظته بعد الفوت نفسُه.

وإنّي حينما أتذكر ذلك الزمان الموحش؛ أحسُّ كأنّني كنت أعيشُ في حلمٍ داخل حلم وأنا مستيقظٌ منتبه، من شدّة الحيرة التي كانت تعتريني، والفراغ الذي كان يحتويني، والقلق الذي أزرى بما أَمَّلْتَهُ من طيب عيشي، كتب الله ضنْكَ المعيشة على من خالف أمره، مهما استطالت بأوهامه الأماني، واستطارت بأحلامه الآمال، سُنَّة الله!

قال رحمه الله تعالى: لقد منّ الله تعالى علي بصحةِ بدنٍ، ووفرة مال، وظرافةِ أخدان، وحدّةِ ذهنٍ، وبسطةِ جسم، ووسامةِ وجهٍ، وجمال قوام، وحُسنِ صوتٍ،

ورِقَّةِ طبع، وعذوبة منطق، ورَوَاءِ كلام، وبشاشة معشر، ومضاءِ عزمٍ، وانبساط أجلٍ.. في نعم لا أُحصيها، فلم أشكر نعمته السالفة فيما مضى لي من سنين، فلقد ـ وأقولها لتقرعَ قلب مبتدئ المشوار حتى لا يضيع كضياعي، ويفجأه أجلُه كأصحابي، كيما يحذر آخرته، وينتبه من غفلته، ويستيقظ من رقدته، فلا يبتدئ من حيث ابتدَأوا فينتهي كما انتهوا، فيا خيبة المُغترّين، ويا طول أمل الغافلين، كأنْ لم يعلموا أن رحيلهم للجبّار قد أَزِف، وزادهم ليس للآخرة بزادٍ صالح، فيا ويح من لم يُرض ربه في دار العمل!

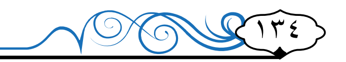
أقول: لقد سكنت الفارِه من القصور، ومشيت في الغريب العجيب من الديار في أركان الأرض الأربعة، وشاهدت من البلدان من لم يشاهده غيري إلا القليل من الناس، وركبت متن الهواء، وغصت بطن البحار، وقطّعت الفيافي والمروج والثلوج والسفوح والوهاد والقفار صيدًا ونزهة واكتشافًا وانتجاعًا، وسبحت في عرض الأنهار والبرك والبحار، وترأَّسْتُ الناس وسُدْتُهم، وصار لي جاه بينهم، واسترسلت مع نفسي في كل ما هويته، فوطئت من النساء بالحلال والحرام ما يزيد على الخمسين ولا أبعدُ إن قلت: المئة! وشربتُ من الخمور فاخرها ونادرها وجديدها ومُعتّقها بأنواعها ـ وسَمَّى خمورًا ـ وعببتُ منها عبّ العطشان بل الشيطان الذي لا يرتوي من آخر شربة! وشربت حتى غبت عن وعيي مرارًا، وتقيأته مرارًا، وفعلت في سُكري مالا يفعله سوى المجانين، ولا عجب فالسكر جنون باختيار.

ولم أقف عند هذا المجون الخالع، إذ لم أجد ما أبحث عنه من هناء وسعادة

بقضاء وطر النفس الأمارة، فأكلت المخدرات والمفتِّرات وشربتها، من الدخان للهيروين والكوكايين، مرورًا بالحشيش والأفيون والكبتاجون وغيرها، وحشرتُ عقلي في ركنٍ صغيرٍ من دماغي، حتى تجَشَّأَ قلبي لذائذَهُ المُتْرَعة بالجنون، ولَسَعَاتُ عقارب الشيطان لا تبرح عن ذلك القلب المُضْنَى بالخطايا، تحاول إطفاء آخر قَبَسٍ من نور الهُدَى بين أشلاء فؤاده المُعَنَّى في ظلامه، المتشحِّط في بلائه، ثم كان ماذا؟!

لقد عدتُ بالخيبة والتَّباب! فقد رجعت من أقصى حدِّ شهوات العالمين خائبًا حسيرًا، فوَعِزَّةِ ربي لم ألتذّ بشيء من ذلك لذةً حقيقية، فمع تلبّس الجسد لتلك الشهوة طلبًا للمتعة؛ إلا أنه كمن يلبس قميصًا ليس له، أو قُلْ سِربالًا من قَطِرَانٍ مغليّ! ويأكل طعامًا بلا طعم ولا لون ولا رائحة، أو قُلْ طعامًا بشعًا مسمومًا لا تُسيغه حتى الحشرات! وأقرب ما يكون لتلك اللذة المتوهّمة الأحلام، ولا أدري كيف استزلّني وهْمُ (الدوبامين) الغبي مع علمي بعَظَمَةَ من عصيت! فاللهم رحمةً وغُفْرًا.

وهذا كله مع وجود أشياء أُشَبِّهُها بحسَكَةٍ في صدري على الدوام، ودبّوسٍ في قلبي لا يزول، ووتَدٍ في فؤادي لا يحول، ومسمارٍ مُحْمًى في عيني، وشَوْكٍ مشتبكٌ في روحي، فلا أهنأ بليل، ولا أسعد بنهار، فلا ليلي ليل السعداء، ولا نهاري نهارهم، ولا نومي ويقظتي، وظَعَنِي وإقامتي، وخُلطتي وانعزالي كسائر أهل السرور والراحة والسكينة، كأنّما قُرن بي شيطان يُعذَّبُ في جهنّم، أسمع صراخه اليائس في أُذني، وأنفاسه الحَرَّى في وجهي، ورائحة



جسده المحترق في أنفي، وروحه البائسة تصيحُ بي، فكيف الهناء مع هذا الجحيم، عياذًا بالله الرحمن الرحيم؟!

إذا الحيـــاة لغـــيرِ اللهِ وِجْهَتَهـــا فَطُولُهـا في صـميم الأمـرِ نُقْصَـان
فَـدَربُها ضَـيْعَةٌ تُفْضِـي لِمَهْلَكَـةٍ وزادُهَـا عَلْقَـمٌ سُـمٌّ لِمَـنْ خَـانُوا
فَعِـشْ إذَا شِـئْتَ أو فَلْتَمُـتْ كَمَـدًا فَـالمَوتُ والعيشُ بعـد اليوم سِيّانُ!

وكلّما صَرَخَت بي نفسي ضيقًا، وصاح بي رُشدي نُصحًا، وصوّت عقلي بي خوفًا وحَدَبًا وإشفاقًا وحُبًّا؛ ألْويتُ عن ناصحهم الأمين إلى تزيين القرين الرجيم، فبحثتُ لاهثًا عَجِلًا عن لذة جديدة، فألحقت جديد الهوى بالتليد، وداويتُها بدائها، وزدتُّ جرعة المعصية كمًّا وكيفًا، والعجب أنه كلما ازددت وُغولًا فيها وانغماسًا في وُحولها ازدادت تعاستي وكآبتي وشقائي وضيق صدري، كالعطشان الذي يشرب البحر فيزداد عطشًا، وكالمستغيث من الرمضاء بالنار، وبين يديه واحة باردة لو كان يعقل!

ولرُبّما ضحكتُ حينها بملء شِدقي، وقهقهت من أقصى لهاتي حتى أذرف الدمع وأسقط على ظهري، والله يعلم أني أبكي من داخلي بدموع يذرفها الفؤاد المكلوم بخزي الخطيئة! ولِقلبي بين حنايا الأضلاع عويلٌ يبزُّ نواح الثكالى وبكاء الأيتام! فصرتُ كالمهرول عن سروره، والمدبر مسرعًا عن هنائه، والمعرض عن أسباب فلاحه، وكلما هجم بي خاطر التوبة حاصرته الأماني والتسويف والوعود حتى تصرّم كثير من جيلي، ومات أعزَّاءُ مِن لِدَاتِي، وغزت أمداد المشيب رأسي، فجلّلت بالبياض ناصيتي وَفُودَيّ، وقد

رأيت كثيرَهم صرعى بلا توبة مع تحدُّثِهم بأمنيتهم لها وقت العافية، فأيقنت ألا مفر من الله إلا إليه، ولا مهرب منه إلا له، وأنه لم يَعِدْني بإمهالٍ دائم، فلربما فَجَأَنِي الحق من لدنه، وعاجلني هاذم اللذات مِن قِبَله، فسلب روحي قبل التوبة، وزارني ملك الموت قبل الأوبة، فرحلت لربي ثقيل الحوبة! ويارب هل إلا إليك متابي.

بعدها: أيقنت أن اللذة ليست كالسعادة، فالسعادة نعيم القلب، وهناء الروح، وراحة الصدر، ومجمّة الفؤاد، أما اللّذة فعارضٌ سريع الزوال، وظلٌّ عجل الأفول، ثم إنّ مأوى اللذة ومحلها هو ذيّاك الجسد الفاني لا الروح التي لا قوام لها إلا بالسعادة، فالسعادة فرح وسرور وسكينة روحية عقلية، أما اللذة فشعور جسدي سريع بالنشوة عما قريب يزول، ولربما انقلب بؤسًا وتعاسة، وبخاصة إن كان في غير مرضاة الله تعالى، فلا سعادة إلا مع الإيمان، وواهًا لمن جمعهما، وهل هذا إلا في الجنة على الكمال، ولكن الكريم الرحيم قد لطف بعباده، وتكرّم على أوليائه، فأورد قلوبهم أشياء من رقائق الآخرة، وألطاف الجنة، وسرور المعاد، كيما يبقوا على العهد ثابتين، وباليقين عن مراقد الغفلات مُبارحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

لقد أنعم الله علي بطوق نجاتي، وهي التوبة، أسأل الله التواب أن تكون نصوحًا، وأن يوفقني للباقيات الصالحات، وأن يُسبل علي رحمته ومغفرته ورضوانه، ولقد وجدت - والذي نفسي بيده - سعادتي، وانشراح صدري، وهناء عيشي، وقرة عيني، وراحة فؤادي، وأَمْنَ نفسي، وسكينة بالي في طاعة

الله تعالى، والبعد عن معصيته.

وإن رُمتَ أجمل لحظة في حياتي فهي أن أرفع يدي لله العليّ، أو أسجد له وأنا تائب له منكسر مفتقر، متّكئٌ على مَنْسَأةِ الضراعةِ نادمٌ وبالذنبِ مُقرّ، جاثٍ بين يديه، خاشعٌ لجنابه، خاضعٌ لعظمته، منتظرٌ جودَه وكرمَه وإحسانه وعفوه ومغفرته ورحمته وهِبَاتِه، مستندٌ على جدار حسنِ ظني به، فهو عند ظن عبده به، خائف مشفق وَجِلٌ راهبٌ منه، هاربٌ منه إليه، لا أعلم أني في حال سجودي ذلك مصرٌّ على معصية، أو مُتنكِّبٌ عن واجب أطيقه، فلا تسل ـ يا صاحبي ـ عن سعادتي حينها، فوالله لو جمعت لي متع الدنيا ما ساوت بجانب حلاوة الإيمان ولذة الطاعة وراحة الهداية وسعادة الاستقامة قُلامةَ ظفر! فلله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه وكريم نواله وسابغ نعمائه.

لَهفِي على عمْرٍ تَقَضَّى غافلًا ... وتركتُ للنفس السفيهة غارِبي
يا صاحبي إن جُزتَ قبرِيَ هائمًا ... فانصحْ لنفسك واعتبر بتجاربي

وبعد؛ فأَحْمَدُ الله تعالى إليك ـ أيها القارئ الكريم ـ أن مدّ في أجلك حتى اليوم، ومتّعك بعُمُرك حتى الساعة، حتى تتأمل حال أولئك ممن كانوا مِلْءَ بصرِ الدنيا وسمعها، فظعنوا عنها للآخرة، كيف حالهم؟!

وتفكر الآن في حال أحدٍ من كنت تعرفهم، وتحبهم، وتعاشرهم، ممن رحلوا لربهم. تأمل حاله وقد أكل الثرى عظامَه، وقطّعت الأرض أوصاله، وفرّق توالي الزمان نظامه، وأذهبت الليالي نضارته وغضاضته وجماله، وأبقى

كرُّ الجديدين بين الناس ذكره وأحواله، فسبحان الحي القيوم الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نماذج وأمثلة من سادة المتعلقين بالحي القيوم سبحانه

سيّد المتعلقين بالله هو نبيه ورسوله محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وكل حياته بإطلاق حتى لحوقه بالرفيق الأعلى هي صور ونماذج صالحة حسنة جميلة كاملة لتمام التعلق بالله تعالى دون سواه، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

وتأمل سيرته العطرة الزكية، التي يفوح من أردانها أطيب عبق، ويضوع من تذكارها أطيب أريج، وينطبع على خياشيم القلب من تقليبها أنفحُ مِسك، فهو الأنموذج الكامل والجادّة الهادية والصراط المستقيم لمن رام حقيقة التعلق بالله تعالى. لا جَرَمَ؛ فهو مصطفى رب العالمين.

وتأمل مليًّا حاله الزاكي حين فَجَأه الوحيُ وهو في الغار، وقد كان هو المسلم الوحيد على الأرض - مع بقايا موحدين - فحمل العبء الثقيل والمهمة الجسيمة لوحده متعلقًا بربه سبحانه، ثم دعا الناس شيئًا فشيئًا معلِّقًا قلوبهم بربهم، وقد تحمّل في ذات الله ما لا يطيقه إلا من كمل تعلقه بالله تعالى، وكلما ازداد كيد الكافرين ازدان سموًّا ورفعة ونقاءً وإشراقًا وتعلّقًا بربه الأجلّ، فكان التوفيق في معيته، لا يفارقه أينما حل وارتحل، فالله لا يخيب رجاء من تعلق به، كيف والمتعلق هو أحب خلائقه إليه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ومن ذلك ليلة الغار، فحينما هجم المشركون على جبل ثور يحثّون الخُطَا

ويرقلون الأقدام في البحث الدقيق عنه وعن صاحبه، وقد وضعوا دية كل منهما - أو تزيد - مكافأة لمن يدل عليهما، وأوشكوا على رؤيتهما والفتك بهما؛ هناك تجلّى التعلق النبوي بمن بيده مقاليد السماوات والأرض، وتصاريف الأمور، ونهايات الأشياء، وقد خلّد الله تعالى هذا التعلق والتوحيد في محكم التنزيل فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

«يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أي: عام الهجرة، لما همّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هاربًا صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام حتى يرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ومن بعد ذلك يكون المسير المبارك والهجرة الطيبة نحو طَيبة.

فجعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجزع أن يطّلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يُسكّنه ويثبّته ويقول: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين اللهُ ثالثهما؟!**» كما قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، أنبأنا ثابت، عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا

بكر، ما ظنّك باثنين اللهُ ثالثُهما؟!»[١].

وفي بدر نام صحابته الأكارم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وأرضاهم، إلّا هو عليه الصلاة والسلام فقد بات تلك الليلة يصلي إلى جذع شجرة، ويكثر في سجوده أن يقول: «**يا حيُّ يا قيوم**» يكرر ذلك ﷺ ويسأل الله النصر[٢]، وحين رأى رسول الله جند قريش قال: «**اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك، وتُكذِّب رسولَك، اللّهم أَحْنِهِمُ الغَدَاةَ**»[٣].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لمَّا كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمئة ونيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثمَّ قال: «**اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا**». قال عمر بن الخطاب: فما زال يستغيث ربَّه ويدعوه، حتَّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرَدَّاه، ثمَّ التزمه من ورائه، ثمَّ قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنَّه منجز لك ما وعدك»[٤][٥].

---

(١) المسند (١/٤) والبخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) البداية والنهاية (٥/٨٢).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٦٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/٣١،٣٠) (٢٠٨) وقال أحمد شاكر:سنده صحيح، ورواه مسلم (١٧٦٣)، وأصله في البخاري، وانظر جامع الأصول (٨/١٨٣).

(٥) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (٦٧ / ٤٥١) بتصرف يسير.

وقد يظن من لا فقه له أن رسول الله قصَر في هذا المقام عن الصدّيق الذي يثبّته ويذكّره، وهذا باطل، فرسول الله ﷺ قد وفّى هنا مقامات العبودية كلها، فكان واثقًا بوعد الله ونصره وتمكينه، وكذلك لاهجًا بالدعاء والابتهال والضراعة والمسكنة والافتقار إلى الله تعالى، وصدق اللجأ إليه، وتكرار الاستغاثة به إلحاحًا مُحبَّبًا للرب العظيم الرحيم الكريم، فلا تعارض بين الحالين بل الكمال في اجتماعهما، وقد ظهر الحالُ الأوّلُ في الصديق، أما رسول الله ﷺ فقد ظهر فيه الأمران بكمال الظهور والوضوح والكمال والجمال على التمام، فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا العبد الرسول.

«وقد وصف الله سبحانه حال رسوله العظيم وصحابته الكرام في غزوة بدر بأنهم كثيري الاستغاثة به، ومكثري رجائه ودعاءه فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأين نحن من الاقتداء برسول الله وصحابته بالدعاء للمجاهدين بالنصر، وخذلان عدوهم؟!

وعليه؛ فإنَّ مما نستفيده من ذلك أنَّه في حالة نشوب الحرب، وقيام المعركة، واضطرام القتال؛ أن نرفع أكف الضراعة والاستغاثة بالله، حتى يستجيب سبحانه لنا فيقهر عدونا، ويخذل محاربنا، ويمدّنا بمددٍ من عنده كما أمد رسول الله وصحابته بجند من عنده من الملائكة المرسلين حين دعوه في غزوة بدر، فانخلعت قلوب الكافرين، وفروا خاسرين، وتم بفضله تعالى النصر المبين.

لهذا كان الدعاء في الغزو مرتبط ارتباطًا وثيقًا مع المجاهدين في أرض المعركة، وقد بوَّب الإمام الترمذي في جامعه: (باب في الدعاء إذا غزا) وأورد تحته ما رواه أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: «**اللّٰهم أنتَ عَضُدِي، وأنت نَصِيرِي، وبك أقاتل**»[١].

وهنا وقفة لابد منها؛ وهي أنه حين تدك بلاد الإسلام بالراجمات، وتقذف بالقنابل، يهرع الكثير من المسلمين إلى شاشات التلفاز، ليروا أثر المعركة، ويستمعوا الأخبار، حتى يعلموا ماذا حلَّ في تلك البلاد.

وهذا الأمر وإن كان هامًّا؛ لأنَّ فيه الاهتمام بأخبار المسلمين، إلاّ أن المداومة على ذلك، لا يفيد إلاّ كثرة الهم والغم والحزن، والذي لا ينفع ولا يصنع شيئًا، والرأي الوجيه لمن قعد عن الجهاد للظروف المحيطة به، أن يوظِّف ذلك الحدث توظيفًا إيجابيًا، ومن أَولى الأمور اللجوء إلى محراب العبودية، والانكسار بين يدي ربِّ البرية، والتضرع والبكاء والقنوت والابتهال، ورجاء ودعاء رب الأرباب ومسبب الأسباب أن يكف شرَّ الكافرين، وأن ينصر عباده المجاهدين، وأن يخذل المنافقين وعملاء الكافرين.

تلك والله سمة المؤمن، وشيمة الموحد، وهو أكبر دليل على صدق ما في قلبه من الحب لإخوانه المؤمنين، وحمل همِّهم، ويؤكَّد على من حضر المعركة الإلحاح في دعاء الله بالنصر والتمكين للمؤمنين، فللدعاء في ذلك الحال

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٣٥٨٤) وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٣٦).

خاصية عجيبة في الاستجابة والقرب من الحي القيوم سبحانه، فقد قال النبي ﷺ: «**ثنتان لا تردان أو قلَّما تردَّان: الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يُلْحِمُ بعضهم بعضًا**» أي: حين تشتبك الحرب بينهم(١).

ولقد عاب الله أقوامًا نزلت بهم المصائب والبأساء، فأعرضوا عن ربهم، ولم يدعوه لكشف ضرهم، فلم يرفع عنهم تلك النازلة، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام:٤٢، ٤٣] أي: فلو أنهم ضرعوا إلى الله، واستغاثوا به، ولجأوا إليه، وتابوا؛ لرفع الله عنهم البأساء، وأنزل عليهم العافية، ولكنهم نسوه فنسيهم، وخذلهم، وقطع عنهم مادة التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٧٦] فصار المصير إلى أن نعلم علم اليقين، أنَّ من أوجب الواجبات في زمن الكوارث والملمات؛ رفع اليدين بالدعاء لله رب العالمين، فلعل ذلك الدعاء من أكف بيضاء نقية، وقلوب صادقة وفيَّة، وأعين باكية تقيَّة؛ تخفف من تلك المآسي التي أقلقت المسلمين وأقضَّت مضاجعهم، وقد علَّمنا رسول

---

(١) أخرجه أبو داود، وقال الحافظ في النتائج (٣٧٨/١):حديث حسن صحيح، وصححه النووي في الأذكار (٥٧. ٢٦٧) وقال الألباني في (الكلم الطيب): حسن صحيح (٧٦).

الله ﷺ أنَّه «**لا يردَّ القضاء إلاّ الدعاء**»[١] وأخبرنا بأنَّه «**لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما قد نزل ومما لم ينزل، وإنَّ البلاء ينزل فيتلقاه الدعاء، فيعتلجان**[٢] **إلى يوم القيامة**»[٣].

ولهذا كان الدعاء من أسباب النصر على الأعداء، وخاصَّة إذا كان ذلك من عباد الله الضعفاء، وقد دلَّ على ذلك حديث رسول الله ﷺ: «**إنما ينصر الله هذه الأمَّة بضعيفها؛ بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**»[٤].

فأين نحن يا أخا الإسلام عن ذلك السلاح العظيم، والحِرْزِ القويم، والكنز المُغني والمُنجي لنا بإذن الله تعالى من بطش الأعداء؟! وأين الإلحاح على الله بأن يكشف الضر عن المسلمين؟! وأين الانطراح بين يديه؟! وأين التوجه إليه والتعلق به؟!

وإنِّي لأدعـــو الله والأمـــر ضـــيِّق   عـــليَّ فـــما ينفـــكُّ أن يتفرَّجَـــا

---

(١) أخرجه الترمذي(١٣٩)، وقال: حسن غريب، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٨٧).

(٢) الاعتلاج: الاقتتال والاصطراع والتدافع، والأقرب لسياق الحديث أنه التدافع، والله أعلم.

(٣) أخرجه الترمذي وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي(٢٨١٣) زاد الحاكم بسندٍ لا بأس به: «**فعليكم عباد الله بالدعاء**».

(٤) أخرجه النسائي وصححه الألباني في صحيح النسائي (٢٩٧٨). وانظر مقال: سلاح غفل عنه الكثير في نصرة المجاهدين. لخباب الحمد على موقع صيد الفوائد.

وربَّ فتـى ضـاقت عليـه همومُـه أصـاب لـه في دعـوة الله مخرجَـا

ومَن تدبّر سير أنبياء الله ورسله انتهى إلى سر توفيقهم؛ وهو توحيد التعلق بالله تعالى، فإحسان العبودية هو بإحسان التعلق، وعلى قدر التعلق بالله يكون تحقيق التوحيد.

فنوحٌ عليه السلام أعرض عن أسباب أهل الأرض والتوى بحبل الله وتعلق به؛ فكان الفوز والظفر والتمكين في الدارين له، ولما ضاقت فجاج الأرض وأسرابها وأطباق السماء وهوائها عن منفذ لمشرك وكافر حين غطت أمواج البحار رؤوس الجبال وصبت السماء بسيولها ودرت بأمواجها جعل الله للمتقين المتعلقين منها فرجًا ومخرجًا ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وحينما تعلق هود عليه السلام بربه واستغاثه من كربه نصره الله بريح اجتاحت أعداءه حتى اجتالت حياتهم وسحقت هامهم.

وثمود حين أرادوا بصالح عليه السلام شرًّا نصره بصيحة جبرائيل ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] فبعدما كانوا سادة جبارين أضحوا كزرع يابس داسته البهائم في حظائرها! ولله الأمر من قبل ومن بعد، وهنيئا وبشارة لمن كانوا بربهم متعلقين.

ومن سادة المتوكلين شعيب خطيب الأنبياء عليه السلام فحينما رتعت نفوس المشركين في حمأة الشرك وضَلال الوثنية؛ صاح بهم ليتعلقوا بالله تعالى وحده دون سواه، وأطال خطابهم وحجاجهم لعلهم يهتدون، وبربهم دون غيره يتعلقون، وكان مما قاله لهم ـ وتأمل الصدق والنصح والرفق والحرارة ورسوخ التعلق بالله تعالى ـ: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ

عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩] فكان التمكين والنصر والظفر والغلبة له ولمن تبعه بإحسان، والتباب والخسار والعطب والهلاك لأعدائه ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١- ٩٢]. وفي هذا مُعتَبرلكل ذي حِجَى: أنّ معيار التوفيق بصدق التعلق، وتلك سنة الله التي لا تتأخّر ولا تتبدل ولا تتحول.

وحينما ألقى الكفرة خليل الرحمن في النار ظهر صدق تعلقه بالواحد الأحد وقال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**»[1] وكذلك قالها ابنه محمد صلى الله عليهما وسلم حينما همّت قريش باستئصاله والمسلمين بعد أحد، فكانت العاقبة لهما خير الدنيا والآخرة، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣١] كفى به هادٍ يهدي قلبك لما يرضيه، ويُرشد لسانك لما يُحبّه، ويوفّق جوارحك لمراضيه، وكفى به ناصرًا لك على كل من أراد بك شرًّا من إنس وجانّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: ٣٨] فمن حقق صدق التعلق فهو حقيق بدفاع رب العالمين عنه، وكفى بذلك فلاحًا ونصرًا وفوزًا ورفعة، فلا نامت أعين الجبناء، ولا رقّت جلود الجبابرة، ولا سكنت نفوس الظّالمين، ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه.

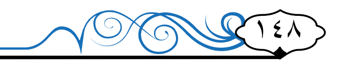
---

(١) البخاري (٤٥٦٤) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولوطٌ عليه السلام حينما تعلق به وحده أمدّه الله بمدد من السماء، فأمر سيدَ الملائكة جبرئيل عليه السلام أن يرفع ديارهم ثم يقلبها على أُمِّ رؤسهم لمّا قلبوا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فلما كفروا وفَحَشُوا جعل عالي قراهم سافلها، ثم أمطرهم بحجارة من سجيل منضود، ومَن فعل فعلهم فهو حقيق بمثل عذابهم، وتأمل آخر تنبيه وزجر في قصتهم، فما أشدّ عذاب الجبار جل جلاله، نسأله تعالى السلامة والعافية من أعمالِ الفاسقين ومصارعِ الكافرين ومُنقلَبِ أولياء الشياطين.

وحينما ارتعدت أقدام قوم موسى بين البحر الهائج والجيش اللجب الغاضب صرّحوا بما خافوه فقالوا ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولكن هيهات أن يخذل الله جنده وفيهم كليمه ومصطفاه ووجيهُه موسى ﷺ، فقد ثبّته الله تعالى وأرسخ يقينه وقوّى عزمه وشدَّ أزره فقال بكل إيمان وثقة ويقين وتوكّلٍ وصدقِ تعلّقٍ ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١- ٦٢] تالله إنه موقف بأُمَّة، وكلمة تغني عن معركة، وموقف يعلو ما سواه، فكان النصر حليفه، والظفر رفيقه، والفرج في معيته، والعِزُّ تاجُه. فآل أمره وأصحابه وأمر عدوهم إلى ما قصَّ الله علينا في القرآن العظيم، وهنيئًا لمن كان برب العالمين متعلّقًا.

ومن المتعلقين بالله تعالى طالوت الذي خلّد الله ذكره في التنزيل، ومدحه وجنده لتعلقهم به فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠] وبعد هذا الدعاء، كان الجواب من الله الغالبِ القويِّ العزيز:

﴿ 

﴾ [البقرة: ٢٥١] وكان النصر حليفهم حين دعوا الله تعالى وتوكلوا عليه ووحّدوه.

ومن سادة المتعلقين بربهم الغلام التقي من أصحاب الأخدود، «فهو الغلام المؤمن صاحب الملك الكافر حين اكتشف أمره، وعلم أنه موحّد؛ أراد أن يفتنه عن دينه، ويخيفه بجنده ولكن هيهات فإنَّ مع الغلام سلاحًا لا ينفد، وكنزًا لن يفقد؛ إنَّه التعلق بالله ودعاؤه، فحين أراد جنود هذا الطاغية، أن يلقوه من فوق الجبل إلى هاويته، نطق الغلام بكل مسكنة وتعلق وافتقار للملك القهار: «**اللّٰهم اكفنيهم بما شئت**»(١)، فسقط الجنود من فوق الجبل وكانوا في الهاوية، بل في القاع، ويمضي ذلك الغلام شامخًا بإيمانه إلى الملك الكافر، ليعلمه دروسًا في التوحيد من التوكل على الله والتعلق به دون سواه، والاستعانة به، وعدم الخوف إلا منه إلى غير ذلك، لكن الطغاة متكبرون، ولا يسمعون داعي الإيمان، فما كان من ذلك الملك إلاّ أن أمر جنده بأن يذهبوا بذلك الغلام في إحدى السفن فإذا توسطت السفينة في البحر، ألقى الجنود ذلك الغلام ليتخلصوا منه، وحين أرادوا أن يفعلوا ذلك بعد أن توسطت بهم السفينة في البحر، إلاّ ويطلق الغلام سلاحه على أعدائه: «**اللّٰهم اكفنيهم بما شئت**»، واستجاب الله الدعاء، وقلب السفينة بمن فيها من جند الطاغوت، ونجا ذلك الغلام المؤمن من مكر الكافرين، والقصَّة معروفة، ومن أراد المزيد فليقرأ تفاسير العلماء لسورة البروج.

---

(١) مسلم (٣٠٠٥).

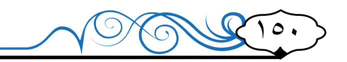
وهذا المثنَّى بن حارثة الشيباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقعة البويب في السنة الثالثة عشرة من الهجرة يدعوا له المسلمون، والجند المقاتلون، بأن ينصره الله على أعدائه، ويكفيه شرهم، ويضربون أروع أمثلة التعلق برب العالمين(١).

وتأمل قصة النعمان بن مقرّن المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سنة إحدى وعشرين، فبعد أن تحصن الفرس بخنادقهم، وطال حصار المسلمين لهم، استشار النعمان قادته، فأشاروا عليه باستدراج الفرس والتظاهر بالهروب حتَّى إذا ابتعد الجند عن حصونهم وخنادقهم هجموا عليهم، ووافق النعمان على الخطة، وقال لهم: إني مكبر ثلاثًا فإذا كان الثالثة فابدؤوا بالقتال، وهنا لم ينس النعمان ضرورة إحسان التعلق بالله، فدعا ربه وعزم على المسلمين بالتأمين على دعائه: «اللّٰهم أعزّ دينك، وانصر عبادك، اللّٰهم إني أسألك أن تقرّ عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيدًا»، وبكى الناس مع النعمان وأمّنوا على دعائه وابتهلوا إلى الله وتضرعوا، واستجاب الله دعاءهم فنصرهم على عدوهم نصرًا عظيمًا، واستجاب الله دعاء النعمان بن مقرّن، فكان أول قتيل من المسلمين على أرض المعركة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢). ورضي عن جميع صحابة رسول الله، الذي رباهم بسجاياه الشريفة، وبمسيرته المباركة فكان نتاجه عظيمًا، وتربيته قديرة، فصلى الله عليه صلاة دائمة تتعاقب بتعاقب الليل والنهار وسلم تسليمًا.

---

(١) انظر: معارك المسلمين في رمضان د. عبدالعزيز العبيدي (٣٤-٣٨).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٨٩) (إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء للخضري (٩٥-٩٦).



وهكـذا يفعـلُ الأبطـالُ إن غضبوا   وهكـذا يعصـفُ التوحيـدُ بـالوثنِ

وانظر تعلق حبيب بن مسلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بالله حين أُمِّر على جيش، فلمَّا أتى العدو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يجتمع قوم فيدعو بعضهم ويؤمِّن بعضهم إلا أجابهم الله تعالى**» ثمَّ إنَّه حمد الله وأثنى عليه، وقال: «اللّٰهم احقن دماءنا، واجعل أجورنا أجور الشهداء» فبينما هم كذلك إذ نزل أمير العدو، فدخل على حبيب بن مسلمة سُرَادقَه، وسلَّم إليه بدون حرب»[١].

وأنعم النظر في قصَّة قتيبة بن مسلم الباهلي مع محمد بن واسع رحمهما الله تعالى، فقد ذكر ابن الجوزي[٢] أنَّ محمد بن واسع كان مع قتيبة بن مسلم في معركته، وقد كان قتيبة بن مسلم صاحب خراسان، وكانت الترك قد خرجت إليهم، فبعث قتيبة إلى المسجد لينظر من فيه، فقيل له: ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعًا إصبعه، فقال قتيبة: إصبعه تلك أحبُّ إلي من ثلاثين ألف شاب طرير. وفي رواية[٣] قال قتيبة بن مسلم: تلك الإصبع أحب إلي من مئة ألف سيف شهير وشاب طرير. وهذا من تقديرهم للتعلق بمن بيده تصاريف الأمور.

إليــكَ وإلاّ لا تُشَــدُّ الركائــبُ   ومنــكَ وإلا فالمؤمِّــلُ خائــبُ

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١١٣/٧) والطبراني (٣٥٣٦) وحسنه المنذري في الترغيب (٢٤٠/١) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٥٩٦٨)، وللمزيد انظر: التحفة المستطابة لرشيد الراشد (٧٨٧٧).

(٢) صفة الصفوة (١٣٦/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢١/٦).

وفيـــكَ وإلا فالرجـــاءُ مُضَـــيَّعٌ وعنـــكَ وإلا فالمُحـــدِّثُ كـــاذبُ

لقد كان تعلق المؤمنين بربهم واستغاثتهم به أعظم أسباب النصر وأقرب حبال الظفر، وتأمل ما قاله أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان في قتاله للفرس: «إنَّه بلغني أنَّ العبد أقرب ما يكون إلى الله إذا وضع جبهته لله، وإنِّي نازل وواضع جبهتي، فادْعُوا الله، واسجدوا لربكم، وأخلصوا له الدعاء، ففعلوا، ثمَّ رفعوا رؤوسهم، وهم لا يشكُّون في الفتح»(١).

وهكذا كان عقبة بن نافع ـ وقد ذكروا أنه كان مستجاب الدعوة ـ وكان يتوجه إلى الله بالدعاء عند الشروع في معاركه، ويصادم العدو في شجاعة مذهلة، كما ذكره عنه أهل السير، ثمَّ يكتب الله له النصر المبين(٢).

وهكذا يمضي جنود الإسلام، وتسير قوافل المجاهدين المتعلقين بالله رب العالمين، فهذا الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبدالملك الحنفي يقول لألب أرسلان في موقعة (ملاذكرد) بعد أن رأى كثرة جيش الروم والتي قُدِّرت بمئتي ألف مقاتل: «إنَّك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره، وأرجو أن يكون الله قد كتبه لك بجيشك القليل شرف النصر، فسر إلى العدو الكافر يوم الجمعة، بعد الزوال، والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر والله غالب على أمره»، وتمَّ ذلك عند ظهيرة يوم الجمعة من صيف أربعمئة

(١) تاريخ الطبري (١١٩/٧).
(٢) أبطال ومواقف (١٨٧).

وثلاث وستين للهجرة، فقد صلَّى وبكى فبكى الناس لبكائه، ودعا الله فدعا الناس بدعائه، وعفَّر وجهه بالتراب ثمَّ ركب وقال للناس: «ليس عليكم الآن أمير وكلكم أمير نفسه، من شاء أن ينصرف فليعد إلى أهله»، ولبس البياض وتحنَّط، وحمل بجيشه حملة صادقة، فوقعوا في وسط العدو يقتلون ما يشاؤون، وثبت العسكر، ونزل النصر، وولّت الروم، واستحر بهم القتل، وقتل طاغيتهم أرمانوس، بعد أن أسره مملوك وسار به ذليلًا ليُقتل على الشرك. والمتعلق بالله تعالى عمله صالح، وقد جاء عن الصحابة وصيتهم للمجاهدين بذلك، كما قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنما تقاتلون بأعمالكم» (١).

وانظر ـ أخي الموفق ـ في حال نور الدين محمود في فتح حارم سنة٥٥٩هـ وقد انفرد لربه عن أصحابه تحت تلٍّ حينما التقى الجمعان، وسجد لربه عزَّ وجل ومرَّغ وجهه وتضرَّع، وقال: «هؤلاء يا رب عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك» ففتح الله على يديه فتحًا عظيمًا(٢).

ومتِّعْ عينيك وافسحْ صدرَك وأبهج مهجتك بقصَّة المجاهد صلاح الدين محرر القدس من الصليبيين ـ بعث الله في الأمة من يحرّرها من رجس يهود ـ فقد جمع صلاح الدين الجموع المؤمنة، ونظَّم الجيوش، ثمَّ عقد مجلس شوراه

(١) انظر: السير (١٨/ ٤١٤،٤١٦) والبداية والنهاية (١٢/ ٩١). وأثر أبي الدرداء عند البخاري (٦/ ٢٤) في صحيحه.

(٢) معارك المسلمين في رمضان، د. عبدالعزيز العبيدي (٦٥).

للتشاور في منازلة العدو، وتوقيت المعركة فاتفقوا على الخروج في ١٧/ ربيع الآخر عام ٥٨٣هـ بعد صلاة الجمعة، وبين تكبير المسلمين وابتهالهم وتضرعهم بالدعاء[١]. قال لقاضي ابن شدَّاد: «وكان صلاح الدين إذا سمع أنَّ العدو قد داهم المسلمين خرَّ إلى الأرض ساجدًا لله، داعيًا بهذا الدعاء: «اللَّهم قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك، ولم يبق إلا الإخلادُ إليك، والاعتصام بحبلك، والاعتماد على فضلك، أنت حسبي ونعم الوكيل». ويقول: «ورأيته ساجدًا ودموعه تتقاطر على شيبته، ثمَّ على سجَّادته، ولا أسمع ما يقول، ولم ينقض ذلك اليوم إلاّ ويأتيه أخبار النصر على الأعداء، وكان أبدًا يقصد بوَقَفَاته[٢] الجُمَع، سيّما أوقات صلاة الجمعة تبركًا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الاستجابة»[٣].

وانظر ماذا كان يفعل المظفر قطز في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ) وهو يحمِّس المجاهدين ويصيح: وا إسلاماه! وا إسلاماه! ويسجد ويعفِّر وجهه في التراب ويقول: يا الله؛ انصر عبدك قطز[٤].

وقال ابن كثير في البداية والنهاية[٥] عن قطز: «ولمَّا رأى عصائب التتار،

(١) صلاح الدين الأيوبي، د. عبدالله ناصح علوان (٦٧).
(٢) أي: معاركه وزحوفه.
(٣) سيرة صلاح الدين الأيوبي للقاضي ابن شدَّاد رحمهما الله (٨ وما بعدها).
(٤) معارك المسلمين في رمضان للعبيدي (٧١).
(٥) (١٣/ ١٨٨).

قال للأمراء والجيوش: لا تقاتلوهم حتَّى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء في صلاتهم». واستجاب الله دعاءه، وهزم المغول، ووقعوا بين يديه ما بين قتيل وجريح وأسير، بل وقع بين يديه قائد المغول فقتله.

أمَّا محمد الفاتح فقد دخل المسجد فوجد شيخه ومعلمه ومربيه آق شمس الدين منطرحًا بين يدي ربه، مستغرقًا بالدعاء، فاستبشر خيرًا بالنصر، وحين كان المجاهدون يهيئون للمعركة عدتها كان هتافهم: يا الله، يا الله، ولمَّا فتحت القسطنطينية رآه الناس وهو يمرِّغ وجهه في التراب تواضعًا لله، والمؤمنون يهنئونه بالنصر، وهو لا يزيد على أن يقول: النصر من عند الله، النصر من عند الله[1].

هكذا ـ يا أخا الإيمان ـ عرف هؤلاء البواسل المتعلقين بالله دربهم، فساروا إلى ساح الجهاد، ومُعترك الوغى، ففتح الله بهم الفتوحات، وغيّر بصدق جهادهم مجرى التاريخ لصالح أمة الإسلام الخالدة الحامدة الموعودة بالنصر والتمكين والرفعة والسناء، وأكثروا الدعاء لربهم، والاستغاثة بمعبودهم، حتى خطَّ الله لهم طريق النصر المبين، والعز والتمكين»[2]. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

❁❁❁❁

(١) أبطال ومواقف (٤٥٠.٤٥١) بتصرف يسير.

(٢) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (٦٧ - ٦٩/ ٤٥٤) عن موقع المسلم بتصرف واختصار وزيادات.

طرق تحصيل التعلق بالله تعالى وتثبيته وزيادته

أمرٌ هذا شأنه حقيقٌ بأن يُعتنى به غاية العناية، وتُقبض على الأُهْبَةِ له الخناصر، وتشدّ لتحصيله أوتادُ القلوب، ويُلَحّ لأجلِ الغنيمةِ به على علَّامِ الغيوب، فقد فاز عند الله المُتعلِّقُون، ووصل لدار كرامته المحسنون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، والبرِّ الكبير، والكرم الواسع، والآلاء التي لا تُحصى، تبارك وتعالى. فمن طرق تحصيله بعون الله تعالى وتوفيقه:

أولًا: العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فالعلم بالله يغرس في القلب عظمة ربه وسعة ملكة وتمام إحاطته وكمال قدرته، فالقلب العليم بأسماء الله تعالى وأوصافه المجيدة متعلق بربه تمام التعلق، فإن غفل عن ذلك لضعفه البشري فإنه يعود سريعًا لحياض التوحيد والإيمان وحسن التعلق وتحقيقه.

ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف، وله أَرجى. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فالعملُ من ثمار العلم، والإرادةُ مردُّها إلى العلم، وصِحّةُ التصوّر حقيقتها العلم، فعادت طيّبات الأمور ابتداءً وانتهاءً إلى العلم.

والموفق مِن عباد الله من بذل جهده في تحصيل العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وما يليق به جل جلاله، من مشكاة الوحي لا غير، وعلى نهج السلف المُسدّدين، لا الخلف المُتهوِّكين.

ثانيًا: التفكر والتدبر وإمعان النظر في أحوال الأمم وتصريف الله لها.

فإذا تدبر المرء أحوال البشر على اختلاف سلطانهم، وتَمايُزِ أحوالهم، وتباين غناهم، وامتداد ممالكهم، ثم نظر ببصيرته ونَفَذَ لمآلاتهم؛ علِمَ عِلْمَ اليقين أنه لا بقاءٌ محمودٌ إلا ما كان ذكرًا لله تعالى وما والاه، وأنّ أقوى الناس هم المتعلقون بالقوي الغني الملك سبحانه، فحيثما سبرت البصر في التاريخ الحاضر والغابر وأعمقت البصيرة في حقائق الأشياء؛ خرجت بيقين أن العقبى لأهل إحسان التعلق بالحي القيوم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

ومن أراد الاعتبار بمصارع الأمم ونصر الله لأوليائه وخذلانه أعداءه؛ فليُمعن التفكرَ في سورة هود عليه السلام، وليُنعم ادِّكَارَ عِبَرِها، فلنِعْمَ مِدَاد الألبابِ المُتدبِّرةِ، والأفئدةِ المُتفكّرةِ، والقلوبِ المُتذكِّرة.

فقد ساق الله تبارك وتعالى فيها القَصَص بطريقة تهزُّ القلوب هزًّا، وتحفرُ فيها معاني العبر، وتنحت فيها خُلاصة النهايات، وتحقن فيها مضامين الإيمان، وتبني فيها أعمدة اليقين، فلا إله إلا الله ما أعظم كلامه وقرآنه ودينه وحِكَمَهُ وأحكامه!

ثم ثنّ بقَصص آدم عليه السلام مع عدوّه وعدوِّ ذريته الرجيم، وثلّث

بقَصص إبراهيم الخليل عليه السلام وقومه، ثم موسى الكليم الوجيه عليه السلام وفرعون، ثم انطلق راشدًا مُسدَّدًا مُوفَّقًا في قَصص المرسلين مع أممهم حتى تحسّ بشجرة التعلق بالله تعالى تثمر في قلبك أطيب ثمار التوحيد، وأجمل معاني العبودية، وأرقى مدارج القصد، وأسمى مراتب التوجّه.

ولا تنس قطب رحى القَصص المجيدة، ودرة تاج السير الحميدة؛ أعني سيرة خيرة الله تعالى من خليقته، وصفوته من عباده، خير البرية، وسيّد البشريّة، وصفوة الإنسانيّة؛ نبيّنا ورسولنا وحبيبنا وخليلنا ومصطفانا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ففي سيرته غَنَاءٌ وكمالٌ ولذّةٌ وسَعَةٌ وهُدًى وجمالٌ.

ثالثًا: دراسة سير المتعلقين بالله رب العالمين.

ذلك أن النفس متأثرة بسيرة من تصاحب ـ ولو عن طريق تصور الأصحاب في الذهن عبر العلوم والأفكار ـ فمن أمعن النظر في دراسة وتكرار قراءة سيرة سيد المتعلقين بالله تعالى رسول الله ﷺ، والأنبياء والصحابة وأئمة الأمة الأعلام ومشاهير العُبَّاد ممن اشتهرت قوة تعلقهم ورسوخ توحيدهم وعلوِّ إيمانهم؛ فإنه يجدُ في هذه الصحبة المعنوية خير أنيس في سيره لربه تعالى، ويلتذ بسيرتهم بخير جليس، فالقلب متأثر ضرورة بما يمرّ على خاطره من ذكر المحبوبين، وبمن يُعجَبُ بحسن حالهم، وجمال سجاياهم، وطيب تديّنهم، وقوّة نياتهم، وصدق توجّههم، وثبات سيرهم.

رابعًا: تدبر القرآن العظيم.

وهو من أنجعها على الإطلاق، فكلُّ علم شريف فالقرآنُ الشريفُ قد

حواه، وكلُّ غذاءٍ للقلب والروح فالقرآن العظيم قد حازه، وكلُّ حاجةٍ للنفس فالقرآن الكريم قد أوفاها أتمَّ الوفاء بأيسرِ طريقة، وأقربِ طريق، وأبينِ عبارةٍ، وأهدى سبيلٍ، والعبارة تقصر حتى عن مجرد الإشارة لتلك المعاني والأغذية القلبية العظيمة للمتدبر كتاب ربه جل وعز.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ فالقرآن يهدي إلى الطريقة التي هي أصوب. وقيل: الكلمة التي هي أعدل. وهي شهادة أن لا إله إلا الله[١].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية الجليلة: «ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جلَّ وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي الطريق التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب. وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أَجْمَلَ الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، لو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. ولكنَّنا إن شاء الله تعالى سنذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٥/ ٨٠).

كثيرة(١) مِن هدى القرآن للطريق التي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كله من المسائل العظام.

فمن ذلك توحيد الله جلَّ وعلا: فقد هدى القرآن فيه للطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، وهي توحيده جلَّ وعلا في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته. وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته. وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًّا.

الثاني: توحيده جلَّ وعلا في عبادته. وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى « لا إله إلا الله » وهي متركبة من نفي وإثبات. فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت. ومعنى الإثبات منها: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع

---

(١) وقد ذكرها بعد هذا الموضع الذي نقلته وفصّلها، وهي نفيسة فليراجعها طلاب الهُدى، فثمَّ مَعينٌ عذبٌ فرات سائغ للشاربين، ولقد نفع الله في هذا الزمان بهذا الحبر العلّامة، رحمه الله تعالى، وألحقه في الصالحين الصديقين السابقين والكاتب والقارئ ووالدينا وأحبابنا والمسلمين، إله الحق آمين.

العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام»(١).

فتدبرُ القرآن موصلٌ للمعاني الغائية من إنزاله، كما قال جل وعز: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فتدبّرِ القرآن إن رُمْتَ الهدى ... فالعـلـمُ تحــت تدبّـرِ القرآنِ

خامسًا: الدعاء.

ولو لم يك من بركة الدعاء إلا لذة مناجاة الله تعالى، والأنس به، وجمعيّة القلب عليه لكفاه، وعلى قدر إحسان الدعاء والإلحاح على الله تعالى به والاجتهاد في مظانّ إجابته؛ يكون قدر التعلق وجودته واستحكامه. والداعي قريب من ربه متعلق به ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] والداعي المُعانُ قد اجتمعت في قلبه معان جميلة وألطاف حميدة وقُربٌ خاصٌّ من ربه إذا دعاه بقلب حاضر وطريقةٍ مُتّبعة ومعتقد سليم.

والدعاء فيه إثبات لصفاتٍ كثيرة من صفات الرب تبارك وتعالى، فمن دعا الله تعالى بحق فإنه يستحضرها إذ دعا، وحتى لو لم يستحضرها على التمام فإنَّ دعاءه متضمنٌ لها:

(١) أضواء البيان (٣/ ١١١).

الصفة الأولى: وجود الرب سبحانه وبحمده.

الصفة الثانية: أنه يسمع دعاءه وهو في عليائه، وبينا العبد يهمس همسًا لا يجهر، فهو يعتقد أنَّ الرب سبحانه سميعٌ لدعائه.

الصفة الثالثة: أنَّهُ قدير على إجابة دعائه.

الصفة الرابعة: أنّه غني يُعْطِي بغير حساب.

الصفة الخامسة: أنه رحيم بعباده، فإن سؤال الرب تَعَرُّضٌ لآثار لرحمته.

الصفة السادسة: أنه حي، وهكذا.

فمن تأمّلَ دعاء العبد، وجد في دعاء العبد أنواعًا من إثبات الكمالات للرب، ولذلك يَضْعُفُ التوحيد إذا ترك العبد دعاء ربه، وكلّما قلّ الدعاء قَلَّ تعلُّقْ العبد بالله تعالى، لأنّ آثار التوحيد على النفس والنور الذي يُقْذَفْ في القلب من آثار التعلق بالله يضعف شيئًا فشيئًا»[١].

فالموفق لحسن التعلق هو من كان ديدنه الالتجاء إلى الله عز وجل، والإقبال عليه، والانطراح بين يديه، وسؤاله الهداية، فهو الهادي الكريم الرحيم الرحمن المستعان، وعليه التكلان، ولن يهتدي أحد للحق وإن علا إلا بهداية الحق جل وعلا، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية صالح آل الشيخ (١/ ٥٩٨) بتصرف يسير.

مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وقد روى مسلم[١] من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**». ولذا فقد فرض الله على عباده سؤاله الهداية في كل ركعة من صلاة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ قال ابن القيم: «ليس الداعي إلى شيء أشدّ فاقة وحاجة منه إلى الهداية البتة؛ فإنه يحتاج إليها في كل نفس وطرفة عين، فهو محتاج إلى الهداية في جميع ما يأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها، وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية ليزداد هدى، وأمور يحتاج إلى الهداية إليها في المستقبل»[٢].

ففي العبد ضرورة للتعلق بالله والالتجاء إليه والإلحاح عليه بسؤال الهداية للحق ـ وهي من فروع التعلق كما أنها ثمرة له ـ وأن يَلِظَّ[٣] على الله تعالى بسؤاله الثبات عليه فهو القريب المجيب كما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

(٢) الصلاة (١٧٥).

(٣) في الترمذي (٣٥٢٥) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول رسول الله ﷺ قال: «**أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام**» وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وجوّده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٨٢٢) من طريق ربيعة بن عامر.

قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] والرشاد: هو الهدى والاستقامة.

فإذا أصابتك بلية، أو تُهت في نازلة، أو تعاقبت عليك الرزايا، أو تكاثفت عليك الغيوم، وترادفت إليك الهموم، وضلَّت بك الحِيل والفهوم؛ فارفع يديك للواحد الأحد الحي القيوم، يغفر ذنبًا، ويكشف كربًا، ويفتح غلقًا، ويزيد علمًا، ويهديك إلى سواء السبيل (١).

سادسًا: التأمل في عجز الخلائق وفقرهم لله تعالى.

فما ثمّ إلا خالق ومخلوق، ومالك ومملوك، ورب وعبد، وإله ومألوه، فإذا تبيّن المؤمن هذا وتدبره وتفكر فيه، وآمن به، وعقد عليه قلبه؛ رسخ التعلق حينها في حُشاشة فؤاده، وانغرس الافتقار في سويداء قلبه، فيتحقق فيه حينئذ أنّه ممن لا يتعلقون إلا بالله وحده، ولا يسألون غيره، ولا يخافون سواه، ولا يرجون معه أحدًا، ولا يستعيذون ويستجيرون بمن عداه، وهذا من فروع شجرة التوحيد العامرة وثمارها الطيبة في قلوب المتعلقين بالحي القيوم الذي لا شريك له.

سابعًا: دوام العبادة.

فالعبادة هيكل الطاعة للرب سبحانه، والقنوت ـ وهو ملازمة الطاعة ـ علامة الصدق معه تبارك وتعالى، والعبادات تُغذّي الإيمان وتزيده وترسخه،

---

(١) وانظر: بين يدي الحكم، رسالة الى القضاة (١/ ٥ – ٧).

وهل التعلق إلا رسوخ الإيمان؟!

فإذا أتبع المؤمن صلاته بصلاة، وزكاته ببر، وصلته بأمر بمعروف ونهي عن منكر، ودعاءه بحسن أخلاق، وقراءته للقرآن بقراءة أخرى وتلاوة متكررة، ونحو ذلك، فنوّعَ هذا العبد الموفَّق ما يسّر الله تعالى له من العبادات، وازداد من تحصيلها، واجتهد في إحسانها، فاجتمع له الكمّ والكيف فيها، وحقّق الإخلاص والاتّباع حيالها، فصارت حسناتٍ متوافرات، وباقيات صالحات، وزادًا نافعًا للقدوم على رب البريَّات سبحانه. وهذه حقيقةُ القنوت، فلا تسل عن تعلقه حينها بعلام الغيوب، وتلذذه بمعيته وإحسانه ولطفه واستجابته دعاءه، والله لا يضيع أجر المحسنين.

وإنّ لله تعالى ألطافًا ومواهبَ ومكرماتٍ يختصُّ بها خُلَّصَ عباده المؤمنين، ويسوقها لأصفيائه الذين تعبّدوا له، وآمنوا به، وصدَقُوا ما عاهدوه عليه، واجتهدوا في تحصيل مرضاته، يزدلفهم بها لرياض مرضاته، ويسوقهم بها لدار كراماته، ويجزيهم بها أحسن ما كانوا يعملون، فالله شكور حميد كريم وهّاب لا يضيع عنده عمل عامل، ولا يُنسى أجرُ عابد، ولا يخيب لديه مؤمّلٌ صادق، عزَّ جارُه، وجلَّ ثناؤه، ولا إله غيره.

ثم إن من مسالك النجاة وأسباب الهداية والتوفيق والإعانة؛ الاستكثار من العبادة في الرخاء والشدة، والأمن والخوف، والعافية والفتنة، واليُسر والمشقّة، والرّغد والمسغبة، والصحة والسقم، على العهد في حُسْنِ التّعبُّدِ ما بقيَ للمؤمن قلبٌ ينبض، وعينٌ تطرف، وعقلٌ يعِي، وجارحةٌ تعمل، وأنفاسٌ

تتردَد. ويا لَطِيب عيش القانتين، فكل حال للدنيا فلعباد الله فيه عبادات تليق به، فالعبادة هي الركن الذي لا يهتزّ، والحبل الذي لا يُحزّ، وما خلقنا الله إلا لها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولم يعبأ بنا إلا لأجلها ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وإن من أرفع العبادات ذكرًا، وأكثرها أجرًا، وأعظمها أثرًا الصلاة. كيف لا ! وهي الصلة بين العبد وربه، وهل صلة أعظم وأعون وأهدى وأقومُ من صلاة العبد بربه؟! فالصلاة وَصْلٌ وصِلَةٌ، ولذا أمر الله بالاستعانة بها، فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر صلّى(١)، فكان يرتاح بها فينادي بلالًا: «**أقم الصلاة، أرحنا بها**»(٢) وهي نور للمؤمنين، كما روى مسلم(٣) أن الرسول ﷺ قال: «**الصلاة نور**».

قال ابن رجب: «فهي للمؤمنين في الدنيا نور في قلوبهم وبصائرهم، ولهذا كانت قرة عين للمؤمنين، كما كان النبي ﷺ يقول: «**جعلت قرة عيني في الصلاة**»(٤)، وهي نور للمؤمنين في قبورهم، ولا سيما صلاة الليل كما قال أبو

(١) أبي داود (١٣١٩) وسكت عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، والأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (٤٩٨٥).

(٢) ابن أبي شيبة (٩٣٩).

(٣) مسلم (٢٢٣).

(٤) أحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩) وأبو يعلى (٣٤٨٢) والطبراني في الأوسط (٥١٩٩) =

الدرداء: «صلوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور». وهي في الآخرة نور للمؤمنين في ظلمات القيامة وعلى الصراط، فإنّ الأنوار تقسم لهم حسَب أعمالهم. وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة فقال: **«من حافظ عليها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاة يوم القيامة»**[١]»[٢].

فما أحوج المؤمن إلى نور يضيء له ظلمات الطريق، وعون يشد من أزره في الكربة والضيق، ولقد روى البخاري[٣] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: ما تقرب إلي عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولئن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»**.

قال ابن رجب: «وأعظم فرائض البدن التي تقرب إليه الصلاة كما قال ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٩]، وقال ﷺ: **«أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو**

=
والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٧٨). وصححه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٠). ووافقه الذهبي. وحسَّنه ابن حجر في التلخيص (٣/ ١٣٣). وحسّنه محمد عزير شمس.

(١) أحمد (٦٥٧٦) وحسنه الأرنؤوط.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٢).

(٣) البخاري (٧١٣٧).

ساجدٌ»[(١)].

فالصلاة حبل متين قريب يتعلق به المرء بمن بيده مفاتيح الخير وجوامعه، فحري بالمؤمن احتساب إقامتها من نفيس وقته وكبير جهده.

ثامنًا: الحرصُ على عبادة السرّ.

وهي برهان الصدق، وقرينة الإخلاص، فإذا اجتهد العبد في إخفاء ما شُرع بإخفائه من العبادات البدنية والقولية والمالية والقلبية؛ كان هذا أدعى لمزيد من منح الكريم له، وزيادته بالخير العميم من أرزاق القلب، وغياثات الروح. ذلك أن السرَّ دليل الإخلاص، والإخلاص سرُّ التوفيق.

تاسعًا: صحبةُ المتعلقين بالله تعالى.

فالصاحب ساحب إما للحُسنى واليسرى وإما للشقوة والعُسرى، والنفوس مجبولة على التأثر والانفعال والتشبّه بمن تلازمه وتخالطه وتجالسه، فالمجالسة مُجانسة، والإنسان مدني بطبعه، ولا بد له من صحب يؤنسونه ويعينونه، فإن كان مُوفّقًا فهو مجتهد في صحبة الأخيار، وإن كان سوى ذلك فاللهم سلم سلم، ولا يلومنَّ عبدٌ إلا نفسه، ولن يُعاد للدنيا نادمٌ مِن رمسِه.

وكما قيل: صلاح الشيم بمعاشرة الكرام، وفسادها بمخالطة اللئام.

---

(١) مسلم (١١١١).

عاشرًا: الإخلاص.

الإخلاص هو سرّ العبودية، ولُبابُ الديانة، ورحيق الإيمان، وزاد الراكب المسافر للدار الآخرة، وكلما عمق جذر الإخلاص في القلب ازداد رسوخ التعلق بالله تعالى فيه، فبينهما تكامل وتعاون، وكل منهما مؤثر منمّ لصاحبه.

ولأهل الإخلاص قربٌ خاص بربهم تعالى، فهم مجتهدون في تنقية نياتهم ومقاصدهم من حظوظ النفس وسرقات الشيطان، وكم للنفس من حظ خفي مستتر بجلباب تقى وورع! والموفق من فتح الله بصيرته، ووسّع علمه، وقوّى عزيمته، وصفّى نيته، وأنصع إخلاصه، وقل لمن لا يخلص: لا تتعب!

والإخلاص يكون في أصل الدين وهو ما يسمى بالتوحيد، وضده الشرك والتنديد، كما يكون في أصول العبادات وهو ما يضاد الرياء. فالإخلاص محيط بالعِلميات والعَمليات، فلا بد من صحة تصوّر المؤمن بربّه توحيدًا لا تنديدًا، ولا بد من إفراد العمل العِباديِّ لوجْهِهِ دون ما سواه إسلامًا وتجريدًا.

وحَسنةُ تحقيق التوحيد لا تقوم لها كِفَفُ الذنوب مهما بلغت، ولكن أين المحققون له، فشمس التوحيد تحرق ما قابلها من الخطايا، وصدقُها يُحقَّق بالتوبة النصوح مما يلوّث نقاءها، وتأمل حديث صاحب البطاقة، والله المستعان.

وشعار التوحيد والإخلاص هو أعظم كلمة على الإطلاق وهي الشهادة لله بالوحدانية في الألوهية «لا إله إلا الله». وهي التي قامت عليها السماوات

والأرض، وخُلق لأجلها العباد، وقام لها سوق الجهاد، وعمرت لأجلها الجنة والنار. فسادة المتعلقين بالله هم سادة المحققين لهذه الكلمة العظيمة، «ولا بد من الإخلاص المنافي للشرك. إذا قال هذه الكلمة لا إله إلا الله، ولم يخلص أعماله لله، فإن وقع في عمله شرك بطلت هذه الكلمة وانتقضت، فالشرك ينقضها ويحبط جميع الأعمال. قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٨].

فلا بد من الإخلاص، فإن وقع الشرك في عمل العبد بطل توحيده وإيمانه، وانتقض كما لو توضأ وأحسن الوضوء وتطهر وأحسن الطهارة ثم أحدث، كذلك كلمة التوحيد إذا قالها عن غير إخلاص في عمله فإنّ شركه ينقض التوحيد.

ولا بد من عِلْمٍ مناف للجهل، ويقين مناف للشك والريب، وصدق مانع من النفاق، وإخلاص مناف للشرك، ولا بد من المحبة لهذه الكلمة ولأهلها والسرور بذلك، ولا بد من الانقياد لحقوقها، وهي الأعمال الواجبة بفعل الواجبات وترك المحرمات، ولا بد من القبول المنافي للترك، فقد يقولها بعض الناس لكن لا يقبلها ممن يدعون إليها تعصبًا وتكبرًا.

فإذا وجدت هذه الشروط[١]، فإن هذه الكلمة تكون صحيحة، ويكون قالها عن تحقيق. فلا بد من إخلاص التعلق بالله عز وجل.

أما مَن قالها بلسانه، ولكنه ينقضها بأفعاله، أو قالها وقلبه مكذب فإنها لا تنفع، ولا بد أيضًا أن يوحد الله في ربوبيته وفى أسمائه وصفاته.

وأنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. هذه الأنواع الثلاثة متلازمة، كلها مطلوبة، لا بد أن توحّد الله في ربوبيته، وتوحد الله في أسمائه، وصفاته، وتوحد الله في عبادته وألوهيته.

ومَن لم يأت بنوع من هذه الأنواع فلا يصح توحيده، فمن لم يوحد الله في ربوبيته فهو كافر ولو زعم أنه يعبد الله، ولا يمكن أن يعبد الله وهو لا يوحّد الله في ربوبيته، كذلك من زعم أنه يوحّد الله في أسمائه وصفاته، ولكنه لم يوحد الله في عبادته لم يكن موحّدًا»[٢].

إن إخلاص التعلّق وقوّته لهو نظام الحنيفية بحقٍّ، وإنّ مسلك النجاة الكبرى، وسبب الهداية العظمى حسنُ التعلق والافتقار للملك القهار، وإخلاصُ العمل لله تعالى، وتجريد القصد لوجهه تبارك وتعالى وعزّ وتقدس،

---

(١) وهي الشروط السبعة المشهورة لتحقيق كلمة التوحيد: العلم، واليقين، والقبول، والانقياد، والصدق، والإخلاص، والمحبة. وزاد بعض أهل العلم: الكفر بالطاغوت.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، عبدالعزيز الراجحي (١/ ١٦).

كما أمر الله تعالى وقضى به فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وفي الصحيحين من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).

فَلَكَ نيَّتُكَ إن أخلصتها لربك، وعملك بما جرّدته عن رؤية غير مولاك، ونُجْحُك بما صفّيته لقصد وجه الله تعالى، فإصلاح العمل وترتب الثواب عليه، أو فساده وترتب العقاب عليه، إنما يكون بسبب النية المقتضية لإيجاده.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض... وتأمَّل حديث البطاقة(٢) التي توضع في كفَّة ويقابلها تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مدّ البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يُعذّب، ومعلوم أن كل موحِّدٍ له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

قال ابن المبارك: «رُبَّ عمل صغير تُعظّمه النية، ورب عمل كبير تُصغّره النية». وعن يحيى بن أبي كثير قال: «تعلّموا النية، فإنها أبلغ من العمل». وقال

---

(١) البخاري (٥٤) ومسلم (١٩٠٧).

(٢) مسند عبد بن حميد (٣٣٩)، وأحمد (٦٩٩) وابن ماجه (٣٤٨٨) وصححه الألباني.

داود الطائي: «رأيت الخير كله يجمعه حسن النية، وكفاك به خيرًا وإن لم تنصب»(١).

فاستصلاح النية وتجريد القصد من أعظم القربات، ومن أقرب أسباب تحصيل المقاصد العالية، ومنها إحسان التعلق بالله تعالى. وقد روى ابن ماجه وصححه ابن حبان من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: **«من كانت الدنيا هَمَّهُ؛ فرّقَ الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيّتَه؛ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**(٢).

لذا فإن معرفة أهمية الإخلاص وفضله وأثره، وعاقبة ضده وخطره، مع الخوف من الله تعالى ومراقبته، واستحضار علمه بالظواهر والسرائر، وأن الأمر له جل وعلا، والملك بيده، وهو النافع الضار، مع الرغبة فيما عنده والتعلق به سبحانه دون ما سواه، إن ذلك مع المجاهدة لَمِنْ أعظم أسباب صلاح النية والعمل، ثم الهداية إلى المقصود الأجل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]»(٣).

وممن يتعيّن عليهم التدقيق في إخلاص نفوسهم العُبّاد وطلبة العلم وأهل

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٩).

(٢) ابن ماجه (٤١٠٥) وصححه الألباني.

(٣) بين يدي الحكم (١/٨ – ١١) باختصار وتصرف وزيادات.

الدعوة والجهاد، فنُهْمَةِ الشيطان فيهم أكبر، ورغبته في عَطَبِهم آكد، وحربهم له أشدّ، وهم كبريت الأمة الأحمر، وهم ياقوتها والجوهر، كثّرهم الله في العالمين، وباركهم وهداهم وعصمهم وحفظهم، وألحقنا بهم غير خزايا ولا ندامى.

قال رجل لابنه: اذهب فاطلب العلم، فخرج فغاب عنه ما غاب، ثم جاءه فحدثه بأحاديث، فقال له أبوه: يا بني اذهب فاطلب العلم، فغاب عنه أيضًا زمانًا، ثم جاءه بقراطيس فيها كتبٌ فقرأها عليه، فقال له: هذا سوادٌ في بياض، اذهب فاطلب العلم، فخرج، ثم غاب عنه ما غاب، ثم جاءه، فقال لأبيه: سلني عما بدا لك، فقال له أبوه: أرأيت لو أنك مررت برجلٍ يمدحك ومررت بآخر يعيبك، ماذا تفعل؟ قال: إذًا لم ألُمِ الذي يعيبني، ولم أحمد الذي يمدحني، قال: أرأيت لو مررت بصفيحة ذهبٍ؟ قال: إذًا لم أهيجها، ولم أقربها، فقال: اذهب، فقد علمتَ.

ولسان حاله: الآن جاء العلم النافع، فلما حصل الزهد في كلام الناس، والزهد في الدنيا؛ حصل العلم النافع، فقطعُ الطمع بالدنيا وقطع الطمع بكلام الناس من أجلى علامات الإخلاص، والمُوفَّق من وفقه مولاه.

الحادي عشر: مداومةُ الذكر.

فالذكر للقلب كالهواء للبشر، وكالماء للسمك، وكالغذاء للجنين، والمتعلق بالله تعالى في حاجة دائمة للزوم الدين، وضرورة لازمة إلى الاستمرار على التعلّق بالله تعالى حتى الوفاة، ويكون ذلك بلزوم الذكر على كل حال وفي كل حين بحسَبِ الوسع والطاقة.

لذلك فالذكر يُصلح له ما فسد من غفلته، ويبنى له ما انهدم من إيمانه، ويزرع له ما خرب من بستان صدره، فهو في زيادة ما دام في ذكر الله تعالى، وفي أَمَنَةٍ مادام مع الله بقلبه وقالبه، لذلك فمِنْ أخصّ أوصاف المتعلقين أنهم من أهل الذكر، فاجتهادهم في تكميله ظاهر عليهم، ولين ألسنتهم ورطوبتها به علامة لهم، فألسنتهم بذكر الله رطبةٌ، وبدعاء الله لهِجةٌ، وقلوبهم بربهم على الدوام متعلّقة، فواهًا لطيب عيشهم، ويا لَكرامة وفدهم، ويكأنّما يقضون أعمارهم في علّيين!

وههنا مسألة مهمة، وهي أن دوام الذكر ناتج عن عظيم المحبة، فعلى قدر المحبة يكون الذكر، واعتبر ذلك بأهل الدنيا، فالتاجر يلهج دومًا بتجارته وأسعاره ومشترياته وزبائنه وبضاعته ومبيعاته، ولاعب الكرة أو محبها نرى جسيم وقته ونفيس زمانه خالص لها، فمواعيده ملغاة لأجلها، وزمان لعبها الطويل يعتبره قصيرًا لحفاوته بها، وذكره وهجّيراه في متابعة أخبارها ومسابقاتها وأنديتها ومنتخباتها، وصاحب الإبل نراه قد سخّر نفسه لها ـ ولو على حساب من يقوت ـ ولا يطيب له ذكر إلا بذهابها ومجيئها وألوانها وجلائبها ووِلَادِها ومرعاها وفخرها والعناية بها، وصاحب هوى النساء نراه في شغلٍ شاغلٍ لقلبه للغايةِ في هواه، تطلُّبًا إرضاءَ غريزته الجثمانية والنفسانية.. إلى غير تلك المحابِّ وأهليها، وهذا حالُ هؤلاء في حُبِّ ما أصلُهُ مباحًا، ولكنهم زادوا من قدرِه فتعلّقوا بذلك الحبِّ الوَسِيلِيِّ دون الغَائِيّ، فعَلِقوا حب متاع الدنيا على حساب الحبّ القويم الذي خُلقوا لتحقيقه، فخسروا من الآخرة بقدر ما انتقصوها من حظوظ الدنيا.

وإذا كان هذا حال هؤلاء؛ فكيف بأولئك الذين أحبُّوا المعصية رأسًا فعاقروها، وعشقُوا الخطيئة أصلًا فلازموها، وتعلّقوا بالذنب حتى أَلِفُوه فَلَفَّهم في حضيض الدركات والهلكات والخيبات! كأنّما صيّر واحِدُهم هواهُ وثنًا يلثمه بشفةِ فؤاده السكران بخمر الهوى.. إلى آخر زُرَافاتِ صرعى الهوى من المحبين لأنواع ملاذِّ الدنيا دون اللذة الكبرى من لذائذ الأرواح التي لصاحبها شأنٌ أيّما شأن، وللناس شؤونٌ مِنْ دُونٍ لِدُون!

فمُحبُّ الله تعالى الذي استغرق الحب والشوق فؤاده فهانئٌ بما شغله ربه، قرّت عينُه، وسعد قلبه، وسكنت نفسه، واطمأنت روحه. نسأل الله الكريم من واسع فضله، فهو في جنّة قبل جَنّة الآخرة، وفي جُنَّةٍ مما يحاذره، وفي حبور يستتبع السرور، وغناء يخلفه توفيق، ومن كان الله تعالى معه فلا تَسَلْ عن فلاحه.

وبالجملة؛ فالذكر من أفضل العبادات، وهو مأمور به شرعًا كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢] فالمسلم مطالب بذكر الله تعالى في كل وقت، بقلبه، وبلسانه، وبجوارحه، قائمًا، وقاعدًا، وعلى جنبه.

وملازمة حُسن الذكر من أعظم مظاهر وبراهين التعلق بالله تعالى، ويكون حُسنُه بأن يذكر ربه بما ورد، بالإخلاص باطنًا، وبلزوم اللفظ والوقت والحال والعدد، وبأن يستحضر بقلبه ما يجري على لسانه، ويحرك قلبه بمعانيه، ويتفنّن في تدبره والعمل بمقتضاه، ولزومه على كل حال وفي كل حين قدر

طاقته، ولاسيما أذكار ما بعد الصلاة، وطرفي النهار، والمسجد، والمنزل، والنوم ونحو ذلك، وكذا الأذكار عند العوارض والأسباب، فإن الذكر عبادة ترفع درجات صاحبها عند الله الكريم، وينال بها الأجر العظيم دون مشقة أو تعب وجهد، فضلًا من الله الكريم، والله يختص برحمته وفضله وكرمه وعطاياه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، والكرم العميم، والنعم التي لا تُحصى.

فينبغي للمسلم أن يكون في ذكره لله تعالى ملتزمًا بحدود الشريعة ونصوصها، وهدي النبي ﷺ، وصحابته وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وذلك لأن حسن الاتّباع شرط لصحة العمل، وقبوله عند الله تعالى، كما قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[(١)] أي باطل مردود على صاحبه.

وإن من أعظم المقربات إلى الله من النوافل والقربات كثرةُ الذكر الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، وقد أمر الله بذكره، وبين أنه سبب الفلاح فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وفي الصحيحين[(٢)] من حديث أبي هريرة مرفوعًا: قال الله تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني**». «ولقد فقه الكليم هذا المعنى فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩

(١) البخاري (٢٤٩٩) ومسلم (٤٥٨٩).
(٢) البخاري (٧٠٩٩) ومسلم (٢٦٧٥).

﴿هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾. فكل تلك الأسباب لمقصد عظيم هو ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾ [طه: ٢٥- ٣٤] لما لكثرة الذكر من أثر عظيم على المؤمن.

ومن أعظم أنواعه كثرة قراءة القرآن، قال ابن رجب: «ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله من النوافل، كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم، قال خباب بن الأرت لرجل: تقرّب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه»(١).

وقال ابن سعدي في تفسير سورة يونس ما ملخصه: «يقول تعالى مرغبًا الخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] فهو شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع، وأمراض الشبهات القادحة في العلم اليقيني، وفيه الهدى، وهو العلم بالحق والعمل به، والرحمة، وهي ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب.

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة؛ حصلت السعادة والفلاح والربح والنجاح والفرح والسرور، ولذلك أمر الله بالفرح بذلك فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ

---

(١) جامع العلوم (٢/٣٤٢).

ٱللَّهِ﴾ والذي هو القرآن، وهو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] من متاع الدنيا ولذاتها»(١).

وقد بيَّن الله أن حفظه وفهمه من صفات أهل العلم كما قال: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفي الصحيحين(٢) عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار..**».

ومن ذلك أيضًا كثرة الاستغفار فقد كان النبي ﷺ كما روى مسلم(٣) يستغفر الله في اليوم مئة مرة، ولقد أمر الأنبياء أتباعهم بالاستغفار فلقد أمر الله بالاستغفار على لسان نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣] وقال الله على لسان هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢] فبيَّن الله أثر الاستغفار في جلب

(١) تفسير السعدي (٣/٧١٨).
(٢) مسلم (٢٦٦).
(٣) مسلم (٢٧٠٢) بلفظ: «**إنه ليُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرّة**».
والغَين: شيء يغشى القلب ولا يغطيه، كالغيم الذي يعرض في الهواء ولا يغطّي ضوء الشمس، فيزيله عن قلبه بالاستغفار.

الفضل والبركة وزيادة القوة والمتاع»[١].

الثاني عشر: دوام إحسان الظن بالله تعالى وحسن الرجاء به.

وهذا فرع عن معرفته والعلم به سبحانه. فالله تعالى حكيم له الحكمة البالغة في كل ما قضاه ودبّره، وما من أمر من لدنه إلا وغايته الصلاح، علمَه من علمه وجهله من جهله.

وحسن الظن به وعظيم الرجاء له رافد غزير للتعلق به سبحانه وتعالى، فالمرء بين نعمة يريد تحصيلها أو ثباتها أو نماءها، وبين نقمة يريد دفعها أو رفعها، وكلٌّ بيد الله وحده، فإذا عمر القلب بربوبية الله ازداد تعلّقًا به، وكلما حسن ظنه بربه عظم رجاؤه له، ومن هذين يزداد التعلق ويرسخ ويثبت.

والمؤمن المتعلق بربه ينظر بعين القدر من الله تعالى والتقصير من نفسه، فيحمد الله تعالى على نعمِه وابتلائه ولطفه ورحمته وحكمته، ويصبر ويرضى ويسلّم ويشكر، ويلوم نفسه على التقصير والغفلة، فيرفق بها ويحزم معها حتى تلين له قيادها فيفلح ويفوز بموعود ربه بالأمن والإيمان في الدنيا والدرجات العُلى في جنات النعيم.

وفي هذا الزمان اشتدت غربة الإسلام حتى بين أهله، فصار التوحيد غريبًا والموحدون غرباء، والإسلام غريبًا والمسلمون غرباء، فاستضعفتهم أمم الشرق والغرب ممن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا يرعى إلًّا ولا ذمامًا،

---

(١) بين يدي الحكم، عبد الله العقيلي (١/١٣ - ١٥) باختصار وتصرف وزيادة.

فاسترخصوا دماءهم وأعراضهم وأموالهم، وأصبح المسلمون قد استباحتهم عبدة الصليب والأوثان، وهذا له أسباب:

أعظمها: نقص تحقيق كثيرهم لعبودية الله الواحد القهار، والاكتفاء بالدعاوى دون العمل الصادق المُخلِص والمُجاهدة الجادّة للنفس ولأعداء الله تعالى، فقد اقتضت سنته الماضية وناموسه المُحكم أنه ينصر من نصره ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وكتب الغلبة والنصر والظفر لجنده ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

ومن جملة الأسباب: الابتلاء والامتحان للمؤمنين، ليظهر المعدن النفيس من الزيف الخسيس، وليميز الله الخبيث من الطيب، ولتستبين سبيل المجرمين.

ومنها: أن الله يحب اتخاذ الشهداء من عباده، وهذه الأمة أمة شهداء بحمد الله تعالى. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۗ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦].

ومنها: أنها مرتبطة بالحكمة العامة لله تعالى، فهو الحكيم الخبير، وقد يؤخر نصر أوليائه لما تقتضيه مصلحة دينه ومصلحتهم، وقد يمهل لأعدائه لتستحكم عليهم الحجة، وتحيط بهم موارد الغضب، فيمهلهم رويدًا ولا يهملهم قط، وقد يؤخر رفع الكرب عن أوليائه ليسمع ضراعتهم واستغاثتهم.

وبالجملة: فليس تأخير النصر دليلًا على فشل مشروع الداعي إلى الله

تعالى والمجاهد في سبيله، فالعبرة بحسن العمل لا بحصول الثمرة، ويأتي النبي يوم القيامة وليس معه أحد! ومن ثبت على دينه فهو المنصور حقًّا والموفّق صدقًا، وهذه مُسَلَّمةٌ ابتداءً لا شِيَةَ فيها.

وما كان لمؤمن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣] ويدبّ اليأس إلى قلبه، فلا ضيعة مع ذي الجلال والإكرام تبارك وتعالى.

فيا مؤمنًا بالله؛ اعلم أنّ الحق ظاهرٌ بالحجة والحقيقة على الدوام، وأنّ زمانَ ظهورِ الباطل ماديًّا على الحقّ لا يدوم، بل سعيه إلى زوال وأُفُولٍ واضمحلال، مهما اشتدَّ كَلَبُه، وانتشت بالظلم أحزابُه، واشمخرّ بالباطل أنفُه، وامتلأت بالعقارب خططه، وتجشَّأَ قلبُه عَفَنَ فساده، فللحق حسنُ العاقبة، وسناءُ التمكين، ومضاءُ النصر، وجمالُ النهاية في الدنيا والآخرة. والعبرة عند العقلاء إنما هي بكمال النهايات لا نقص البدايات، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ومن تدبَّر قصة يوسف وأبيه عليهما السلام ظهر لبصيرته ورسخ يقينه أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وأنّ ليل الباطل قصير، وحبل الظلم ضعيف. قال السعدي رحمه الله تعالى: «فإنه لما طال الحزن على يعقوب، واشتد به للغاية، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب، ومسّهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، وحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارًا، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة

والرخاء والعسر واليسر، ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم»(١).

وقد ذكر بعض أهل العلم أمورًا عدّوها من حكم اقتران الفرج باشتداد الكرب، واقتران اليسر بالعسر، فمن ذلك:

أن الكرب إذا اشتدّ وعظم وتناهى؛ وُجِدَ الإياسُ من كشفه من جهة المخلوقين، ووقع التعلق بالله وحده، فحينئذ يستجيب الله له، ويكشف عنه ما به، فإن التوكل هو قطع الاستشراف باليأس من المخلوقين، والاعتماد على الله وحده لا شريك له، والتوكل على الله من أعظم الأسباب التي تطلب بها الحوائج؛ فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

ومنها أن العبد إذا وقع في عسر، واشتد عليه الكرب؛ فإنه يحتاج إلى مجاهدة نفسه والشيطان، لأن الشيطان قد يأتيه فيقنّطه، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ودفعه، فيكون ثواب ذلك دفع البلاء عنه، وتيسير أمره، وتفريج كربته، وحسن العقبى له، ولهذا جاء في الحديث: «**يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَل، فيقول: قد دعوتُ فلم يستجب لي، فيدَعُ الدعاء**»(٢).

ومنها أن العبد إذا استبطأ الفرج، ولا سيما بعد الدعاء والتضرع، رجع

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٦٦).

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

باللائمة إلى نفسه، وبحث عن تقصيره، فأصلح خطأه، وعالج نقصه[١].

ومن جدير التنبيه للمؤمن المتعلق بالله تعالى والدار الآخرة ألّا ينشغل بالمفضول عن الفاضل «وفي ظل هذه الفتن، وتتابع هذه المصائب، يجب ألا تشغلنا هذه الفتن عن عباداتنا الخاصة بيننا وبين ربنا، فالضرورة تتأكد بوجوب العناية بإصلاح القلب، وهذا يتحقق بأمور:

أعظمها التعلق بالله عز وجل دائمًا، واللجأ إليه، وكثرة الإلحاح عليه بالدعاء، والتوبة النصوح والاستغفار الملحُّ، فإن الله تعالى نعى على قومٍ أصيبوا بالضراء، فلم يكن ذلك سببًا في تضرعهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٣].

فما أحوجنا إلى اللجأ، والتضرع إلى ربنا في كشف ضرنا، وإصلاح أحوالنا، والاستغاثة به في طلب النصر، وكبت العدو وخذلانه.

كما لا بد لكل واحدٍ منا من عبادة يلازمها، ويكثر منها، مع العناية ببقية العبادات، فإن للعبادة أثرًا عظيمًا في سكون القلب، واستقرار النفس.

ولئن كان هذا مطلوبًا في كل حين، فهو في أوقات الفتن آكد وأعظم، فإن النبي ﷺ يقول: «**العبادة في الهرج كهجرةٍ إليَّ**»[٢].

---

(١) انظر نور الاقتباس (٧٦، ٧٧) وجامع العلوم والحكم (٤٩٤، ٤٩٥).

(٢) مسلم (٧٥٨٨).

وسبب ذلك - والله أعلم - أنه في زمن الفتن يخف أمر الدين، ويقل الاعتناء بأمره، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه، ومعاشه، ونفسه وما يتعلق به.

فمن فتح الله تعالى عليه في نوافل الصلوات، أو في الصيام، أو في الصدقة، أو في قراءة القرآن، أو في غيرها من العبادات، فليلزمها، وليكثر منها، فإنها من وسائل الثبات بإذن الله تعالى»[(١)].

الثالث عشر: طلب العلم.

فالعلم بالله تعالى وبشرعه هو رافد التعلق الذي لا ينضب، وهو من أعظم وسائل ثبات القلب ورسوخ تعلقه بربه، فهو يكشف الريب، ويدحض الشبهات، وينير الطريق، ويبين المنازل، ويرفع الهمة، ويُجلي للسائر سيره، فينطلق لمرضاة لربه على هدى وبصيرة، كما أنه من أعظم الذخائر عند المولى تبارك وتعالى، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اطلبوا العلم، فوالذي نفسي بيده ليبعثن الله يوم القيامة شهداءً يتمنون أن الله قد بعثهم علماء؛ لما رأوا من كرامة الله للعلماء!». ويكفي أنهم ورثةُ الأنبياء، وحُرّاسُ الديانة، وأحبابُ الله تعالى.

إن العلم بالله تعالى كنزٌ مرصودٌ لأهله، وذخائرُ ثمينةٌ لطُلَّابِه، وسلاحٌ ماضٍ في ألسُنِ حاوِيِه، ومنارات عالية لأصحابه، وشواهد مَرْضِيَّةٌ لحملته،

(١) موسوعة الرد على الصوفية (٤١/ ٤).

وهدًى ورشادًا وسكينة وسعادة في أفئدة أهله، فبينما الجاهل محشور في زاوية صغيرة في أحد أركان عقله؛ نرى العالِمَ في فضاء فسيح من نور علمه، و«إن من أنفع أسباب الهداية والرشاد وأعظمها أثرًا وأكثرها فضلًا، العلم الشرعي، فهو أشرف مطلوب وأفضل مرغوب، وأهله هم أهل الرفعة، وأولوا الخشية، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

قال القرطبي في تفسيره: في هذه الآية دليل على فضل العلم، وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء.

وقد أراد الله بهم خيرًا، وأعظم لهم أجرًا ففي الصحيحين(١) عن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» وروى أبو داود(٢) عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) البخاري (٧٠٢٢) ومسلم (١٠٣٧).

(٢) أبو داود (٣٦٤٣) وسكت عنه. وقد قال في رسالته لأهل مكة: «وما سكتُّ عنه فهو صالح». والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) وغيرهم، وحسنه ابن القيم في المفتاح (١/١٠٩) وحسنه عبد المحسن العباد في أهمية العناية بالتفسير والحديث والفقه (١/٥) وصححه الألباني. وقد شرحه الحافظ ابن رجب في جزء، وهو حديث عظيم جميل المعاني.

«من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنّ العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر».

قال ابن القيم: «هذا حديث حسن، وقوله: «إن العلماء ورثة الأنبياء» هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء؛ كانوا أحق الناس بميراثهم، وفي هذا تنبيه إلى أنهم أقرب الناس إليهم، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث»(١).

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «تعلّموا العلم، فإنّ تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمُحَدِّثُ في الخلوة، والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء، والزَّينُ عند الأخِلّاء، يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في الخير قادة وأئمة، تُقتّصُّ آثارُهم، ويُقتدى بفِعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خدمتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٩).

رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامُّه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظُّلَم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام العمل، والعملُ تابعه، ويُلهَمَهُ السعداء، ويُحرَمَهُ الأشقياء»(١).

وقال الحسن: «إن الرجل ليعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها»(٢).

لذا فإنه يتأكد على من رام حسن التعلق على بصيرة؛ الاجتهاد في طلب العلم لحاجته الماسَّة إليه، وألا يحول بينه وبين الازدياد من العلم حائل، وأن يشتدّ في طلبه مُخلِصًا ويسعى في تحصيله مُتّبِعًا مهما استطاع سبيلًا، فليس أعظم من النبوّةِ، والعلمُ ميراثُها، وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يسأله جل وعلا زيادة العلم كما في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] «قال ابن عينة: فلم يزل في زيادة ﷺ حتى مات»(٣). فميراث النبوة علم الشريعة، وقد فاز من حازه بحقّه.

«وروى ابن عبد البر أنه قيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال

---

(١) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٤) وقال: حديث حسن جدًّا، ولكن ليس له إسناد قوي. وقال الألباني في الترغيب (٤٧): موضوع ضعيف.

(٢) السابق: (١/ ٥٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٢).

حتى الممات إن شاء الله. وقال: لعلّ الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد. وعن ابن أبي غسان قال: لا تزال عالمًا ما كنت متعلمًا فإذا استغنيت كنت جاهلًا.

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم؛ لأن الخطأ منه قبيح»[(١)]. وكلمةُ الإمام أحمد «مع المِحْبَرَة إلى المقبرة» قد سارت بها ركائب الصالحين.

إذا تقرر هذا؛ فإنه ما من شك في وجوب العمل بالعلم، والدعوة إلى الله فلا ينتفع صاحب علم لا عمل له بل هو سبيل الخسران كما بين الرحمن ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] فقدّم العلم، وهو الإيمان ثم أعقبه بالعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه، قال ابن سعدي في تفسير سورة العصر: «فبالأمرين الأوّلين يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم».

وعن مالك بن أنس قال: «لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعليم». وعن الحسن قال: «إن الرجل ليعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها»، وقال سفيان الثوري: «العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاَّ

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله باب الحض على استدامة الطلب والصبر على اللأواء والنصب. (١/٤٠٦).

ارتحل». وعنه قال: «لا أعلم من العبادة شيئًا أفضل من تعليم الناس»(١).

وإن من العمل بالعلم، تبليغه للناس ودعوتهم إلى الهدى، وقد بين الله أن الدعوة إليه هي سبيل المرسلين فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الآية [يوسف: ١٠٨]، وهي طريق المفلحين كما قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد بيّن النبي ﷺ عظيم أجر الدعاة إلى الله فقال فيما روى مسلم(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه**».

كما دعا لهم بالنضرة، فقال: «**نضّر الله امرًا سمع مقالتي، فوعاها وحفظها وبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(٣)(٤).

والعمل هو ثمرة العلم النافع، أما غير النافع فهو حجج يجمعها الطالب على نفسه، ورُبَّ علمٍ خيرٌ للمرء الجهل به إن لم يصنه عن عُجْبٍ وكبر وغفلة

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٥).
(٢) مسلم (٢٦٧٤).
(٣) رواه الترمذي (٢٨٧٠) وقال حسن صحيح. وصححه الألباني.
(٤) بين يدي الحكم (١/١٩ - ٢٧) مختصرًا بتصرف وزيادات.

وإعراض! فالعمل هو الغاية للعلم، ومن العلوم ما يكون في نفسه غاية كالعلم بالله تعالى وصفاته.

قال عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات، لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى تأملاته الرائقة: «وجدت رأي النفس في العلم حسنًا، أي: النفس مقبلة على التعلم، فهي تُقدِّمُه على كل شيء، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، غير أني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم النوافل عن العلم قد ضلُّوا، ولكن في المقابل علم بدون تطبيق ولا ممارسة، قال: رأيت نفسي واقفةً مع صورة التشاغل بالعلم فصحت بها، فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين التعلق؟ أين الحذر؟ أما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟! أما كان رسول الله ﷺ سيد الكل؟!- أي البشر - ثم أنه قام حتى ورمت قدماه؟! أما كان أبو بكر شديد النشيج كثير البكاء؟! أما كان في خدِّ عمر خطّان من آثار الدموع؟! أما كان عثمان يختم القرآن في ليلة؟! أما كان علي يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: «يا دنيا غُرّي غيري»؟! أما كان الحسن يحيا على قوة التعلق بالله؟! أما كان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد، فلم تفته صلاة الجماعة أربعين سنة؟! أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضر واصفر؟! أما قالت بنت الربيع بن خثيم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟! قال: إن أباكِ يخاف عذاب البيَات،

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة وهو يقول: وا لهفاه سبقني العابدون وقُطِعَ بي؟! أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟! أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟! أما تعلمون أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، احذري من الإخلاد إلى صورة العلم وترك العمل به.

قال أبو هريرة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ: «مثل علم لا يعمل به كمثل كنزٍ لا ينفق منه في سبيل الله». وقال حفص بن حميد: دخلت على داود الطائي أسأله عن مسألة أشكلت، وكان كريمًا، فقال: أرأيت المحارب إذا أراد أن يلقى الحرب، أليس يجمع آلته؟ قال: نعم، قال: فإذا أفنى عمره في الآلة، فمتى يحارب؟!

والعلمُ ليس بنافعٍ أربابَهُ ... ما لم يُفِدْ عملًا وحسنَ تبصُّرِ
سَيَّان عندي من لم يستفد ... عملًا به وصلاة من لم يطهرِ»[1]

۞۞۞۞

(١) صيد الخاطر (٢٤٨).

عوائق التعلق بالله تعالى

١ – قلة العلم بصفات تعالى وربوبيته وأفعاله وما ينبغي له.

فالجهل بالله تعالى سرُّ الآفات، وهو مفضٍ للضلال والظلام وسائر الخيبات، ويكأنّما الجاهل بربه يعيش في حلم داخل حلم بَيْنَا هو مستيقظٌ منتبه! كلُّ ذلك من أثر غياهب الحيرة التي تعترينه، والظلام الحالك الذي يسير فيه، والقلق الموجع الذي لا يدري مصدره، والخوف الخفيّ والجليّ ممّا أمامه!

وقد ذكر الله تعالى في سورة النور مثالين لعاقبة أعمال الجهلة الكافرين به تعالى، فذكر صاحب السراب بقيعة، ويشبهه الجاهل البسيط الذي لا يعلم، ويعلمُ أنه لا يعلم، وذكر صاحب ظُلُمات البحر اللُّجِّيِّ وأمواجه والسحاب من فوقه، ويشبهه الجاهل المُركّب، وهو الذي لا يعلم، ولا يعلمُ أنه لا يعلم! وقد شبّهت العربُ نوعَي الجاهلَيْن بتوما الحكيم ـ بزعمه ـ وحماره، وأنشد بعض الظرفاء:

قَالَ حِمَارُ الحَكِيمِ تُومَا لَوْ أَنْصَفُونِي لَكُنْتُ أَرْكَبْ
لِأَنَّنِي جَاهِلٌ بَسِيطٌ وَصَاحِبِي جَاهِلٌ مُرَكَّبْ

فالجهل ـ يا صاحبي ـ أوَّلُ العطب، والنُّجْحُ أوّلُ الطلب، وبضد الجهلِ الوخيمِ العلمُ النافعُ الذي يجلو الظلام، ويُنقّي القتام، ويقشعُ عن عين التقيِّ غطاءها، ويجعل السائر للآخرة يمشي على نور وهدى وبصيرة من الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى أن أقوامًا يبتعدون عنه وهم يظنون أنفسهم إليه يسيرون

فقال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤] وقال فيمن أراد عبادته ولكن بضلال: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ﴾ [المجادلة: ١٨] وقال: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] وقال: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ [الغاشية: ٣- ٤].

قال أبو جعفر الطبري في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] «يقول تعالى ذكره: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، إنما ضلوا عن سبيل الله وجارُوا عن قصد المحجة، باتخاذهم الشياطين نُصراء من دون الله وظُهَرَاء، جهلًا منهم بخطأ ما هم عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هدى وحق، وأنّ الصواب ما أتوه وركبوا.

وهذا من أبين الدلالة على خطأ قول من زعمَ أن الله لا يعذِّب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسَبُ أنه هادٍ وفريق الهدى فَرْقٌ. وقد فرَّق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية»(١).

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٣٨٨). فليس كل جاهل معذور بكل حال، وقد بسطت ذلك في رسالة: «ويكون الدين كله لله».

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء»(١).

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾: «لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًّا والحق باطلًا. وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومِنَّته، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذ تولى - بجهله وظلمه - الشيطانَ، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتدٍ وهو ضالٌّ؛ أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانه من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى»(٢) وقال: «﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾أي: الصراط المستقيم، والدين القويم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل،

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٢٥).

(٢) تفسير السعدي (ص ٢٨٦).

فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغيّ، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو: إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه، والتبرِّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرناؤكم وأخلاؤكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه. ولن ينفعكم أيضًا، روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم بعض الهون، وتسلَّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك»[(١)].

وبالجملة؛ فما عُصي الله تعالى إلا بجهل، وكل من عصى الله فهو جاهل

(١) تفسير السعدي (ص: ٧٦٦).

إما لعدم العلم أصلًا، أو للغفلة عنه لحظة العصيان، وعدم التصوّر للعظمة والعرفان، وهو بين الجهل والجهالة، جهلًا بالعلم، أو جَهالة بإعراضه عن موجبه.

وإذا تراكمت أطباقُ الجهل على الفؤاد؛ انطفأ نور البصيرة من القلب، فقلّ التعلق بالله تعالى أو عُدم، وطريق الخيبة يبدأ بخطوة.

والموفق مِن ولد آدم هو من كان عالمًا بما يستحق ربُّ العالمين من تعظيم وتكبير وتسبيح وتحميد، وكان عالمًا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى التي ذكرها الله تعالى في كتابه وذكرها رسوله ﷺ، فيثبتها بلا تمثيل ولا تكييف، ولا يعطل معانيها ويحرفها كفعل المؤولة المحرفة، فإن العلم بذلك يثمر أنفع الثمار وأبركِها وأطيبها، نسأل الله الكريم من فضله وإحسانه وجوده وامتنانه.

٢-الإخلاد إلى الأرض، والتكاثر والتهالك على حطام الفانية.

خلق الله ابن آدم محتملةً خِلقَتُه الخير والشر، قابلًا للهدى والضلال، والسعادة والردى، وغرز له في سويدائه مع نشأته فطرةً قويمة، وهداه برسله وكتبه لصراط مستقيم، وركّب فيه غرائز، وجَبَلَه على طبائع، وابتلاه في هذه الدار مؤقتًّا، فسلّط عليه تلك الغرائز ومعها وساوس الشيطان، ولكنه أعانه بعقل يقوده ويدله على خير حال ومآل، وملائكة تسدده وتدعو له وتستغفر، ووحيٍ يسبصر به إن أراد الرشاد، ومن وراء ذلك كله توفيقه لعبده أو خذلانه.

وطبائع بني آدم وإن اختلفت في مقادير غرائزها وشدتها وسطوتها

وضعفها إلا أنها تجتمع في أمور كليّة لا يخرج عنها إنسان خلا الأنبياء، فحب الرئاسة، وحب المال بأنواعه المنقولة والسائلة، وحب النساء ـ وبالنسبة للنساء حب الرجال ـ وحب الراحة والإخلاد إلى الأرض، والتمتع بالنعيم الأرضي، وحب الضرب فيها والتكسب والحرث، وأنواع تلك الغرائز والطباع، فهذه لا يكاد يخرج عنها إنسان، ولكن يختلفون في أربعة أمور تحيط داخل وخارج الواحد منهم، وهي كالتالي:

الأولى: قوة عصفها على فؤاده، وضعفها.

الثانية: قوة احتماله لواردها، وسيطرته عليها بجوهرةِ عقله، ونور علمه، وقوة إرادته بإذن الله تعالى.

الثالثة: نظرته العامّة لحياته، فمنهم من قصرها على مجرد تلك الأُويقات السرابية القليلة، وهي حياته في هذه الدار الدنيا، فصرف همّه وهمّته في التكاثر فيها، والتنافس لأجل تحصيلها، والولاء والبراء عليها، والغيبوبة عن داره الأخرى، إما لتكذيبه وكفره بها، أو لضعف يقينه وتسلط نفسه الأمارة عليه فيها، أو لغفلته الطويلة عما يراد منه وله هنا وهناك.

ومنهم من نظر إلى حياته نظرة صحيحة؛ فتبصّر فيها، وسبرها، وعرف حالها، وأيقن أنها مجرد مرحلة ابتدائية يسيرة جدًّا مقارنة بالحياة السرمدية الدائمة الكاملة في الدار الآخرة، فربط الدنيا بالآخرة، وجعلها معينة عليها، ومصنعًا لبناء داره الأخرى، ومزرعة لثمار يرجو جنيها في أخراه، وحيوانًا يأمل نتاجه في دار الكرامة لدى مولاه.

الرابعة: توفيق الله لعبده أو خذلانه، فليس العلم ولا الإرادة بكافيين لتحصيل المقصود، بل الأمر راجع بالكلّيّة إلى محضِ فضل الله وجوده ومِنّته وكرمه وإحسانه، وهذا العلم وتلك الإرادة هما فرعان لتوفيق الله تعالى لمن شاء من عباده، أو لقطع مادة التوفيق عمن شاء، وربنا تعالى لا يُسئل عما يفعل، فعلمه وقدرته وحكمته ورحمته ومغفرته وعدله وغضبه وصفاته لا يحيط بها مخلوق البتة، ومهما ظهرت لنا أطرافٌ من آثار العلم والقدرة والحكمة والرحمة والإحسان والعدل ونحوها لله تعالى؛ فهي النهاية علم قليل جدًّا جدًّا، وليس للمخلوق طاقة بإدراك ما ليس له به طاقة، فأنّى للمخلوق تجاوز ما حدَّ له خالقُه جل جلاله.

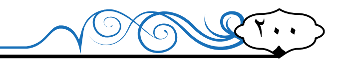
ويكفينا ـ بحمد الله تعالى ـ ما ذكره من صفاته سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو قدرٌ كافٍ وافٍ شافٍ لكلِّ مريدِ هدًى وطالبِ شريفِ علمٍ، فشرفُ كل علم بشرف متعلّقه، وعليه؛ فأشرف العلوم بإطلاق هو علم أسماء الله وصفاته وأفعاله، والقرآن العظيم مِن كلامه تبارك وتعالى، فتدبَّر ـ مُسدَّدًا مُوفَّقًا ـ آيات أسماء وصفات وأفعال وهدايات الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله، وإني ضامنٌ لك ـ بإذن الله تعالى ـ علمًا لا تنقضي بركته، ولا ينقطع فضله، ولا يندم حائزُه، ولا يشبه علوم العالمين.

والمقصود أن هذه الطبائع والغرائز لا تذم ولا تمدح لذاتها، بل بما ينتج عنها من ثمار طيبة كانت أو خبيثة، وما أغلق الله باب حرام إلا وفتح بدلًا منه أبوابًا للمباح والمشروع، فالحرام يفسد القلب ويُخبّث الروح، والحلال يطيّبهما،

والدنيا كلها بحسب ذلك، فاعتبر به، وقِسْ عليه.

قال تبارك وتعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤- ١٥] فتأمل كيف أظهرت هاتين الآيتين الصورة كاملة، وجلّتا عن عيون أهل البصائر غشاوة الغفلة إن هم أمعنوا النظر فيها، وأنعموا تدبُّرها، وكرّوا التفكر في معانيها وهداياتها.

فلقد ذكر الله تعالى فيهما أصول حب الدنيا المركّبة الغريزية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي ركبت في غرائزهم هذه الشهوات، فأصبحت محبوبة مشتهاة لنفوسهم، ثم ذكرها وابتدأ بأخطرها وهو حب شهوة النساء، ثم أتبعها بحب الولد، ثم الأموال السائلة من الذهب والفضة وما في حكمهما من النقود، ثم بهيمة الأنعام، ثم الحرث والزرع، ثم ختم الآية بالتنبيه إلى أنها مجرد متاع، أي بلغة يتبلغ بها المسافر للدار الآخرة، والعاقل الناصح لنفسه لا يُخاطر بنهاية مصيره لأجل حُطام دنيا فانية، ولا يُغامر بعاقبة مُنقلبه في سبيل ظلٍ زائل، ولا يبذل مهجته ونفيس وقته وقليل عمره لما ليس له، وليس بباق في يديه، وإن لم ترحل عنه تلك الشهوات وإلا رحل عنها بالسقم والوفاة! لذلك ختم هذه الآية الجامعة بطابع الوعد الرباني بحسن المرجع والمآب لمن عمروا



الآخرة ولم يهملوها، فقال جل شأنه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ وهذا في غاية الإغراء لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم ثنّى سبحانه بالنبأ العظيم، وفيه تنبيه شديد وقرع هائل للعقل بأن يعقد مقارنة صحيحة بين الدارين، وأسدى لهم النصح وأجلى البيان وأقام الحجة إذ أخبرهم صراحة أن الدار الآخرة خير من الأولى، لكنها خاصة بمن اتقى، فذكر جملة من مرغبات النفوس التي جبلت على حب الشهوات من الجنات والأنهار والنعيم المقيم والأزواج الطاهرات وفوق ذلك كله الرضوان، وهو الرغيبةُ القصوى لخُلاصَةِ بني الإنسان، فمن رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فلا تسل عن نعيمه وسعادته وسروره وهنائه وابتهاجه وفلاحه.

ثم ختم الآية بتوجيه أفهامهم لإحاطة علمه بهم مهما تسربلوا الحجب والستور، بأن ذكّرهم بصرَه وعلمَه، وأنه لا تخفى عليه خافية وإن أسروها، فسرُّهم وعلانيتهم لديه سواء، فخيرٌ لتلك النفوس المبتلاة أن تصبر قليلًا عن الحرام، وتُمتع نفسها عنه بالمباح، وتُعلّل شأنها بالحلال هُنيهاتٍ إلى حين، كيما تنال الفوز والفلاح والرفعة في العاقبة. فلله الحمد والشكر والثناء الحسن أن أحسن لنا أولًا في هذه الدار، ثم رحمنا بتنبيهنا بحسن المقارنة بين دار الابتلاء ودار البقاء، ونصحَنا ببيانه الشافي أن خيرًا لنا أن نعبرها كرامًا لا أن نعمرها غافلين.

وقال عمر رضوان الله عليه: «اللّٰهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا، اللّٰهم إني أسألك أن أنفقه في حقه». قال الحافظ ـ وهو عند الإطلاق ابن

حجر رحمه الله تعالى ـ: «وفي هذا الأثر إشارة إلى أن فاعل التزيين المذكور في الآية هو الله تعالى، وأن تزيين ذلك بمعنى تحسينه في قلوب بني آدم، وأنهم جبلوا على ذلك، لكن منهم من استمر على ما طبع عليه من ذلك وانهمك فيه؛ فهو المذموم. ومنهم من راعى فيه الأمر والنهي ووقف عند ما حُدَّ له من ذلك، وذلك بمجاهدة نفسه بتوفيق الله تعالى له؛ فهذا لم يتناوله الذم. ومنهم من ارتقى عن ذلك فزهد فيه بعد أن قدر عليه، وأعرض عنه مع إقباله عليه وتمكنه منه؛ فهذا هو المقام المحمود، وإلى ذلك الإشارة بقول عمر «اللّهم إني أسألك أن أنفقه في حقه». فعن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب أُتي بمال من المشرق يقال له نفل كسرى، فأمر به فصُبَّ وغُطّي، ثم دعا الناس فاجتمعوا، ثم أمر به فكشف عنه، فإذا حلي كثير وجوهر ومتاع، فبكى عمر، وحمد الله عز وجل فقالوا له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ هذه غنائم غنمها الله لنا، ونزعها من أهلها، فقال: ما فتح من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمتهم. قال فحدثني زيد بن أسلم: أنه بقي من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع، فقال له عبد الله بن أرقم: حتى متى تحبسه لا تقسمه؟ قال: بلى إذا رأيتني فارغًا فآذنّي به، فلما رآه فارغًا بسط شيئًا في حشّ نخلة، ثم جاء به في مكتل فصبّه. فكأنه استكثره، ثم قال: اللّهم أنت قلت: (زين للناس حب الشهوات)، فتلا الآية حتى فرغ منها ثم قال: لا نستطيع إلا أن نحب ما زينت لنا، فقِني شرَّه وارزقني أن أنفقه في حقك، فما قام حتى ما بقي منه شيء»[1].

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٨/ ٢٥٤).

كما نبه سبحانه لمكمن داءٍ قد يخفى على بعض الأفاضل من الناس، وهو حب التكاثر، خفيًّا كان الحب أو ظاهرًا، فالعِرْقُ ينمو للجذع فالفرع فالغصن الثمرة، وطوبى لطلاب الآخرة الذين سلِموا من حب التكاثر في العالمين.

والمرء يعلم أن سيكفيه القليل من البلغة في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه، لكنه يقفز بمناه إلى التكثّر من الدنيا، والتكاثر فيها، والتباهي بها، والتفاخر لأجلها؛ فتصيب قلبَه قارعةُ الغفلة، وتُداخِل مُهجتَهُ سمومُ عقربِ حبِّ العاجلة، وينغرس في فؤاده نابُ ثعبانِ الأمل، إن لم يرحمه الله بإنابة وحسن تدبير لحاله ومآله.

قال سبحانه فاضحًا زيف الدنيا، منبِّهًا سُكّانها عن الاغترار بها جمعًا لزائلٍ وتكاثرًا بِفَانٍ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [سورة التكاثر] قال شيخ المفسرين والمؤرخين الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عن مطرّف عن أبيه قال: أَتَيْتُ النَّبِي ﷺ وهو يقرَأُ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قَال: «يَقُولُ ابنُ آدَمَ مَالِي مَالِي. قال. وهَلْ لَكَ يَا ابنَ آدَمَ مِنْ مالِكَ إلاَّ ما أَكلتَ فَأَفنيتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبلَيْتَ، أو تَصَدَّقتَ فأمضيتَ»[1] وقوله ﷺ بعقب قراءته ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ ليس لك من مالك إلا كذا وكذا، ينبئ أن معنى ذلك عنده: ألهاكم التكاثر:

(١) مسلم (٨/ ٢١١) (٧٦٠٩).

المال.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لو كان لابن آدم واديان من مال؛ لابتغى ثالثًا! ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»[1].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني: حتى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها؛ وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر، لأن الله تعالى ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهدّدا. وعن زِرّ، عن عليّ، قال: نزلت ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في عذاب القبر.

وقوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: كلا ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يُلْهِيَكُم التكاثر. وقوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر غِبَّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرّر قوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ مرتين، لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف

---

(١) البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩).

والتهديد كرّروا الكلمة مرتين.

وقوله: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ يقول تعالى ذكره: لو تعلمون أيها الناس علمًا يقينًا، أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا إشفاقا على أنفسكم من عقوبته. قال قتادة: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ كنا نحدَّث أن علم اليقين: أن يعلم أنَّ الله باعثه بعد الموت.

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦﴾ أي: لترونّ أيها المشركون جهنم يوم القيامة، ثم لترونها عيانًا لا تغيبون عنها. قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ يعني: أهل الشرك.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يقول: ثم ليسألنكم الله عزّ وجلّ عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به.

واختلف أهل التأويل في ذلك النعيم ما هو؟ فقال بعضهم: هو الأمن والصحة، قاله ابن مسعود ومجاهد وسفيان والشعبي. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم لَيُسْئَلُنّ يومئذ عما أنعم الله به عليهم مما وهب لهم من السمع والبصر وصحة البدن، قاله ابن عباس قال: «النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿ئې ئى ئى ئى ئد ى ي ي﴾ [الإسراء: ٣٦]» وقال به الحسن.

وقال آخرون: هو العافية. وقيل: بعض ما يطعمه الإنسان أو يشربه، فعن بكير بن عتيق، قال: رأيت سعيد بن جُبَير أُتي بشربة عسل، فشربها، وقال: هذا النعيم الذي تُسألون عنه.

وعن جابر بن عبد الله قال: أتانا النبيّ ﷺ وأبو بكر وعمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فأطعمناهم رطبًا، وسقيناهم ماء، فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسألون عَنْهُ**»[١].

وعن أبي هريرة، قال: بينما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان، إذ جاء النبيّ ﷺ، فقال: «**ما أَجْلَسَكُما ها هُنا؟**» قالا الجوع، قال: «**وَالَّذِي بَعَثَنِي بالحَقّ ما أَخْرَجَنِي غَيرُهُ**»، فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبيّ ﷺ: «**أيْنَ فُلانٌ؟**» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء، فجاء صاحبهم يحمل قربته، فقال: مرحبًا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم، فعلق قربته بكَرَب نخلة، وانطلق فجاءهم بعِذْق، فقال النبي ﷺ: «**ألا كُنْتَ اجْتَنَيْتَ؟**» فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم، ثم أخذ الشفرة، فقال النبيّ ﷺ: «**إيَّاكَ والحَلُوبَ**»، فذبح لهم يومئذ، فأكلوا، فقال النبيّ ﷺ: «**لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ القِيامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ، فَلَمْ تَرْجِعُوا حتى أَصَابكُم هذا النَّعِيم**»[٢] وفي رواية: «**هَذَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ مِنَ النَّعِيمِ، الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ مَسْئُولُونَ عَنْهُ يَوْمَ القِيامَةِ، هَذَا الظِّلُّ البارِدُ، والرُّطَبُ**

---

(١) النسائي (٣٦٤١) وأحمد (١٥٠١٣) وصححه الألباني في الروض النضير (١/ ٤٠٣).

(٢) مسلم (٢٠٣٨).

البارِدُ، عَلَيْهِ الماءُ البارِدُ»[(١)].

وعن أبي عسيب، مولى رسول الله ﷺ، قال: مرّ النبيّ ﷺ حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «أَطْعِمْنا بُسْرًا»، فجاء بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، فقال: «لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ القِيامَةِ»، فأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر، ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسئولون عن هذا؟ قال: «نَعَمْ، إلّا مِنْ كِسْرَةٍ يُسَدُّ بِها جَوْعَةٌ، أَوْ حُجْرٌ[(٢)] يُدْخَلُ فِيه مِنَ الحَرِّ والقَرِّ»[(٣)].

وعن أبي بصيرة، قال: أكل رسول الله ﷺ وناس من أصحابه أكلة من خبز شعير لم يُنْخَل، بلحم سمين، ثم شربوا من جدول، فقال: «هذا كله من النعيم الذي تُسْأَلُونَ عنه يوم القيامة».

وعن محمد بن محمود بن لبيد، قال: «لما نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فقرأها حتى بلغ: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أيّ النعيم نسأل، وإنما هو الأسودان: الماء، والتمر، وسيوفنا على عواتقنا، والعدوّ حاضر! قال: «إن ذلكَ سَيَكُونُ»[(٤)].

---

(١) تهذيب الآثار للطبري (٦٢٧).

(٢) وهو البيت لأنه يحجر ما بداخله عن الخارج، وورد بلفظ: «جحر» بتقديم الجيم، فإن صح فهو للمبالغة.

(٣) أحمد (٢١٣١٣). وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٢٢١).

(٤) الترمذي (٣٣٥٧) وقال الألباني: حسن لغيره.

وعن الضحاك بن عَرْزَم، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال: رسول الله ﷺ: «إنَّ أولَ ما يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَتُروَ مِنَ الماءِ البارِدِ»(١).

وعن عبد الله بن سخبرة قال: ما أصبح أحد بالكوفة إلا ناعمًا، إن أهونهم عيشًا الذي يأكل خبز البرّ، ويشرب ماء الفرات، ويستظلّ من الظلّ، وذلك من النعيم.

وقال آخرون: ذلك كلّ ما التذّه الإنسان في الدنيا من شيء. قال مجاهد في قول الله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال: عن كل شيء من لذّة الدنيا. وقال قتادة: إن الله عزّ وجل سائل كلّ عبد عما استودعه من نِعَمه وحقّه.

وكان الحسن وقتادة يقولان: ثلاث لا يُسأَل عنهنّ ابن آدم، وما خلاهنّ فيه المسألة والحساب إلا ما شاء الله: كسوة يواري بها سوأته، وكسرة يشدّ بها صلبه، وبيت يظله.

والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عمّ بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم،

(١) الترمذي (٥/٤٤٨) (٣٣٥٨) وقال: غريب. والحاكم (٤/١٥٣) (٧٢٠٣) وقال: صحيح الإسناد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٢) والصحيحة (٥٣٨).

لا عن بعض دون بعض[(١)]»[(٢)].

وقد بيَّن الله تعالى قدر الدنيا وحقيقتها وحقارتها وفناءها فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] قال أبو جعفر الطبري: «يقول: ما باغي لذاتِ الحياة التي أدْنيت لكم وقرّبت منكم في داركم هذه، ونعيمَها وسرورَها فيها، والمتلذذُ بها، والمنافسُ عليها إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذِ فيها بملاذّها، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فَتُمِرُّ عليه وتكدُر، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويُورثه منه تَرحًا. يقول: لا تغتروا، أيها الناس بها، فإن المغتر بها عمّا قليل يندم ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ﴾ يقول: وللعمل بطاعته، والاستعدادُ للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرورُ أهلها فيها، خيرٌ من الدار التي تفنى وشيكًا، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيم»[(٣)].

وقال جل ذكره ممثلًا حقيقة الدنيا وغرورها بمثال محسوس ملموس: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ

---

(١) وهذا من اختلاف التنوع لا التضاد، فكلٌّ حقّ وصواب.

(٢) تفسير الطبري (٢٤/ ٥٨٠ - ٥٨٦) بتصرف واختصار.

(٣) تفسير الطبري (١١/ ٣٢٩).

﴿شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] «يقول تعالى ذكره: اعلموا أيها الناس أن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم، ما هي إلا لعب ولهو تتفكَّهون به، وزينة تتزيَّنون بها، وتفاخر بينكم، يفخر بعضكم على بعض بما أُولي فيها من رياشها. ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فيباهي بعضكم بعضًا بكثرة الأموال والأولاد ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ثم ييبس ذلك النبات. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد أن كان أخضرَ نضرا. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: نبتًا يابسًا متهشمًا. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لأهل الإيمان بالله ورسوله.

قال قتادة عند قول الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...﴾ الآية: صار الناس إلى هذين الحرفين في الآخرة.

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: وما زينة الحياة الدنيا المعجلة لكم أيها الناس، إلا متاع الغرور. وعن أبي هريرة قال، قال النبيّ ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَما فيها»(١).

ثم قال سبحانه: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، التي أعدّها الله للذين آمنوا بالله ورسله، فضل الله تفضل به على المؤمنين،

(١) البخاري (٣٠٧٨).

والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه، وهو ذو الفضل العظيم عليهم، بما بسط لهم من الرزق في الدنيا، ووهب لهم من النِّعم، وعرّفهم موضع الشكر، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ما وصف أنه أعدّه لهم»[١].

وقال سبحانه وبحمده منكرًا على من لا يعقل حقيقة الدارين ومؤثر الدنية الفانية على العالية الباقية: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما كان السياق للخسارة، وكانت أكثر ما تكون من اللعب ـ وهو فعل ما يزيد سرور النفس على وجه غير مشروع[٢]، ويسرع انقضاؤه ـ قدمه فقال: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي للأشقياء، وللحياة الدنيا شر للذين يلعبون، واللهو ما من شأنه أن يعجب النفس كالغناء والزينة من المال والنساء على وجه لم يؤذن فيه، فيكون سببًا للغفلة عما ينفع، فتأخيره إشارة إلى أن الجهلة كلما فتروا في اللعب وهو اشتغال بالأمور السافلة والشواغل الباطلة بعلوّ النفوس أثاروا الشهوات بالملاهي، والمعنى أنه تحقق من هذه الآيات زوال الدنيا، فتحققت سرعته، لأن كل آتٍ قريب، فحينئذ ما هي إلا ساعة لعب، يندم الإنسان على ما فرط فيها، كما يندم اللاعب ـ إن كان له عقل ـ على تفويت الأرباح إذا رأى ما حصل أولو

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٩٥).

(٢) من اللعب ما يكون مشروعًا، قال ﷺ: **«كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله، فإنهنّ من الحق»** رواه الترمذي (١٦٣٧) وقال: حسن صحيح.

الجد وأرباب العزائم.

ولما كان التقدير بما أرشد إليه المعنى: وما الدار الآخرة إلا جد وحضور وبقاء للأتقياء، أتبعه قوله مؤكدًا: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ ولما كان الكل مآلهم إلى الآخرة، خصص فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يوجدون التقوى، وهي الخوف من الله الذي يحمل على فعل الطاعات وترك المعاصي، ليكون ذلك وقاية لهم من غضب الله، فذكر حال الدنيا وحذف نتيجتها لأهلها لدلالة ثمرة الآخرة عليه، وحذف ذكر حال الآخرة لدلالة ذكر حال الدنيا عليه، فهو احتباك؛ ولما كان من شأن العقلاء الإقبال على الخير وترك غيره، تسبب عن إقبالهم على الفاني وتركهم الباقي قوله منكرًا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «**إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**» فقال رجل: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشر؟ فسكت النبي ﷺ فقيل له: ما شأنك تكلم النبي ﷺ ولا يكلمك؟ فرأينا أنه ينزل عليه، قال: فمسح عنه الرُّحَضَاء[٢] فقال: «**أين السائل؟**» فكأنه حمده، فقال: «**إنه لا يأتي الخير بالشر، وإن مما ينبت الربيع يقتل حَبَطًا**[٣]**، أو يُلِمُّ، إلا آكِلَةَ الخَضِرِ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس، فثلطت، وبالت،**

---

(١) نظم الدرر للبقاعي (٣/ ٤٣ - ٤٤).

(٢) الرُّحَضَاء: عرق الحمى، وقد رحض ورحضت الثوب: غسلته.

(٣) حبطًا: أي انتفخ من كثرة الأكل، أو من أكل ما لا يوافقه.

ورتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل - أو كما قال النبي ﷺ - **وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة»**[(١)].

قال ابن بطّال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال المهلب: احتج قوم بهذا الحديث في تفضيل الفقر على الغنى، وليس كما تأوّلوه، بل هو حجة عليهم، لأن النبي ﷺ لم يخش عليهم ما يفتح عليهم من زهرة الدنيا إلا إذا ضيعوا ما أمرهم الله به من إنفاقه في حقه، وإذا كسبوه من غير وجهه.

وقوله ﷺ: «**لا يأتي الخير بالشر**» يعنى المال إذا كسب من وجهه وفعل به ما أمرهم الله، ثم ضرب لهم مثلًا بقوله: «**وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطًا أو يلم**» يعني أن الاستكثار من المال والخروج من حدّ الاقتصاد فيه ضار، كما أن الاستكثار من المأكل مسقم، ضرب هذا مثلًا للحريص على جمع المال، المانع له من حقه، والربيع تنبت فيه أحرار الشعب التي تحلوليها الماشية؛ فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها فتهلك.

وقوله: «**أو يُلِمّ**» يعنى يقرب من الهلاك، يقال: ألم الشيء: قرب، وقوله: «**إلا آكلة الخضر**» يعنى التي تخرج مما جمعت منه ورعت ما ينفعها إخراجه - وتبقي ما ينفعها ولا يضرها باجتراره - فهذا لا يقتلها ما رعت، فضرب هذا ﷺ مثلًا لمن تصدق، وأخرج من ماله ما ينفعه إخراجه مما لو أمسكه لضره

---

(١) البخاري ١٤٩/٢ (١٤٦٥) ومسلم ١٠١/٣ (١٠٥٢) (١٢٣).

إثمه كما يضر التي رعت لو أمسكت البول والغائط ولم تخرجه.

وقال(١): الخضر ليس من أحرار البقول التى تسكثر منها الماشية فتنهكه أكلًا، ولكن من الجنبة التي ترعاها بعد هيج الشعب ويبسه، وأكثر ما رأيت العرب تقول: الخضر لِمَا اخضرّ من الكلأ الذى لم يصفرّ، والماشية من الإبل ترتع منه شيئًا فشيئًا، فلا تستكثر منه فلا تحبط بطونها عليه، وقد ذكره طرفة، وبين أنه ينبت في الصيف فقال:

كبنــــاتِ المَخْــــرِ يَمْـــأَدْنَ إذا ... أنبــتَ الصَّــيفَ عَســاليجَ الخَــضِر

والخضر من كلأ الصيف، وليس من أحرار بُقول الربيع، والنَّعَمُ لا تَستَوبِلَه - أي لا تستوخمه وتستثقله - ، ولا تحبط بطونها عليه، وأما قوله: «**وإن هذا المال خضرة**» فإن العرب تسمي الشيء الحسن المشرق خضرًا تشبيها بالنبات الأخضر الغض، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام: ٩٩] ومنه قولهم: اختضر الرجل، إذا مات شابًّا، لأنه يؤخذ في وقت الحسن والإشراق، يقول: إن المال يعجب الناظرين إليه، ويحلو في أعينهم، فيدعوهم حسنه إلى الاستكثار منه، فإذا فعلوا ذلك تضرروا به، كالماشية إذا استكثرت في المرعى ثلطت، والثلط: السلح الرقيق.

وفيه: أن المكتسب للمال من غير حله غير مبارك له فيه، لقوله: «**كالذي يأكل ولا يشبع**» لأن الله تعالى قد رفع عنه البركة، وألقى في قلوب آكليه

---

(١) وهو الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومكتسبيه الفاقة، وقلة القناعة، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] فالمحق أبدا في المال المكتسب من غير الواجب.

قوله: «**يكون شهيدًا عليه يوم القيامة**» يعنى، والله أعلم، أنه يمثل له ماله شجاعًا أقرع[(١)] ويأتيه في صورة تشهد عليه بالخيانة، لأنه آية معجزة، ولا أكبر شهادة من المعجزات، وفيه: أن للعالم أن يُحذّر من يجالسه من فتنة المال وغيره، وينبههم على مواضع الخوف من الافتتان به، كما قال ﷺ: «**إن مما أخشى عليكم**» فوصف لهم ما يخاف عليهم، ثم عرفهم بمداواة تلك الفتنة، وهى إطعام المسكين واليتيم وابن السبيل، وقد جاء عن النبي ﷺ أن الصدقة على اليتيم تذهب قساوة القلب»[(٢)].

إن التعلق بالدنيا مفض إلى ضعف التعلق بالله تعالى، فالدنيا متاع وممر، لا منزل ومستقر، والقلب بطبيعته يتعلق بما يراه مصلحة له، وإن كانت النفس مولعة بحب العاجل!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والزهد في الدنيا سبب لمحبة الله عبدَه، فعَن سهلِ بن سعد السَّاعدي قال: جاءَ رجُل إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رَسولَ الله

---

(١) كما في حديث من لم يؤد زكاة ماله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان له مالٌ فلم يؤد حقَّهُ؛ جُعِلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعٌ أَقْرَعُ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يَتْبَعُهُ حَتَّى يَضَعَ يَدَهُ فِي فِيهِ، فَلَا يَزَالُ يَقْضِمُهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ**». رواه أحمد (٧٧٤٢) والبخاري (١٢: ٢٩٤).

(٢) شرح ابن بطال لصحيح البخاري (٦/ ٣٠- ٣٣) باختصار.

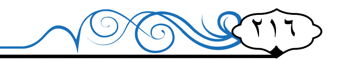
دُلَّني على عَمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي الله، وأحَبَّني النَّاسُ، فقال: «ازهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ الله، وازهَدْ فيمَا في أيدي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»(١). «فأمَّا الزُّهد في الدُّنيا، فقد كثُر في القُرآن الإشارة إلى مدحه، وإلى ذمّ الرغبة في الدُّنيا، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦- ١٧]، وقال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] وقال تعالى في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٩- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال عن مؤمن آل فرعون أنَّه قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وقد ذمَّ الله مَنْ كان يُريد الدُّنيا بعمله وسعيه ونيَّته. والأحاديث في ذمِّ الدُّنيا وحقارتها عند الله كثيرةٌ جدًّا، منها ما في صحيح مسلم(٢) عن جابر أنَّ

(١) رَواهُ ابنُ ماجه (٤١٠٢) بسند حسن.

(٢) مسلم (٨/ ٢١٠ - ٢١١) (٢٩٥٧).



النَّبيَّ ﷺ مرَّ بالسُّوقِ والنَّاسُ كَنَفَيْهِ(١) فمرَّ بجديٍّ أسكَّ(٢) ميِّتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، فقال: «**أيُّكم يُحبُّ أنَّ هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحبُّ أنَّه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «**أتحبُّون أنَّه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنَّه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «**والله للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم**».

وفيه أيضًا(٣) عن المستورد الفهري، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**ما الدُّنيا في الآخرة إلاَّ كما يَجْعَلُ أحدُكم أصبعَهُ في اليمِّ، فلينظر بماذا ترجع**».

وخرَّج الترمذي(٤) من حديث سهل بن سعد، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**لو كانتِ الدُّنيا تعدِلُ عندَ الله جناح بعوضةٍ، ما سقى كافرًا منها شربةً**».

ومعنى الزهد في الشيء: الإعراضُ عنه لاستقلاله، واحتقاره، وارتفاع الهمَّةِ عنه، يقال: شيء زهيد، أي: قليل حقير.

وقد تكلَّم السَّلفُ ومَنْ بعدَهم في تفسير الزُّهد في الدُّنيا، وتنوَّعت عباراتهم عنه، قال أبو مسلم الخولاني: «ليس الزهادةُ في الدُّنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، إنَّما الزهادة في الدُّنيا أنْ تكونَ بما في يد الله أوثق مما في

(١) الكَنَفَ: الجانِب والناحِية.
(٢) الأسكَّ: صغير الأُذنين. وقيل: صغير الأذنين ملتصقهما. وقيل: الذي لا أذنان له، والذي قطعت أذناه.
(٣) مسلم ٨/١٥٦ (٢٨٥٨) (٥٥).
(٤) في جامعه (٢٣٢٠) وصححه. وكذا صححه الألباني.

يديك، وإذا أُصِبْتَ بمصيبةٍ، كنت أشدَّ رجاءً لأجرها وذُخرها مِن إيَّاها لو بقيت لك»(١) زاد ابن أبي الدنيا: «وأنْ يكون مادحُك وذامُّك في الحقِّ سواء»(٢).

ففسر الزهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء كُلُّها من أعمال القلوب، لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان يقول: «لا تَشْهَدْ لأحدٍ بالزُّهد، فإنَّ الزُّهد في القلب».

أحدها: أنْ يكونَ العبدُ بما في يد الله أوثقَ منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ مِنْ صحَّة اليقين وقوَّته، فإنَّ الله ضَمِن أرزاقَ عباده، وتكفَّل بها، كما قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال الحسن: إنَّ مِنْ ضعف يقينك أنْ تكونَ بما في يدك أوثقَ منك بما في يد الله عز وجل.

وروي عن ابن مسعود قال: «إنَّ أرجى ما أكون للرزق إذا قالوا: ليس في البيت دقيق». وقال مسروقٌ: «إنَّ أحسن ما أكون ظنًّا حين يقول الخادم: ليس

(١) الزهد للإمام أحمد (٩٦).
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٣/ ٨).

في البيت قفيزٌ من قمحٍ ولا درهمٌ»[١].

وقال الإمامُ أحمد: «أسرُّ أيامي إليَّ يوم أُصْبِحُ وليس عندي شيء»[٢].

وقيل لأبي حازم الزاهد: ما مالُك؟ قال: «لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثِّقةُ بالله، واليأسُ ممَّا في أيدي الناس»[٣].

وقال الفضيلُ بن عياض[٤]: «أصلُ الزُّهد الرِّضا عَنِ الله عز وجل». وقال: «القُنُوعُ هو الزهد، وهو الغنى».

فمن حقق اليقين، وثق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك مِنْ طلب الدُّنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك، كان زاهدًا في الدُّنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإنْ لم يكن له شيء من الدُّنيا كما قال عمَّار: «كفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلًا»[٥].

والثاني: أنْ يكونَ العبدُ إذا أُصيبَ بمصيبةٍ في دُنياه مِنْ ذهابِ مالٍ، أو ولدٍ، أو غير ذلك، أرغبَ في ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه مِنَ الدُّنيا أنْ يبقي له،

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٤٨٧١).
(٢) صفة الصفوة (٢/٣٤٥).
(٣) الدينوري في المجالسة (٩٦٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/٢٣١ - ٢٣٢).
(٤) الدينوري في المجالسة (٩٦٠).
(٥) البيهقي في شُعب الإيمان (١٠٥٥٦).

وهذا أيضًا ينشأُ مِنْ كمالِ اليقين.

وعن ابن عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول في دعائه: «**اللهُمَّ اقسم لنا مِنْ خشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصِيكَ، ومِنْ طاعتك ما تبلِّغُنا به جنَّتك، ومِنَ اليقين ما تهوِّنُ به علينا مصائبَ الدُّنيا**»(١) وهو من علامات الزُّهد في الدُّنيا، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، كما قال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من زهد في الدُّنيا، هانت عليه المصيباتُ».

والثالث: أنْ يستوي عندَ العبد حامدُه وذامُّه في الحقِّ، وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا، واحتقارها، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، فإنَّ من عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحق خشيةَ الذَّمِّ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح، فمن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ؛ دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ، وما فيه رضا مولاه، كما قال ابن مسعود: «اليقين أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخط الله». وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

وقال الحسن: «الزاهد الذي إذا رأى أحدًا قال: هو أفضل مني». وهذا يرجع إلى أنَّ الزاهد حقيقةً هو الزَّاهدُ في مدح نفسه وتعظيمها، ولهذا يقال: الزهد في الرِّياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة، فمن أخرج مِنْ قلبه حبَّ الرياسة في الدُّنيا، والتَّرفُّع فيها على الناس، فهو الزاهد حقًّا، وهذا هو الذي

(١) الترمذي (٣٥٠٢). وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٦).

يستوي عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ.

وسئل الإمام أحمد عمَّن معه مالٌ: هل يكون زاهدًا؟ قال: «إنْ كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه».

وقال سفيان الثوري: «الزهد في الدُّنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء»(١) وقال: كان من دعائهم: «اللّهم زهِّدنا في الدُّنيا، ووسِّع علينا منها، ولا تزوِها عنا، فترغِّبنا فيها». وكذا قال الإمام أحمد: «الزُّهد في الدُّنيا قِصَرُ الأملِ واليأسُ مما في أيدي الناس».

ووجه هذا أنَّ قِصَرَ الأملِ يُوجِبُ محبَّةَ لقاء الله بالخروج من الدُّنيا، وطول الأمل يقتضي محبَّةَ البقاءِ فيها، فمن قصُرَ أملُه، فقد كره البقاء في الدُّنيا، وهذا نهاية الزُّهد فيها، والإعراض عنها، واستدل ابنُ عيينة لهذا القول بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦].

وأفضل الزُّهدِ: الزُّهدُ في الشِّركِ، وفي عبادةِ ما عُبِدَ من دُونِ الله، ثمَّ الزُّهدُ في الحرام كلِّه من المعاصي، ثمَّ الزُّهدُ في الحلال، وهو أقلُّ أقسام الزهد، فالقسمان الأولان من هذا الزهد، كلاهما واجبٌ، والثَّالث: ليس بواجبٍ، فإنَّ أعظمَ الواجبات: الزُّهد في الشِّركِ، ثم في المعاصي كلِّها. وكان بكرٌ المزنيُّ يدعو

(١) وكيع في الزهد ١/٢٢٢ (٦).

لإخوانه: «زهَّدنا الله وإياكم زُهْدَ مَنْ أمكنه الحرام والذنوب في الخلوات، فعلم أنَّ الله يراه فتركه».

واعلم أنَّ الذمَّ الوارد في الكتاب والسُّنَّة للدُّنيا ليس هو راجعًا إلى زمانها الذي هو اللَّيل والنَّهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، فإنَّ الله جعلهما خِلفَةً لمن أراد أنْ يذَّكَّرَ أو أراد شكورًا. ويُروى عن عيسى عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ هذا الليل والنهار خزانتان، فانظُروا ما تضعُون فيهما». وكان يقول: «اعملوا اللَّيل لما خلق له، والنَّهار لما خلق له».

وليس الذمُّ راجعًا إلى مكان الدُّنيا الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مِهادًا وسكنًا، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الشَّجر والزرع، ولا إلى ما بثَّ فيها من الحيوانات وغير ذلك، فإنَّ ذلك كُلَّه مِنْ نعمة الله على عباده بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانيَّة صانعه وقُدرته وعَظَمَتِهِ، وإنَّما الذَّمُّ راجعٌ إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدُّنيا؛ لأنَّ غالبها واقعٌ على غير الوجه الذي تُحمَدُ عاقبتُه، بل يقعُ على ما تضرُّ عاقبتُه، أو لا تنفع، كما قال عز وجل: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ [الحديد: ٢٠].

والمنتسبون إلى شرائع المرسلين منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

فالظالم لنفسه: هم الأكثرون منهم، وأكثرهم وقف مع زهرةِ الدُّنيا

وزينتِها، فأخذها مِن غير وجهها، واستعملها في غيرِ وجهها، وصارت الدُّنيا أكبرَ همِّه، لها يغضب، وبها يرضى، ولها يُوالي، وعليها يُعادي، وهؤلاء هم أهلُ اللَّهو واللَّعب والزِّينة والتَّفاخر والتَّكاثر، وكلُّهم لم يعرفِ المقصودَ من الدُّنيا، ولا أنَّها منزلُ سفرٍ يتزوَّدُ منها لِمَا بعدَها مِنْ دارِ الإقامة، وإنْ كان أحدُهم يُؤمِنُ بذلك إيمانًا مجمَلًا، فهو لا يعرفه مفصَّلًا، ولا ذاقَ ما ذاقَهُ أهلُ المعرفة بالله في الدُّنيا ممَّا هو أنموذَجُ ما ادُّخر لهم في الآخرة.

والمقتصد منهم أخذَ الدُّنيا مِنْ وجوهها المباحَةِ، وأدَّى واجباتها، وأمسك لنفسه الزَّائِدَ على الواجب، يتوسَّعُ به في التمتُّع بشهواتِ الدُّنيا، وهؤلاءِ قدِ اختُلف في دخولهم في اسم الزَّهادَةِ في الدُّنيا كما سبق ذكره، ولا عقاب عليهم في ذلك، إلاَّ أنَّه ينقصُ من درجاتهم من الآخرة بقدر توسُّعهم في الدُّنيا(١).

قال ابن عمر: «لا يصيبُ عبدٌ مِنَ الدُّنيا شيئًا إلاَّ نقص من درجاته عند الله، وإنْ كان عليه كريمًا»(٢).

وروى الإمام أحمدُ في كتاب الزهد بإسناده: أنَّ رجلًا دخل على معاوية، فكساه، فخرج فمرَّ على أبي مسعود الأنصاري ورجلٍ آخر من الصَّحابة، فقال أحدهما له: خذها مِنْ حسناتِك، وقال الآخر: من طيِّباتك.

---

(١) وهذا ملحظ في غاية الخطر، فليتنبه له المتقون الموفقون.

(٢) خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا بإسناد جوده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٣/ ١٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٢٠) وانظر: هناد في الزهد (٥٥٧) وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٠٦).

وبإسناده عن عمر قال: «لولا أنْ تنقص حسناتي لخالطتكم في لين عَيشِكُم، ولكنِّي سمعت الله عيَّرَ قومًا، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]»(١).

وقال الفضيل بن عياض: «إنْ شئت استَقِلَّ مِنَ الدُّنيا، وإنْ شئت استكثر منها فإنَّما تأخُذُ مِن كيسك».

ويشهد لهذا أنَّ الله عز وجل حرَّم على عباده أشياءَ مِنْ فضول شهواتِ الدُّنيا وزينتها وبهجتها، حيث لم يكونوا محتاجين إليه، وادَّخره لهم عنده في الآخرة، وقد وقعت الإشارة إلى هذا بقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥].

وصحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَنْ لبس الحَرِيرَ في الدُّنيا، لم يلبسه في الآخرة»(٢) و«من شرب الخمر في الدُّنيا لم يشربها في الآخرة»(٣).

قال وهب: إنَّ الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: «إنِّي لأذودُ أوليائي عن نعيم الدُّنيا ورخائها كما يذودُ الرَّاعي الشفيقُ إبِلَه عن مبارك العُرَّةِ، وما

(١) الطبري في تفسيره (٢٤١٩٦) بنحوه.
(٢) البخاري ١٩٣/٧ (٥٨٣٢)، ومسلم ١٤٢/٦ - ١٤٣ (٢٠٧٣).
(٣) البخاري ١٣٥/٧ (٥٥٧٥)، ومسلم ١٠٠/٦ (٢٠٠٣).

ذلك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالمًا موفَّرًا لم تَكْلَمْه الدُّنيا»(١).

ويشهد لهذا ما خرَّجه الترمذي عن قتادة بن النُّعمان، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبدًا حماه عَنِ الدُّنيا، كما يَظَلُّ أحدُكُمْ يحمي سقيمَه الماءَ»(٢) وفي صحيح مسلم(٣) عن عبد الله بن عمرو، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «الدُّنيا سجنُ المؤمن، وجنَّة الكافر».

وأمَّا السَّابقُ بالخيرات بإذن الله، فهمُ الَّذينَ فهِمُوا المرادَ مِنَ الدُّنيا، وعَمِلُوا بمقتضى ذلك، فعلموا أنَّ الله إنَّما أسكنَ عبادَه في هذه الدَّارِ، ليبلوهم أيُّهم أحسنُ عملًا، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال بعض السَّلف: أيهم أزهد في الدُّنيا، وأرغبُ في الآخرة، وجعل ما في الدُّنيا مِنَ البهجة والنُّضرة مِحنَةً، لينظر من يقف منهم معه، ويَركَن إليه، ومن

---

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ١/١١ - ١٢ من طرق عن ابن عباس، بنحوه. والعُرَّة: هي ذرق الطير، وعذرة الناس، والبعر، والسِّرجين ونحوها مما يُستقذر.

(٢) الترمذي (٢٠٣٦) وحسنه، وابن حبان (٦٦٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٣) ٨/٢١٠ (٢٩٥٦).

ليس كذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ ثم بيَّن انقطاعه ونفاده فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: ٧- ٨]، فلمَّا فهِموا أنَّ هذا هو المقصود مِنَ الدُّنيا، جعلوا همَّهم التزوُّدَ منها للآخرة التي هي دارُ القرار، واكتفوا مِنَ الدُّنيا بما يكتفي به المسافرُ في سفره، كما كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**ما لي وللدُّنيا، إنَّما مثلي ومثل الدُّنيا كراكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ، ثم راح وتركها**»(١).

ووصَّى ﷺ جماعةً من الصحابة أنْ يكون بلاغُ أحدِهم مِنَ الدُّنيا كزادِ الراكب، منهم: سلمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو ذرٍّ، وعائشة، ووصَّى ابنَ عمرَ أنْ يكونَ في الدُّنيا كأنَّه غريبٌ أو عابرُ سبيل(٢) وأنْ يَعُدَّ نفسه من أهل القبور.

وأهل هذه الدرجة على قسمين: منهم من يقتصرُ من الدُّنيا على قدر ما يسدُّ الرَّمق فقط، وهو حالُ كثيرٍ من الزُّهَّادِ. ومنهم من يفسح لنفسه أحيانًا في تناول بعض شهواتِها المباحةِ؛ لتقوى النَّفسُ بذلك، وتنشَط للعملِ، كما روي عنِ النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**حُبِّبَ إليَّ من دنياكمُ النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة**»(٣).

(١) أحمد ٣٩١/١ و٤٤١، وابن ماجه (٤١٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧) وصححه. وصححه أيضًا أحمد شاكر في تخريج المسند.
(٢) البخاري ١١٠/٨ (٦٤١٦).
(٣) خرَّجه الإمام أحمد (١٢٨/٣ و١٩٩ و٢٨٥) من حديث أنس. وصححه ابن القيم =

وقال وهب: مكتوبٌ في حكمة آل داود عليه السلام: «ينبغي للعاقل أنْ لا يَغْفل عن أربع ساعاتٍ: ساعةٍ يُحاسِبُ فيها نفسه، وساعةٍ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٍ يلقى فيها إخوانه الذين يُخبرونه بعيُوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعةٍ يُخلي بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحلُّ ويجمل، فإنَّ في هذه السَّاعة عونًا على تلك الساعات، وفضلَ بُلغة واستجمامًا للقلوب»(١) يعني: ترويحًا لها.

ومتى نوى المؤمن بتناول شهواته المباحة التقوِّي على الطاعة كانت شهواتُه له طاعة يُثابُ عليها، كما قال معاذ بن جبل: «إنِّي لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»(٢) يعني: أنَّه ينوي بنومه التَّقوِّي على القيام في آخر الليل، فيحتسِبُ ثوابَ نومِهِ كما يحتسب ثواب قيامه.

وقال سعيد بن جبير: «متاعُ الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنَّه متاعُ بلاغٍ إلى ما هو خيرٌ منه»(٣).

وعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «نعمتِ الدَّارُ الدُّنيا لمن تزوَّد منها لآخرته حتَّى يُرضِيَ ربَّهُ، وبئستِ الدَّارُ لمن صدَّته عن آخرته، وقصَّرت به عن رضا ربِّه،

=

في الزاد (٣٠٨/٤) وقوّى سنده الذهبي في ميزان الاعتدال (١٧٧/٢) وصححه الأرناؤوط في تخريج جامع العلوم والحكم (١٩٠/٢).

(١) البيهقي في شُعب الإيمان (٤٦٧٧) و(٤٦٧٨).

(٢) عبد الرزاق (٥٩٥٩)، وأحمد (٤٠٩/٤).

(٣) نعيم بن حماد في زوائده على الزهد لابن المبارك (١٤٠).

وإذا قال العبد: قبَّحَ الله الدُّنيا، قالت الدُّنيا: قبَّح الله أعصانا لربِّه»[١].

وقال بعضُ الحكماء: «الدُّنيا أمثالٌ تضرِبُها الأيَّامُ[٢] للأنام، وعلمُ الزَّمان لا يحتاجُ إلى تَرجُمان، وبحبِّ الدُّنيا صُمَّتْ أسماعُ القلوب عنِ المواعظ، وما أحثَّ السائقَ لو شعرَ الخلائقُ!».

وأهل الزُّهد في فضول الدُّنيا أقسام: فمنهم من يحصلُ له، فيمسكه ويتقرَّبُ به إلى الله، كما كان كثيرٌ مِنَ الصَّحابة وغيرهم، قال أبو سليمان: «كان عثمان وعبد الرحمن بن عوف خازنين من خزان الله في أرضه، يُنفقان في طاعته، وكانت معاملتُهما لله بقلوبِهما»[٣].

ومنهم من يُخرجه مِنْ يده، ولا يُمسكه، وهؤلاء نوعان: منهم من يُخرجه اختيارًا وطواعية، ومنهم من يُخرجهُ ونفسه تأبى إخراجه، ولكن يُجاهدُها على ذلك. وقد اختُلف في أيِّهما أفضل، فقال ابنُ السَّماك والجنيد: الأوَّل أفضلُ، لتحقُّق نفسه بمقامِ السَّخاءِ والزُّهد، وقال ابن عطاء: الثَّاني أفضل؛ لأنَّ له عملًا ومجاهدة. وفي كلام الإمام أحمد ما يدلُّ عليه أيضًا[٤].

---

(١) وروي مرفوعًا في المستدرك (٣١٢/٤ - ٣١٣) وفيه مجهول، فلا يثبت.

(٢) لأن الأيام هي قالب الزمن التي تجري فيه أقدار الله تعالى، فنسبها إليها ـ استعارة ـ لا على أنها الفاعلة. وهذا كثير في كلامهم، والأولى تركه.

(٣) أبو نعيم في الحلية (٥٦/١٠).

(٤) وذكر ابن كثير في تفسير سورة الحجرات عن كتاب الزهد للإمام أحمد عَنْ مجاهد قال: كُتب إلى عمرَ: يا أَمير الْمؤمنين رجلٌ لا يَشتَهِي المعصيَةَ ولا يعملُ بها أَفضَل أَم =

ومنهم من لم يحصُل له شيءٌ مِنَ الفُضولِ، وهو زاهدٌ في تحصيله، إمَّا مع قدرته، أو بدونها، والأوَّل أفضلُ مِنْ هذا، ولهذا قال كثيرٌ مِنَ السَّلفِ: «إنَّ عمرَ ابن عبد العزيز كان أزهدَ مِنْ أويس ونحوه»، كذا قال أبو سليمان[1] وغيرُه. وكان مالكُ بنُ دينار يقولُ: «الناسُ يقولون: مالكٌ زاهدٌ، إنَّما الزَّاهدُ عمر ابن عبد العزيز»[2].

وقد اختلف العلماء أيُّها أفضلُ: من طلبَ الدُّنيا منَ الحلال، ليصل رحمَه، ويقدِّم منها لنفسه، أم من تركها فلم يطلبها بالكُلّيَّة؟ فرجَّحت طائفةٌ من تركها وجانبها، منهم الحسن وغيره، ورجَّحت طائفةٌ من طلبها على ذلك الوجه، منهم النخعي وغيره، وروي عن الحسن عنه نحوه.

والزاهدون في الدُّنيا بقلوبهم لهم ملاحظُ ومشاهدُ يشهدونها، فمنهم من يشهدُ كثرةَ التَّعب بالسَّعي في تحصيلها، فهو يزهدُ فيها قصدًا لراحةِ نفسه. قال الحسن: «الزُّهد في الدُّنيا يُريح القلب والبدن».

ومنهم من يخافُ أنْ ينقصَ حظُّه من الآخرة بأخذ فضولِ الدُّنيا. ومنهم

=

رجلٌ يشْتَهي المعصِيَة ولا يَعمَل بها؟ فكتب عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إنَّ الَّذِينَ يَشْتَهُونَ الْمَعْصِيَة وَلَا يَعْمَلُونَ بِهَا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

(١) أبو نعيم في الحلية (٩/٢٧٢).

(٢) أبو نعيم في الحلية (٥/٢٥٧).

من يخافُ من طُولِ الحساب عليها، قال بعضهم(١): «من سأل الله الدُّنيا، فإنَّما يسأل طولَ الوُقوفِ للحساب».

ومنهم من يشهدُ كثرةَ عُيوبِ الدُّنيا، وسرعة تقلُّبها وفنائها، ومزاحمةَ الأراذِلِ في طلبها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهَّدكَ في الدُّنيا؟ قالَ: «قلَّةُ وفائها، وكثرةُ جفائها، وخسة شُركائها».

ومنهم من كان ينظر إلى حقارةِ الدُّنيا عند الله، فيقذرها، كما قال الفضيلُ: «لو أنَّ الدُّنيا بحذافيرها عرضت عليَّ حلالًا لا أحاسب بها في الآخرة، لكنت أتقذرها كما يتقذر الرَّجلُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أنْ تصيبَ ثوبه»(٢).

ومنهم من كان يخافُ أنْ تشغلَه عن الاستعدادِ للآخرة والتزوُّدِ لها. قال الحسن: «إنْ كان أحدهم ليعيش عمره مجهودًا شديدَ الجهد، والمالُ الحلال إلى جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتُصيب منه؟ فيقول: لا والله لا أفعل، إنِّي أخافُ

(١) أبو نعيم في الحلية ٨/٣٣٧ من قول بِشر بن الحارث.

(٢) أبو نعيم في الحلية ٨/٨٩، وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظر، فقد بُسطت الدنيا على بعض النبيين كداود وسليمان عليهما السلام، ولو كانت كذلك لنزههما الله منها، وكذلك بعض الصحابة كعثمان وعبد الرحمن والزبير وغيرهم وفيهم أسوة. وإن كانت السلامة لا يعدلها شيء، وقد زواها الله عن سادة أنبيائه، لكن المقام مقام مقارنة وبيان، وأنعم بالدنيا إن قرّبت لرضوان الله، وبئست إن أبعدت عنه، والبقية تفاصيلُ، وغايتها تحصيل التقوى لأهل الفلاح، والخذلان لمن هم له أهل، والله المستعان.

أنْ آتيه، فأصيبَ منه، فيكون فسادَ قلبي وعملي»(١).

وبُعِثَ إلى عمر بن المنكدر بمالٍ، فبكى واشتدَّ بكاؤه، وقال: «خشيت أنْ تغلب الدُّنيا على قلبي، فلا يكون للآخرة فيه نصيب، فذلك الذي أبكاني»، ثم أمر به، فتُصُدِّقَ به على فقراء أهل المدينة.

وخواص هؤلاء يخشى أنْ يشتغلَ بها عن اللهِ.

وقال أبو سليمان: «الزهد ترك ما يشغل عن الله». وقال: «كلُّ ما شغلك عن اللهِ مِنْ أهلٍ ومالٍ وولدٍ فهو مشؤوم». وقال: «أهلُ الزُّهد في الدُّنيا على طبقتين: منهم من يزهدُ في الدُّنيا، فلا يُفْتَحُ له فيها روح الآخرة، ومنهم من إذا زَهِدَ فيها فُتِحَ له فيها روحُ الآخرة، فليس شيءٌ أحبَّ إليه من البقاء ليطيع الله». وقال: «ليس الزاهد من ألقى همومَ الدُّنيا، واستراح منها، إنَّما الزَّاهد من زَهِدَ في الدُّنيا، وتعب فيها للآخرة»(٢).

فالزُّهد في الدُّنيا يُرادُ به تفريغُ القلب منَ الاشتغال بها؛ ليتفرَّغ لِطلب الله، ومعرفته، والقرب منه، والأُنس به، والشَّوقِ إلى لقائه، وهذه الأمورُ ليست مِنَ الدُّنيا كما كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «**حُبِّبَ إلي من دُنياكم النِّساءُ والطِّيبُ، وجُعلت قرَّةُ عيني في الصَّلاة**»(٣).

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩).

(٢) انظر: الحلية لأبي نعيم (٩/٢٥٨، ٩/٢٦٤، ٩/٢٧٤، ٩/٢٧٣).

(٣) النسائي (٣٩٣٩) وصححه الحاكم (٢ / ١٧٤) ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ =

وقال ﷺ: «**الدُّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها، إلاَّ ذكر الله وما والاه، أو عالمًا أو متعلمًا**»(١).

فالدُّنيا وكلُّ ما فيها ملعونة، أي: مُبعدَةٌ عن الله؛ لأنَّها تَشغلُ عنه، إلاَّ العلمَ النَّافع الدَّالَّ على الله، وعلى معرفته، وطلب قُرْبِه ورضاه، وذكر الله وما والاه ممَّا يُقَرِّبُ مِنَ الله، فهذا هو المقصودُ مِنَ الدُّنيا، فإنَّ الله إنَّما أمرَ عبادَه بأنْ يتَّقوه ويُطيعوه، ولازِمُ ذلك دوامُ ذكره، كما قال ابن مسعود: «تقوى الله حقّ تقواه أنْ يُذكَرَ فلا يُنسى»(٢).

وإنَّما شرعَ الله أقام الصَّلاةِ لذكره، وكذلك الحج والطَّواف. وأفضلُ أهل العبادات أكثرُهم ذكرًا لله فيها، فهذا كلُّه ليس مِنَ الدُّنيا المذمومة، وهو المقصودُ من إيجاد الدُّنيا وأهلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولنرجع إلى شرح حديث: «**ازهد في الدُّنيا يحبَّك الله**»(٣) فهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ الله يحبُّ الزاهدين في الدُّنيا. وقد ذمَّ الله تعالى من يحبُّ الدُّنيا

=
ابن حجر في فتح الباري (٣/ ١٥) و (١١ / ٣٤٥). ومرّ قريبًا.

(١) خرَّجه ابن ماجه (٤١١٢) والترمذي (٢٣٢٢) من حديث أبي هريرة، وقال: حسن غريب. وحسنه الأرناؤوط.

(٢) الطبري في تفسيره (٥٩٥٧).

(٣) ابنُ ماجه (٤١٠٢) بسند حسن. وصححه الألباني.

ويؤثِرها على الآخرة، كما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠- ٢١]، وقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، والمراد حبُّ المال، فإذا ذمَّ من أحبَّ الدُّنيا دلَّ على مدحِ مَنْ لا يحبُّها، بل يرفُضها ويترُكُها.

وفي المسند(١) عن زيد بن ثابت عن النَّبيِّ ﷺ، قال: **«من كانت الدُّنيا همه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدُّنيا إلا ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نيَّته، جمعَ الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدُّنيا وهي راغمةٌ»**.

قال الحسن: «من أحبَّ الدُّنيا وسرَّته، خرج حبُّ الآخرة من قلبه(٢)»(٣).

وقال عونُ بن عبد الله: «الدُّنيا والآخرةُ في القلب ككفَّتي الميزان بِقَدْرِ ما ترجحُ إحداهُما تخِفُّ الأخرى»(٤).

وقال وهب: «إنَّما الدُّنيا والآخرة كرجلٍ له امرأتانِ: إنْ أرضى إحداهما

---

(١) مسند أحمد (٥/١٨٣) بسند صحيح، وابن ماجه (٤١٠٥)، والطبراني في الكبير (٤٨٩١) و(٤٩٢٥)، وصححه ابن حبان (٦٨٠).

(٢) أي يخرج من قلبه جزءٌ من حب الآخرة بقدر حبه للدنيا، لأن المحل واحد والمحبة متباينة.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧٩/٧ و٢٢/١٠ من قول سفيان الثوري.

(٤) أبو نعيم في الحلية (٢٥١/٤).

أسخط الأخرى»(١).

وبكلِّ حالٍ، فالزُّهد في الدُّنيا شعارُ أنبياءِ الله وأوليائه وأحبَّائه، قال عمرو بن العاص: «ما أبعدَ هديكُم مِنْ هدي نبيِّكم ﷺ، إنّه كان أزهدَ النَّاس في الدُّنيا، وأنتم أرغبُ الناس فيها»(٢).

وقال ابن مسعود لأصحابه: «أنتم أكثرُ صومًا وصلاةً وجهادًا من أصحاب محمد ﷺ، وهُمْ كانوا خيرًا منكم، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في الدُّنيا، وأرغب منكم في الآخرة»(٣).

وقال أبو الدَّرداء: «لَئِنْ حَلفتُمْ لِي على رجلٍ أنَّه أزهدُكم، لأحلفنَّ لكم أنَّه خيرُكم»(٤).

الوصية الثانية: الزهدُ فيما في أيدي الناس، وأنَّه موجبٌ لمحبَّة الناس.

قال الحسن: «لا تزالُ كريمًا على الناس، ما لم تَعاطَ(٥) ما في أيديهم، فإذا فعلتَ ذلك، استخفُّوا بكَ، وكرهوا حديثك، وأبغضوك»(٦).

---

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٧).
(٢) الحاكم ٣١٥/٤، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٥١٩) و(١٠٦٩٩).
(٣) الحاكم ٣١٥/٤، وأبو نعيم في الحلية (١٣٦/١).
(٤) ابن المبارك في الزهد (٥٥٠).
(٥) أي تستشرف له وتطلبه.
(٦) أبو نعيم في الحلية (٢٠/٣).

وقال أيوب السَّختياني: «لا يَنْبُلُ الرجلُ حتى تكونَ فيه خصلتان: العفَّةُ عمَّا في أيدي الناس، والتجاوزُ عمّا يكون منهم»(١).

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر: «إنَّ الطمع فقر، وإنَّ اليأس غنى، وإنَّ الإنسانَ إذا أَيِسَ من الشيء استغنى عنه»(٢).

وروي أنَّ عبد الله بن سلام لقيَ كعب الأحبار عند عمر، فقال: يا كعب، مَنْ أربابُ العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما يذهب بالعلم من قلوب العلماء بعد إذ حفظوه وعقلوه؟ قال: يُذهبه الطمعُ، وشرَهُ النفس، وتطلّبُ الحاجات إلى النَّاس. قال: صدقت(٣).

وقد تكاثرت الأحاديثُ عن النَّبيِّ ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم، فمن سألَ النّاس ما بأيديهم، كرهوه وأبغضوه؛ لأنَّ المال محبوبٌ لنفوس بني آدم، فمن طلب منهم ما يحبُّونه، كرهوه لذلك.

وأما من كان يرى المِنَّة للسائل عليه، ويرى أنَّه لو خرج له عن مُلكِه كُلِّه، لم يفِ له ببذل سؤاله له وذِلَّته له، أو كان يقول لأهله: ثِيابُكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابُّكم تحتَ غيركم أحسن منها تحتكم، فهذا نادرٌ جدًّا

(١) أبو نعيم في الحلية ٣/ ٥ بنحوه.
(٢) أبو نعيم في الحلية (١/ ٥٠).
(٣) ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٦/٢ بنحوه مُختصرًا.

من طباع بني آدم، وقد انطوى بساطُ ذلك من أزمانٍ متطاولةٍ(١)!

وأما من زهد فيها في أيدي الناس، وعفَّ عنهم، فإنَّهم يحبُّونه ويُكرمونه لذلك ويسود به عليهم، كما قال أعرابيٌّ لأهل البصرة: من سيِّدُ أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بم سادهم؟ قالوا: «احتاجَ الناسُ إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم»(٢)(٣).

٣-اتباع الهوى.

الهوى هو الرغبة، وغالبًا ما يطلق على رغبة الشر لا الخير، وقيل إنما سمّي هوىً لأنه يهوي بصاحبه في المهالك والمتالف، ويوردها المخاسر والمعاطب. وقد ذكره الله تعالى في القرآن في معرض الذم والنهي، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النساء: ١٣٥] أي أن الهوى قائد للضلال وغضب الله، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ

(١) في الأمة خير كثير، ولا يخلو زمان من صالحين فضلاء، وزاهدين عظماء، قال النَّبيِّ ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوّله خير أو آخره» رواه ابن حبان في صحيحه (٧٢٢٦) والترمذي (٢٨٦٩) وأحمد (١٢٣٢٧) قال ابن تيمية: «معناه أن يكون في آخر الأمة من يقارب أولها حتى يشتبه على بعض الناس أيّهما خير، كما يشتبه على بعض الناس طرفا الثوب، مع القطع بأن الأول خير من الآخر». الفتاوى (٣٠٦/١٨).

(٢) أبو نعيم في الحلية ١٤٧/٢ - ١٤٨ بنحوه مُختصرًا.

(٣) انظر جامع العلوم والحكم ١٩٢/١- ١٩٩ وما مضى مختصر منه.

بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى: أفرأيت يا محمد من اتخذ معبوده هواه، فيعبد ما هوي من شيء دون إله الحقّ الذي له الأُلُوهَة من كلّ شيء، قال قتادة في قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: لا يهوي شيئًا إلا ركبه، لا يخاف الله.

وقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ أي: وخذله عن محجة الطريق، وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءته كل آية، وعن ابن عباس: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ يقول: أضله الله في سابق علمه.

وقوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ أي: وطَبَع على سمعه أن يسمع مواعظ الله وآي كتابه، فيعتبر بها ويتدبرها، ويتفكر فيها، فيعقل ما فيها من النور والبيان والهدى. ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾ أي: وطبع أيضًا على قلبه، فلا يعقل به شيئًا، ولا يعي به حقًّا. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ أي: وجعل على بصره غشاوة أن يبصر به حجج الله، فيستدّل بها على وحدانيته، ويعلم بها أن لا إله غيره. ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: فمن يوفِّقه لإصابة الحقّ، وإبصار محجة الرشد بعد إضلال الله إياه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيها الناس، فتعلموا أن من فعل الله به ما وصفنا، فلن يهتدي أبدًا، ولن يجد لنفسه وليًّا مرشدًا»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾: «يقول: وأما من خاف مسألة الله إياه عند وقوفه يوم القيامة بين يديه، فاتقاه

---

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٧٥-٧٧) مختصرًا.

بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ أي: ونهى نفسه عن هواها فيما يكرهه الله، ولا يرضاه منها، فزجرها عن ذلك، وخالف هواها إلى ما أمره به ربه ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ أي: فإن الجنة هي مأواه ومنزله يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾ [الرحمن: ٤٦- ٤٩] يقول تعالى ذكره: ولمن اتقى الله من عباده - فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه - جنتان، يعني بستانين.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وعد الله جلّ ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأدَّوا فرائضه الجنة. وقال: هو من خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله، وترك معصيته. وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ هو الرجل يهم بالذنب، فيذكر مقام ربه فينزع، فله جنتان. وقال قتادة: إن المؤمنين خافوا ذاكم المقام فعملوا له، ودانوا له، وتعبَّدوا بالليل والنهار، إن لله مقامًا قد خافه المؤمنون»(١).

ولما كان الهوى مهلكة كان الهدى فلاحًا، قال الله تعالى في وصف أهل الهدى الذين آثروا الله والدار الآخرة على حطام الدنيا وهواها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٥٢-٥٨، ٢٤/ ٢١٢).

﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

«قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلّون إذا غابوا[1]، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقول: تصديقا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره.

وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فرقت، أي: فزعت وخافت. وهذه صفة المؤمن حق المؤمن، الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف منه، ففعل أوامره، وترك زواجره. كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] قال

---

(١) جاء رجل إلى حذيفة فقال: يا أبا عبد الله؛ إني أخشى أن أكون منافقًا! قال: «تصلّي إذا خلوت، وتستغفر إذا أذنت؟» قال: نعم، قال: «اذهب فما جعلك الله منافقًا» تاريخ دمشق (٦٦٦١٦) والترغيب والترهيب (١/١٦٧).

السُّدّي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم ـ أو قال: يهم بمعصية ـ فيقال له: اتق الله فَيَجِلُ قلبه. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ ينبه بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها.

والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله(١)، فأحبُّهم إلى الله أنفعهم لخلقه.

قال قتادة في قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما

---

(١) بمعنى أن الله يعولهم ويرزقهم. وعند البزار (٣٣١٥) والطبراني في الأوسط (٥٥٤١) والبيهقي في الشعب (٧٠٤٨) من حديث ابن مسعود: «**الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله من أحسن إلى عياله**» قال الجلوني في كشف الخفاء (١/٤٥٧): «له طرق بعضها يقوي بعضًا» ووثق رجاله السفاريني الحنبلي في شرح كتاب الشهاب (٥٦٦).

هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم، أوشكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

وقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، ﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.

وقال الضحاك في قوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفلُ أنه فُضّل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل علِّيين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفقٍ من آفاق السماء**»، قالوا يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «**بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين**»(١).

وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن(٢) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما**

---

(١) البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) المسند (٣/٦١) وسنن أبي داود (٣٩٨٧) وسنن الترمذي (٣٦٥٨) وسنن ابن ماجه (٩٦). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٧٩) والأرناؤوط في تخريج المسند (١١٩٣٩).

ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا».

وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(١)][(٢)].

وقيادُ النفس لهُداها خير لها من اتّباع هواها، والحازم حقًّا هو من ألجم نفسه عن الردى، وخطمها بالهدى، فلا تحرن عن طاعة، ولا تجمح لعصيان. وتأمل قول الله تعالى في وصف المؤمن بأنه ينهى، فهو ذو نُهْيَةٍ وعقل، وذو رأي وحزم، قال: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: زجرها عن المعاصي والمحارم، فاتّق المحارم تكن أعبد الناس.

وقال سهل: «ترك الهوى مفتاح الجنة»، لقوله عز وجل: ﴿ئائائەئەئوئوئۇ ئۇئۆئۆ﴾ قال عبد الله بن مسعود: «أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحقَّ، فنعوذ بالله من ذلك الزمان»[(٣)]. فمأوى ذلك التقي هو جنات النعيم: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ أي المنزل[(٤)].

---

(١) البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١١) (٧/ ٥٠١ - ٥٠٧) مختصرًا.

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٨) وانظر كذلك: تفسير البغوي (٨/ ٣٣٠).

(٤) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والآيتان نزلتا في مصعب بن عمير وأخيه عامر بن عمير، فروى الضحاك عن ابن عباس قال: أما من طغى فهو أخ لمصعب بن عمير أسر يوم =



وقال الله مبيّنًا أن سبب المخالفة هو الهوى المستحكم في النفس الضالة

=

بدر، فأخذته الأنصار فقالوا: من أنت؟ قال: أنا أخو مصعب بن عمير، فلم يشدوه في الوثاق، وأكرموه وبيّتوه عندهم، فلما أصبحوا حدثوا مصعب بن عمير حديثه، فقال: ما هو لي بأخ، شدّوا أسيركم، فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليًّا ومالًا. فأوثقوه حتى بعثت أمه في فدائه.

ووقى مصعب بن عمير رسولَ الله ﷺ بنفسه يوم أحد حين تفرق الناس عنه، حتى نفذت المشاقص في جوفه ـ وهي السهام ـ فلما رآه رسول الله ﷺ مُتشحّطًا في دمه قال: «**عند الله أحتسبك**» وقال لأصحابه: «**لقد رأيته وعليه بردان ما تعرف قيمتهما، وإن شراك نعليه من ذهب**». وقيل: إن مصعب ابن عمير قتل أخاه عامرًا يوم بدر.

وعن ابن عباس أيضًا قال: نزلت هذه الآية في رجلين: أبي جهل بن هشام المخزومي ومصعب بن عمير العبدري.

وقال السدي: نزلت هذه الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ في أبي بكر الصديق رَضِوَاللَّهُعَنْهُ. وذلك أن أبا بكر كان له غلام يأتيه بطعام، وكان يسأله من أين أتيت بهذا، فأتاه يومًا بطعام فلم يسأل وأكله، فقال له غلامه: لم لا تسألني اليوم؟ فقال: نسيت، فمن أين لك هذا الطعام. فقال: تكهّنتُ لقوم في الجاهلية فأعطونيه. فتقيأه من ساعته وقال: يا رب ما بقي في العروق فأنت حبسته، فنزلت: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

وقال الكلبي: نزلت في مَن همّ بمعصية وقدر عليها في خلوة ثم تركها من خوف الله. ونحوه عن ابن عباس، يعني من خاف عند المعصية مقامه بين يدي الله، فانتهى عنها، والله أعلم». تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٨).

قلت: والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الوعد الكريم عام لكل من نهى نفسه عن هواها، وألزمها هداها، مخلصًا وجهه لله وهو محسن.

الظالمة: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] «فقسم الأمر إلى أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] فقسم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحق وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨- ١٩] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها، وأوحى إليه العمل بها، وأمر الأمة بها، وبيْن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأوّل ونهى عن الثاني»(١).

وجمع سبحانه ـ محذرًا سبيل الهالكين ـ بين الاستمتاع بالخلاق(٢) وبين الخوض بالباطل فقال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ

(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٧-٤٨).

(٢) الخلاق: هو الحظّ والنصيب.

مِن قَبۡلِكُمۡ بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩] «لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى.

وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كُذِّبت الرسل، وعُصيَ الرب، ودُخلت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها. وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات. وقال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣] وقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [ص: ٤٥]. وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل**

الكامل عند حلول الشهوات»(١).

فقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ إشارة إلى الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرًا ما يجتمعان، فقلّ من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله»(٢).

والموفق من يطلب الهدى طلبًا صادقًا من الله، ويضرع إليه ويسأله أن يكفيه شر نفسه وهواه، وأن يعيذه من الشيطان ومن الزيغ والعصيان بعد الهدى والإيمان، «قال تعالى عن أوليائه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾(٣) [آل عمران: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٣] وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٍ

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب: ٢/٢٥١ (١٠٨٠، ١٠٨١) وفيه عمر بن حفص العبدي وهو متروك. قال العراقي في تخريج الإحياء (٥/١٣٤): «فيه حفص بن عمر العدني، ضعّفه الجمهور».

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٣٦-١٣٧) وانظر: إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٨) وما بعدها.

(٣) قال ابن باز رحمه الله: «هذا دعاء الراسخين في العلم».

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ عام مطلق وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاص بأهل اليقين. ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونظيره في الخصوص قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقد أخبر أنه[١] هدى عام لجميع المكلفين فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣] فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، والبصائر جمع بصيرة - وهي فعيلة بمعنى مفعلة - أي مبصرة لمن تبصر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: مبينة موجبة للتبصر.

فالقرآن بصيرة وتبصرة وهدى وشفاء ورحمة بمعنى عام وبمعنى خاص، ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين وموعظة للمتقين، وهدى للمتقين وشفاء للعالمين وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين وموعظة للمتقين، فهو في نفسه هدى ورحمة وشفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتعظ واشتفى كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل، وإن لم يستعمله فهو دواء له بالقوة.

---

(١) أي: القرآن.

وكذلك الهدى فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدى به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون.

ومن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديًا، كما في الأثر: «من ازداد علمًا ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلا بعدًا». ولكن يسمى هدى لأن من شأنه أن يهدي. والله سبحانه قد أخبر أنه يهدي به، فالله الهادي وكتابه الهدى الذي يهدي به على لسان رسوله ﷺ.

فههنا ثلاثة أشياء: فاعل وقابل وآلة، فالفاعل: هو الله تعالى، والقابل: قلب العبد، والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل. والله سبحانه يهدي خلقه هدى، كما يقال: دلهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبين لهم بيانًا.

والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب إلى ربه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل فيتأثر به، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلى فساده، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥] وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلُّف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي تارة. ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى وهي الكبر والإعراض وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به، فالهدى في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى، ولأولئك هدى بلا رحمة.

والرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين عاجلة وآجلة: فأما العاجلة فما

يعطيهم الله تعالى في الدنيا من محبة الخير والبر وذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم ولما اختلف فيه من الحق بإذنه، فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيرًا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحًا بما آتاهم ربهم من الهدى، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، وهما اتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة.

ومُثِّلَ هذا بمسافرَين: أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتمّ؛ كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر.

وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: نعم العَدلان، ونعمت العلاوة. فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة.

والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى؛ كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩] وكان الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**»(١).

وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة كما قال أبو سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وكان أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أعلمنا به». يعني النبي ﷺ. فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

---

(١) رواه الترمذي (٤١٥٩) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني. ورواه أحمد (١٤٣٥٤). وصححه ابن العربي في العواصم من القواصم (٢٥٢).

وهكذا الرجل، كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلمًا، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه، والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول.

فكم من مكرم لنفسه بزعمه وهو لها مهين، ومرفّه لها وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها. فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه، فقد بخسها حظها وأضاع حقها وعطل مصالحها وباع نعيمها الباقي ولذتها الدائمة الكاملة بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة، فلو هُدي ورُحِم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب تعالى أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة، فهو الذي يؤتيها العبد كما قال عن عبده الخضر: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا»[(١)].

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٠-١٧٤) باختصار يسير.

والقامع هواه شديد الخشية لله تعالى، عظيم الرجاء به، يكدح في مراضيه ويلتذ بالقُرْبِ منه وبالقُرَبِ إليه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١] «وقد روى الترمذي في جامعه(١) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سألت رسول الله عن هذه الآية فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدقون، ويخافون ألّا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات**».

والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن، ومن تأمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير ـ بل التفريط ـ والأمن! فهذا الصديق يقول: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن». ذكره أحمد عنه(٢)، وكان يُمسك بلسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد». وكان يبكي كثيرًا ويقول: «أبكوا فان لم تبكوا فتباكوا». وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل. وأُتي بطائر فقلّبه ثم قال: «ما صيد من صيد ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسبيح».

---

(١) الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني.

(٢) الزهد لأحمد (١/١٠٨).

ولما احتضر قال لعائشة: «يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذه الحِلاب[١] وهذا العبد، فأسرعي به إلى ابن الخطاب». وقال: «والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل وتعضد». وقال قتادة: «بلغني أن أبا بكر قال: ليتني خضرة تأكلني الدواب».

وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتي مرض وعادوه. وقال لابنه وهو في الموت: «ويحك ضع خدي على الأرض لعل الله أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي ـ ثلاثًا ـ ثم قضى». وكان يمرّ بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أيامًا ويعاد ويحسبونه مريضًا. وكان في وجهه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خطّان أسودان من البكاء. وقال له ابن عباس: مصّر الله بك الأمصار[٢] وفتح بك الفتوح، وفعل وفعل. فقال: «وددت أني أنجو لا أجر ولا وزر».

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتلّ لحيته. وقال: «لو أنني بين الجنة والنار لا أدري الى أيتهما يؤمر بي؛ لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتد خوفُه من اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى، قال: «فأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، وأما

(١) الحِلاب: هو الإناء الذي يُحلب فيه اللبن.
(٢) أي: الكوفة والبصرة وما بعدهما مما أنشأه المسلمون من القرى والمدائن في عهده.

اتّباع الهوى فيصد عن الحق، ألا وإن الدنيا قد ولّت مدبرة، والآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل».

وهذا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «إن أشدّ ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال: يا أبا الدرداء، قد علمتَ فكيف عملت فيما علمتَ؟». وكان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلى الصُّعُدات(١) تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل».

وهذا عبد الله بن عباس كان أسفلَ عينيه مثل الشراك البالي من الدموع.

وكان أبو ذر يقول: «يا ليتني كنت شجرة تعضد، وددت أني لم أُخلق». وعُرضت عليه النفقة فقال: «عندنا عنزٌ نحلبها، وحُمُرٌ ننقل عليها، ومُحَرَّرٌ(٢) يخدمنا، وفضل عباءة، وإني أخاف الحساب فيها».

وقرأ تميم الداري ليلةً سورة الجاثية، فلما أتى على هذه الآية: ﴿أَمۡ حَسِبَ

---

(١) الصُّعُدَات: الطُّرُق والأفنيةَ والمواضع الواسعة، وهي جمع صُعُد، وصُعُد جمع صعيد، والصعيد هو التراب والموضع العريض الواسع.

(٢) أي: كان مملوكًا فأعتقه، ولعله آثر البقاء لخدمته حتى بعد حريّته لما رأى من كريم السجايا ولذة الإيمان بصحبته.

﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح.

وقال أبو عبيدة بن الجراح: «وددت أني كبش فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي وحَسَوا مَرَقى». وهذا باب يطول تتبّعه.

وقال البخاري في صحيحه[(١)]: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر. وقال ابراهيم التيمي: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذِّبًا». وقال بن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل». ويذكر عن الحسن: «ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق».

قال ابن رجب في فتح الباري[(٢)]: «معناه[(٣)]: أن المؤمن يصف الإيمان بقوله، وعمله نقص عن وصفه، فيخشى على نفسه أن يكون عمله مكذِّبًا لقوله، كما روي عن حذيفة أنه قال: «المنافق: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به». وعن عمر قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم المنافق العليم، قالوا: وكيف يكون المنافق عليمًا؟ قال: يتكلم بالحكمة ويعمل بالجور، أو قال بالمنكر»[(٤)]

---

(١) البخاري: ٣٦- باب (٤).

(٢) ولم يتمّه، ولو أتمّه لكان أعجوبة من أعاجيب الكتب، والجزء الذي شرحه ليس له نظير فيما أعلم.

(٣) أي: كلام إبراهيم التيمي.

(٤) انظر: (صفة المنافق) للفريابي (٦٨).

وقال الجعد أبو عثمان: «قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب النبي ﷺ يخشون النفاق؟ قال: نعم، إني أدركت بحمد الله منهم صدرًا حسنًا، نعم شديدًا، نعم شديدًا»[(١)] وكان قد أدرك عمر.

وممن كان يتعوذ من النفاق من الصحابة: حذيفة، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري. وأما التابعون فكثير، قال ابن سيرين: «ما عليّ شيء أخوف من هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]» وقال أيوب[(٢)]: «كل آية في القرآن فيها ذكر النفاق أخافها على نفسي». وقال معاوية بن قرة: «كان عمر يخشاه وآمَنُه أنا؟!» وكلام الحسن في هذا المعنى كثير جدًّا. وكذلك كلام أئمة الإسلام بعدهم. قال زيد بن الزرقاء عن سفيان الثوري: «خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث:

نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: الإيمان قول ولا عمل. ونقول: الإيمان يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص. ونحن نقول: النفاق[(٣)] وهم يقولون: لا نفاق».

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٢ / ٣٠٧) والفريابي في صفة المنافق (ص: ١١٨) والمعنى: أنهم يخشون النفاق خوفًا شديدًا.

(٢) إذا أُطلق فهو السختياني رحمه الله تعالى.

(٣) أي: نخشاه على أنفسنا، ونقول إن المؤمن قد يقع في شعبه، وهم ينكرون ذلك لأن الإيمان عندهم كتلة واحدة وجزءٌ لا يتجزّأ ولا يتشعّب، إذا ذهب بعضه ذهب جميعه، وهذا ضلال مبين، ومذهب خبيث وخيم، نبتت فيه الوعيدية الخوارج ومن =

وقال أبو إسحاق الفزاري عن الأوزاعي: «قد خاف عمر على نفسه النفاق» قال: فقلت للأوزاعي: إنهم يقولون: إن عمر لم يخف أن يكون يومئذ منافقًا حين سأل حذيفة؛ لكن خاف أن يُبتلى بذلك قبل أن يموت، قال: «هذا قول أهل البدع».

وسئل الإمام أحمد: ما يقول فيمن لا يخاف النفاق على نفسه؟ فقال: «ومن يأمن على نفسه النفاق؟»[1].

وأصل هذا يرجع إلى أن النفاق أصغر وأكبر؛ فالنفاق الأصغر: هو نفاق العمل وهو الذي خافه هؤلاء على أنفسهم؛ وهو باب النفاق الأكبر[2]، فيخشى على من غلب عليه خصال النفاق الأصغر في حياته أن يخرجه ذلك إلى النفاق الأكبر، حتى ينسلخ من الإيمان بالكلية! كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وفي بعض الروايات عن ابن أبي مليكة قال: «أدركت زيادة على خمسمئة من أصحاب رسول الله ﷺ ما مات أحد منهم إلا وهو يخاف النفاق على

=
شابههم المكفرة لأهل الكبائر، والوعدية المرجئة القائلون بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ووفّق الله أهل السنة والجماعة للحقّ لِمَا اختلف الناس فيه بحمده ومنّته.

(١) مسائل ابن هانئ (٢ / ١٧٦).

(٢) والدهليز المفضي إليه.

نفسه».

وقال الحسن عن النفاق: «ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق». وقال أيضًا: «والله ما أصبح على وجه الأرض مؤمن ولا أمسى على وجهها مؤمن إلا وهو يخاف النفاق على نفسه، وما أمن النفاق إلا منافق». وقال: «إن القوم لما رأوا هذا النفاق يَغُولُ الإيمان؛ لم يكن لهم همٌّ غير النفاق»(١).

وقول البخاري بعد ذلك: «وما يُحذر من الإصرار عل النفاق والعصيان من غير توبة لقول الله تعالى  ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]: فمراده أن الإصرار على المعاصي وشعب النفاق من غير توبة يخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلى النفاق الخالص، وإلى سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر.

وفي مسند الإمام أحمد(٢) من حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**ويل لأقْمَاعِ القول، ويل للذين يصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون**». وأقماع القول: الذين آذانهم كالقُمْع يدخل فيه سماع الحق من جانب، ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه.

---

(١) الفريابي في صفة المنافق (١١٩). والغول: الإتلاف والإهلاك، ومنه قتل الغِيلة، وهو الاغتيال.

(٢) المسند (٢ / ١٦٥، ٢١٩) وأخرجه أيضًا البخاري في الأدب (٣٨٠) والخطيب في التاريخ (٨ / ٢٦٥ - ٢٦٦) وصححه الألباني.

وقد وصف الله أهل النار بالإصرار على الكبائر فقال: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] والمراد بالحنث: الذنب الموقع في الحنث وهو الإثم. وتبويب البخاري(١) لهذا الباب يناسب أن يذكر فيه حبوط الأعمال الصالحة ببعض الذنوب كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

قال الحسن: «ما يرى هؤلاء أن أعمالًا تُحبط أعمالًا، والله عز وجل يقول: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾». ومما يدل على هذا أيضًا قول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٤]، وقال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٦٦].

وفي صحيح البخاري أن عمر سأل الناس عنها فقالوا: الله أعلم، فقال ابن عباس: ضُربتْ مثلًا لعمل، قال عمر: لأي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: «لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم يبعث الله إليه الشيطان فيعمل

---

(١) وقد ظهر فِقْهُ أبي عبد الله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تبويبه، وقد أطال أهل العلم الكلام حول فوائد أبواب صحيحه، وطريقته البارعة فيها، واضطراد منهجه في ذلك. وقد سلك طريقته في التبويب والترتيب والدقة وتسمية الأبواب لأكثر من غرض وغير ذلك كثير من أهل العلم، ومنهم الإمام المجدد رحمه اللع تعالى في كتاب التوحيد.

بالمعاصي حتى أغرق أعماله»(١).

وقال عطاء الخراساني: «هو الرجل يختم له بشرك أو عمل كبيرة فيحبط عمله كله». وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من ترك صلاة العصر حبط عمله**»(٢) وفي الصحيح أيضًا أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: «**من ذا الذي يتألّى علي أن لا أغفر لفلان، قد غفرت لفلان وأحبطت عملك**»(٣) وقالت عائشة: «أبلغي زيدًا أنه أحبط جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»(٤). وهذا يدل على أن بعض السيئات تحبط بعض الحسنات، ثم تعود بالتوبة منها(٥).

وعن أبي العالية قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع الإخلاص ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل صالح، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣] فخافوا

---

(١) الفتح: (٤٥٣٨).

(٢) البخاري (٦٨٩١) الفتح: (٥٥٣).

(٣) مسلم (٢٦٢١).

(٤) في قضية بيعٍ تأوّلها زيد على الإباحة، ورأت أنه تعاطى الربا، والربا محبط للجهاد، لأنه حرب لله ورسوله، فذنب الحرب الباطل يبطل ثواب الحرب المشروع من باب الموازنة.

(٥) وهذا فقه نفيس.

الكبائر بعدُ أن تحبط الأعمالُ»[١].

وعن قتادة في هذه الآية قال: «من استطاع منكم أن لا يُبطل عملًا صالحًا بعمل سيء فليفعل، ولا قوة إلا بالله؛ فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال: خواتيمها»[٢].

والآثار عن السلف في حبوط الأعمال بالكبيرة كثيرة جدًّا يطول استقصاؤها، حتى قال حذيفة: «قذف المحصنة يهدم عمل مئة سنة»[٣]! وعن عطاء قال: «إن الرجل ليتكلم في غضبه بكلمة يهدم بها عمل ستين سنة أو سبعين سنة». وقال الإمام أحمد: «ما يؤمن أحدكم أن ينظر النظرة فيحبط عمله».

وأما من زعم أن القول بإحباط الحسنات بالسيئات قول الخوارج والمعتزلة خاصة، فقد أبطل فيما قال، ولم يقف عل أقوال السلف الصالح في ذلك. نعم المعتزلة والخوارج أبطلوا بالكبيرة الإيمان وخلدوا بها في النار. وهذا هو القول الباطل الذي تفردوا به في ذلك»[٤].

قال ابن القيم: «وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة: أنشدك الله، هل

(١) عزاه في الدر المنثور (٦ / ٦٧) لابن أبي حاتم.
(٢) ابن جرير في تفسيره (٢٦/ ٣٩).
(٣) البحر الزخار (٧ / ٣٣١).
(٤) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٠٩ - ١١١) باختصار.

سمّاني لك رسول الله؟ ـ يعني في المنافقين ـ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحدًا. فسمعت شيخنا[١] يقول: ليس مُراده أني لا أُبرئ غيرك من النفاق، بل المراد: أني لا أفتح عليّ هذا الباب، فكل من سألني هل سماني لك رسول الله ﷺ فأزكيه. قلت: وقريب من هذا قول النبي ﷺ للذي سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**سبقك بها عكّاشة**»[٢] ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا لقام آخر وآخر وانفتح الباب، وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى، والله أعلم»[٣].

إن عاقبة اتباع الهوى هي الهاوية، وما دخل الشر على قلب امرئ إلا من قبل جهله وهواه، وما أفلح وجهٌ إلا من قبل هداه بفضل مولاه.

إن النظر لعاقبة الهوى كاف في قطع علائقه، وبَتْرِ عروقه لمن كان له قلب، حتى وإن مسه طائف من الشيطان لضعفه وطروء الغفلة على قلبه؛ فسرعان ما يعود لكنف ربه، والأوبة إليه، واسترحامه، واستعفائه، واستغفاره، أما من اتبع نفسه في السوء هواها، وتمنّى على الله الأماني بلا عمل؛ فلا يلومن غدًا إلا نفسه ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران: ٢٨] ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠].

---

(١) أي: ابن تيمية.

(٢) البخاري (٣٢٢٩).

(٣) الجواب الكافي (٢٥-٢٦).

قال أبو جعفر[(١)]: «يقول جل ثناؤه: ويحذركم الله نفسه: أن تُسخِطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم، فتوافونه يومَ تَجد كلُّ نفس ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا، وهو عليكم ساخط، فينالكم من أليم عقابه ما لا قِبَل لكم به. ثم أخبر عز وجل أنه رءوف بعباده رحيمٌ بهم، وأنّ من رأفته بهم: تحذيرُه إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه. وعن الحسن في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ قال: من رأفته بهم أن حذَّرهم نفسه».

إن على المؤمن الناصح لنفسه إن يحمي قلبه من الداء قبل حلوله، وأن يداويه بعد وقوعه، وإن يبادر بحسم مادته قبل استفحاله. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الداء والدواء: «فلنذكر دواء الداء الذي إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته، فممّا ينبغي أن يُعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظّى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة

(١) وهو شيخ المفسرين الطبري في تفسيره (٦/ ٣٢١).

ومشاقة، وبزَجَلِ التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان؟

فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحلّ عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومَقَته أكبر المقت فأرداه، فصار قوّادًا لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللّٰهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال؟

وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرّت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطّعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرى اللوطيّة حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعًا، ثم أتبعهم حجارةً من سجيل السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم؟ ولإخوانهم أمثالُها، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظُّلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظّى؟

وما الذى أغرق فرعونَ وقومَه في البحر، ثم نُقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرَق والأرواح للحرْق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمّرها تدميرًا؟

وما الذي أهلك قوم صاحب (يس) بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا أُولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبّروا ما علو تتبيرًا؟

وما الذي سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات، مرّة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجَوْرِ الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب؟

عن جبير بن نفير قال: لما فتحت قبرص، فُرّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله؟! فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك،

تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى»[(١)][(٢)].

والحذر الحذر من اتباع الهوى في العلم، فكم من علم عاد على صاحبه وبالًا، ومِنْ أول من تسعر به النار يوم القيامة من لم يعمل بعلمه، فقرأ القرآن ليقال قارئ!

وعـــالمٌ بعلمـــه لم يعْمَلَـــنْ   مُعّـذّبٌ مِـن قَبْـل صـاحبِ الـوَثَن

وحيل النفس الأمارة خفية، والمؤمن محتاج لمجاهدة في كشفها، وحزم في اقتلاع عروق هواها، وثبات في حسم مادة شرها «واتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦] فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمّه، وذلك من وجوه: أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ٢١٧).

(٢) الجواب الكافي (٢٧- ٢٩).

الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولم يقل: تبعه، فإن في معنى اتبعه: أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه وصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه!

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خِسَّة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليّته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام»(١).

والمؤمن الموفق حريص على إعلاء همّته للدار الآخرة، حريص على حفظ عمره من الضياع ووقته من التفلّت فيما لا ينفعه، وعلامةُ المَقْتِ إضاعةُ الوقت، «وأعظم الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب، وإضاعة الوقت. فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت

---

(١) الفوائد (١٠١- ١٠٣).

من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله في اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله في اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان»(١).

إن لاتباع الهوى دركات لا يحيط بها بشر، ولو لم يأت من شؤم اتّباع الهوى إلا أنه مُبعِد عن الله تعالى، صادٌّ بصاحبه عن مواطن قربه ومنازل مراضيه؛ لكفى به شقوة وخسار، فكيف والشر بحذافيره مجتمع فيه.

والموفق من سار لربه بعزم وهو على بصيرة من أمره، ومتى زاغت قدمه عدل بها لرشدها، وحَنَفَ لربّه راشدًا فتنكّب طريق الغواية وسلك سبيل الاستقامة.

وفي المنتظم(٢) لابن الجوزي وصية عجيبة لطيفة جامعة مانعة مختصرة، فقد نقل عن بنان بن أحمد المصري قال: قدم ابن الفرخي إلي فقصدته فإذا هو في بيت مملوء كتبًا، فقلت له: رحمك الله، اختصر لي من هذه الكتب كلمتين انتفع بهما. فقال: «ليكن همّك مجموعًا فيما يرضي الله، فإن اعترض عليك شيء فتب من وقتك». رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أحكمه! فقد جمع العلم والموعظة في كلمتين.

ولقد عقد الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصلًا نفيسًا ختم به كتابه (روضة المحبين) (٣) وعدّ خمسين أمرًا يتخلص بها المؤمن من الهوى بإذن الله تعالى،

---

(١) الفوائد (١١٢).

(٢) المنتظم (٥/ ٨٤).

(٣) (٤١٤ – ٤٢٧) وهو الباب التاسع والعشرون.

وسألخص لي ولك مهماتها بعون الله، قال رحمنا الله تعالى وإياه: «فإن قيل: فكيف يتخلص مِن الهوى مَن قد وقع فيه؟

قيل: يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

أحدها: عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها.

الثاني: جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

الثالث: قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعة كلها صبر ساعة، وخير عيش أدركه العبد بصبره.

الرابع: ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

الخامس: ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

السادس: إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى.

السابع: إيثاره لذة العفّة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية.

الثامن: فرحه بغلبة عدوه وقهره له، ورده خاسئًا بغيظه وغمه وهمّه، حيث لم ينل منه أمنيته، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم عدوه ويغيظه، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى

ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ [النساء: ١٠٠] أي: مكانا يراغم فيه أعداء الله. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

التاسع: التفكر في أنه لم يخلق للهوى، وإنما هُيِّئ لأمر عظيم، لا يناله إلا بمعصيته للهوى كما قيل:

قد هيّأوكَ لأمرٍ لو فطِنتَ له ... فاربَأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَلِ

العاشر: أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالًا منه، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيؤثر النافع على الضار، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنى، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر ما يضره؛ كان حال الحيوان البهيم أحسن منه.

ويدل على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح مالا يناله الإنسان مع عيش هنيء خال عن الفكر والهم، ولهذا تُساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها، لفقدان العلم بالعواقب. والآدمي لا ينال ما يناله الحيوان لقوة الفكر الشاغل وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بُخِسَ منه حظُّ الآدمي الذي هو خلاصة العالم، ووفّر منه حظ البهائم. وفي توفير حظ الآدمي من العقل والعلم والمعرفة عوض عن ذلك.

الحادي عشر: أن يسير بقلبه في عواقب الهوى، فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلةٍ منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهًا، ونكّست رأسًا، وقبّحت ذكرًا،

وأورثت ذمًّا، وأعقبت ذلًّا، وألزمت عارًا لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوى عمياء.

الثاني عشر: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر وما فاته وما حصل له.

فأفضل الناس من لم يرتكب سببًا حتى يميّز ما تجني عواقبُهُ

الثالث عشر: أن يتصور ذلك في حق غيره حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

الرابع عشر: أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إذا أعجب أحدَكم امرأةٌ فليذكر مَنَاتِنَها». وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين[1]:

لو فكَّرَ العاشقُ في مُنْتَهى حُسْنِ الذي يَسبيهِ لم يَسْبِهِ

لأن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذكر الحال الحاضرة الملازمة، والشاعر حال على أمر متأخر.

الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلًّا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتَي الكبر والذل.

---

(١) وهو المتنبي.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة، وميلًا إلى هواه؛ طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى، وساقه حيث أراد، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة؛ لم يطمع فيه إلا اختلاسًا وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصَدَّه عن الحق، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الوِلاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولّي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة. فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلًا إلا من باب الهوى، فيَسري معه سريان السم في الأعضاء.

العشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله ﷺ، وجعل اتّباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع

الوحي، وأتباع الهوى. وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠].

الحادي والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى شبّه أتْباع الهوى بأخسّ الحيوانات صورة ومعنى، فشبههم بالكلب تارة، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وبالحمر تارة، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠- ٥١] وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

الثاني والعشرون: أن متّبع الهوى ليس أهلًا أن يطاع، ولا يكون إمامًا ولا متبوعًا، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة ظالمًا، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩] وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

الثالث والعشرون: أن الله سبحانه وتعالى جعل متّبع الهوى بمنزلة عابد الوثن، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] في موضعين من كتابه. قال الحسن: «هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه»، وقال أيضًا:

«المنافق عبد هواه، لا يهوى شيئًا إلا فعله».

الرابع والعشرون: أن الهوى هو حِظَارُ[١] جهنم المحيط بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٢].

وفي الترمذي[٣] من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرفعه: «لما خلق الله الجنة أرسل إليها جبريل فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُّ لأهلها فيها. فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه وقال: وعزتك؛ لا يسمع بها أحد من عبادك إلا دخلها، فأمر بها فحُجبت بالمكاره. وقال: ارجع إليها فانظر إليها، فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره، فقال: وعزتك؛ لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فقال: وعزتك؛ لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفّت بالشهوات، فقال: ارجع فانظر إليها، فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالشهوات، فرجع إليه فقال: وعزتك؛ لقد خشيت ألّا ينجو منها أحد».

---

(١) الحظار: هو الحاجز بين الشيئين، كحائط البستان.

(٢) البخاري (٦٤٨٧) ومسلم (٢٨٢٣).

(٣) الترمذي (٢٥٦٣) وقال: حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٨٣٩٨) وصححه أحمد شاكر، وأخرجه أبو داود (٤٧٤٤) وصححه الحاكم (١/ ٢٦) ووافقه الذهبي.

الخامس والعشرون: أنه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به**»[١] وصح عنه أنه قال: «**أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغَيِّ في بطونكم وفروجكم، ومُضِلَّات الهوى**»[٢].

السادس والعشرون: أن اتباع الهوى من المهلكات، قال ﷺ: «**ثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله عز وجل في السرّ والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فهوى متبعٌ، وشحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه**»[٣].

السابع والعشرون: أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: «الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده»،

---

(١) ذكره الحكيم (٤/١٦٤) وأخرجه الخطيب (٤/٣٦٨) وأخرجه أيضًا ابن أبي عاصم (١/١٢، ١٥) والحديث لا يثبت ففيه نعيم بن حماد ضعيف لا يحتج به، قال الذهبي: لا يجوز لأحد أن يحتج به. وقال ابن رجب: تصحيح هذا الحديث بعيد جدًّا لوجوه. وانظرها في جامع العلوم والحكم (٣٣٨) وضعفه الألباني ولكن معناه صحيح.

(٢) أحمد (٤/٤٢٠). ووثق رجاله الأرناؤوط، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢١٤٣).

(٣) البزار (٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٤٣) والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) وهو صحيح بطرقه، وله شواهد عديدة، وانظر: الأحاديث الصحيحة (١٨٠٢). وقال الألباني في المشكاة (٥٠٤٩): حسن لغيره.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «**ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(١)] وكلما تمرّن على مخالفة هواه اكتسب قوة إلى قوته.

الثامن والعشرون: أن أغزر الناس مروءة أشدّهم مخالفة لهواه، قال معاوية: «المروءة ترك الشهوات، وعصيان الهوى». فاتباع الهوى يُزمِنُ[(٢)] المروءة ومخالفته تنعشها.

التاسع والعشرون: أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان في صاحبه، فأيها قوي على صاحبه طرده، وتحكم وكان الحكم له، قال أبو الدرداء: «إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عملُه تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعمله فيومه يوم صالح».

الثلاثون: أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد؛ فخالف أقربهما من هواك[(٣)]، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى.

الحادي والثلاثون: أن الهوى داء ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: «إن

---

(١) البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) الزمانة: الشلل.

(٣) قال عبدُ قيس بن خُفاف التميمي:

وإذا تشاجـــرَ في فؤادك مرَّةً أمران فاعمد للأعفِّ الأجمَلِ
وإذا هممتَ بأمــر سوء فاتّئد وإذا هممت بأمر خيرٍ فاعجَلِ

شئت أخبرتُك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته». وقال بشر الحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه».

الثاني والثلاثون: أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: «جهادك هواك»(١). وسمعت شيخنا يقول: «جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا، حتى يخرج إليهم».

الثالث والثلاثون: أن الهوى تخليط، ومخالفته حِمْية، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه. قال عبد الملك بن قريب: «مررت بأعرابي به رمد شديد، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أُمر لا يأتمر. فقلت: ألا تشتهي شيئًا؟ فقال: بلى، ولكني أحتمي، إنّ أهل النار غلبت شهوتُهم حِميتهم فهلكوا».

الرابع والثلاثون: أن اتّباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يلهج بأن الله لو وفّق لكان كذا وكذا، وقد سدّ على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفضيل بن عياض: «من استحوذ عليه

(١) وسأل رجل ابنَ عمر عنهما عن الجهاد فقال: «ابدأ بنفسك فاغزُها».

الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق».

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب والشهوة والرغبة والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلًا غضب فقتل أمه! ورجلًا عشق فتنصّر! وكان بعض السلف يطوف بالبيت، فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال:

أهوى هوى الدِّين واللذاتُ تُعجبني فكيف لي بهوى اللذاتِ والدينِ

فقالت: دع أحدهما تنل الآخر(١).

(١) وليس في هذا دعوة منها له بالسوء، أنها تبيان استحالة الجمع بين الضدّين، فلا بد لأحدهما أن يُزيح الآخر بقدر تمكّنه من القلب. وعلى كلٍّ؛ فإن صحت الحكاية فقد أذنب بتغزله بغير ما أحل الله له، وأذنبت بإجابته بما يشبه الخضوع، عفا الله عنا وعنهما.

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ من أعظم أسباب محبة الله تعالى لعبده: أن يغلّب العبد متابعة ما يحبه الله دون ما تحبه نفسه، وبخاصة عند اشتداد الشهوة وقوّة الهوى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾.

ومن جدير التنبيه: أنّ ذمَّ الهوى في الشرع وعلى ألسُنِ السلف إنما يُراد به الهوى الصادُّ عن طاعة الله تعالى، وإلا فأصل الهوى الرغبة والمَيل، وليس كل رغبة مذمومة، ولا كل مَيلٍ للنفس منهيٌّ عنه، فهو من فروع المحبة، والمحبة متشعّبة الأطراف كثيرة المتعلقات.

إنّما المذموم من الهوى ما أبعد عن الله تعالى وخالف أمره، ولما كان الغالب استعمال =

الخامس والثلاثون: أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه. وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يومًا لبعض أصحابه: «يا فلان إذا نُصِرَ الهوى ذهب الرأي». وسمعت رجلًا يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد، أو قال: نسيه. فقال الشيخ: «هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم».

السادس والثلاثون: أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيّق عليها في قبره ويوم معاده، ومن ضيّق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنساء:

=

لفظ الهوى في الغواية؛ فقد صار علمًا عليها ولقبًا لها، ولهذا نظائر في اللغة. وعليه؛ فلا بأس من استعمال لفظ الهوى بمعناه المذموم دون الحاجة لاستثناء أو توضيح، وقد جاء القرآن العظيم بهذا، فإن الهوى إنما يُذكر فيه بسياق الذمِّ.

ومن شواهد معنى الهوى السائغ ما رواه مسلم (١٤٦٤) من قول عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ لما أنزل الله تعالى عليه آية الأحزاب في شأن تخييره أرجاء وإيواء من شاء من أزواجه: «وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسارعُ لك فِي هَوَاكَ». أي: يُخفّف عنك، ويوسِّعُ عليك في الأمور، ولهذا خيّرك.

والمقصود؛ أنّ جادّة ذكر الهوى هي الذم، فهذا هو الأصل، ولكن لا يمنع ذلك من استعمال اللفظ فيما دون الذم، وعليه يحمل قول الصِّدِّيقة وغيرها ممّا جرى مجراه، وبالله التوفيق.

١٢] فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق؛ جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: «جزاهم بما صبروا عن الشهوات».

السابع والثلاثون: أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين، كما صرع قلبه في الدنيا عن مرافقتهم. قال محمد بن أبي الورد: «إن لله عز وجل يومًا لا ينجو مَنْ شرُّه منقادٌ لهواه، وإنَّ أبطأَ الصرعى نهضة يوم القيامة صريعٌ شهوته، وإنّ العقول لما جرت في ميادين الطلب؛ كان أوفرها حظًّا من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر، والعقل معدن، والفكر مِعْوَل».

الثامن والثلاثون: أن اتباع الهوى يحلّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها وتقويها، والعزائم هي مركب العبد الذي يسيّره إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوب أوشك أن ينقطع المسافر.

قيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزمًا؟ قال: «الغالب لهواه». ودخل خلف بن خليفة على سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جارية يقال لها البدر، من أحسن الناس وجهًا، فقال له سليمان: كيف ترى هذه الجارية؟ فقال: أصلح الله الأمير، ما رأت عيناي أحسن منها قط. فقال له: خذ بيدها، فقال: ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدّة عجبه بها. فقال: ويحك، خذها على شدّة عجبي بها، ليعلم هواي أني له غالب، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول:

لقد حباني وأعطاني وفضّلني ... عن غير مسألةٍ منه سليمانُ

أعطـاني البـدرَ خُـودًا في محاسـنها والبـدرُ لم يُعطَـهُ إنـسٌ ولا جـانُ
ولسـت يومًـا بنـاسٍ فضـلَهُ أبـدًا حتـى يُغيِّبَنـي لحـدٌ وأكفـانُ

التاسع والثلاثون: أن مثل راكب الهوى كمثل راكب فرس حديد صعب جموح لا لجام له، فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه به، أو يسير به إلى مهلك.

قال بعض العارفين: «أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حبُّ الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهلكات». وقال آخر: «أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى». وقال عطاء: «من غلب هواه عقلَه وجزعُه صبرَه افتضح».

الأربعون: أن التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإن الهوى صنم، ولكل عبد صنم في قلبه بحسَب هواه، وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسّدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولًا. قال الحسن بن علي المطوعي: «صنم كل إنسان هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوّة».

وتأمل قول الخليل لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ كيف تجده مطابقا للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله، قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

الحادي والأربعون: أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن، ومتابعته مجلبة لداء القلب والبدن. فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه.

الثاني والأربعون: أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه، فاستراح وأراح. قال أبو بكر الوراق: «إذا غلب الهوى أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق الصدر، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وأبغضهم». فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها.

الثالث والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلًا، فأيّهما ظهر توارى الآخر، كما قال أبو علي الثقفي: «من غلبه هواه توارى عنه عقله»، فانظر عاقبة من استتر عنه عقله وظهر عليه خلافه. وقال علي بن سهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العقل والهوى يتنازعان، فالتوفيق قرين العقل، والخذلان قرين الهوى، والنفس واقفة بينهما، فأيهما غلب كانت النفس معه».

الرابع والأربعون: أن الله سبحانه وتعالى جعل القلب ملك الجوارح، ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدّتين، فالحق والزهد والهدى سلطانٌ، وأعوانه الملائكة، وجيشه الصدق والإخلاص ومجانبة الهوى، والباطل سلطانٌ، وأعوانه الشياطين، وجنده وعُدَّتُه اتباع الهوى، والنفس واقفة بين الجيشين، ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تخامر على القلب، وتصير مع عدوه عليه،

فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوَّها عدةً من قِبَلِها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك، ويقع الخذلان على القلب.

الخامس والأربعون: أن أعدى عدو للمرء شيطانه وهواه، وأصدقُ صديق له عقله والمَلَك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه، واستأسر له، وأشمته به، وساء صديقَه ووليَّه، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء!

السادس والأربعون: أن لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه، كما قال القائل:

مآربٌ كانت في الشباب لأهلها عِذَابًا فصارت في المشيب عَذَابًا

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زريّة؛ لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده؛ كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس، قال أبو علي الدقاق: «من ملك شهوته في حال شبيبته؛ أعزه الله تعالى في حال كهولته». وقيل للمهلب بن أبي صفرة: بم نلت ما نلت؟ قال: «بطاعة الحزم وعصيان الهوى». فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه والنار نهاية من اتبع هواه.

السابع والأربعون: أن الهوى رِقٌّ في القلب وغِلٌّ في العنق وقيد في

الرجل، ومُتابِعُه أسيرٌ لكل سيّء المَلَكَة(١)، فمن خالفه عتق من رِقّه وصار حرًّا، وخلع الغلّ من عنقه والقيد من رجله(٢)، وصار بمنزلة رجل سَلَمًا لرجل، بعد أن كان رجلًا فيه شركاء متشاكسون.

رُبَّ مستورٍ سَبَتْهُ شهوةٌ ... فتعرّى ستره فانهتكَا
صاحبُ الشهوةِ عبدٌ فإذا ... غلبَ الشهوةَ أضحى مِلِكًا

وقال ابن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء علامةٌ ... أن لا يُرى لك عن هواك نزوعُ
العبدُ عبدُ النفس في شهواتها ... والحُرُّ يَشبع تارة ويجوعُ

الثامن والأربعون: أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقامِ من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه، فهو كمَن رغب عن بعرةٍ فأُعطي عوضها درّة.

ومتّبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء مالا نسبة لما ظفر به من هواه البتة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام.

وقال عبدالرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنام فقلت

---

(١) المَلَكَة: هي التدبير.

(٢) وكما قيل: العبد حُرٌّ ما قَنِع، والحرّ عبدٌ ما طمع.

له: ما فعل الله بك؟ قال: «لم يكن إلا أن وضعت في لحدي حتى وقفت بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حسابًا يسيرًا، ثم أمر بي إلى الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حسًّا ولا حركة إذ سمعت قائلًا يقول: سفيان بن سعيد؟ فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظُ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يومًا؟ قلت: إي والله. فأخذني النّثَارُ[١] من كل جانب».

التاسع والأربعون: أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف الآخرة، وعزَّ الظاهر وعزَّ الباطن، ومتابعته تضعُ العبد في الدنيا والآخرة، وتذله في الظاهر وفي الباطن.

الخمسون: أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدتهم إنما نالوا ذلك الظِلَّ بمخالفة الهوى، فإن الإمام المسلَّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشابُّ المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات، والمتصدقُ المُخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك، والذي دعته المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خاليًا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه.

---

(١) النثار: ما يُنثر على رؤوس الناس من نقود وزهور وحلوى في المناسبات والولائم ونحوها.

فلم يكن لِحَرِّ الموقف وعرَقه وشدّته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحرُّ والعرق كلَّ مبلغ، وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى، فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء، وأن يجعل هوانا تبعا لما يحبه ويرضاه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير»(١).

٤-المعاصي والذنوب.

المعصية تطفئ نور الطاعة في القلب، وتضعف التعلق بالله تعالى، بل لم يقع الذنب لولا خلل في التعلق ولو من باب الغفلة الطارئة، فالتعلق كالإيمان - وهو من شعبه وثمراته - يزيد حتى يلامس العنان وحتى يرسخ رسوخ الجبال، وينقص حتى يكاد صاحبه ألّا يكون من أهله، فالموفق من تدرّع بسلاح الطاعات في ميادين دنيا الغفلات، وبالعلم والإيمان في معترك الابتلاء والامتحان بالشيطان وأحزابه.

إنّ المتعلق بالله تعالى حريص كل الحرص على بناء الحواجز بينه وبين سبل المعاصي، لعلمه بقطع الذنوب طريقه في سيره لربه، وقطعها حبله المتعلق به إليه، فهو حريص على الازدياد من الطاعات وتحصيل سبل تكفير السيئات، وعمران قلبه بالتوبة النصوح، والاستغفار الدائم.

وفي حديث النعمان بن بشير قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**الحلال بيّنٌ،**

(١) روضة المحبين لا بن القيم (٤١٤ – ٤٢٧) باختصار.

والحرام بيّنٌ، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[(١)] قال الحافظ ابن رجب: «هذا الحديث حديث عظيم؛ وهو أحد الأحاديث التي مدار الدين عليها، وقد قيل: إنه ثلث العلم أو ربعه.

ومعنى الحديث: أن الله أنزل كتابه وبيّن فيه حلاله وحرامه، وبيّن النبي ﷺ لأمته ما خفي من دلالة الكتاب على التحليل والتحريم، فصرح بتحريم أشياء غير مصرح بها في الكتاب وإن كانت عامتها مستنبطة من الكتاب وراجعة إليه، فصار الحلال والحرام على قسمين:

أحدهما: ما هو واضح لا خفاء به على عموم الأمة؛ لاستفاضته بينهم وانتشاره فيهم، ولا يكاد يخفى إلا على من نشأ ببادية بعيدة عن دار الإسلام؛ فهذا هو الحلال البين والحرام البين.

القسم الثاني: ما لم ينتشر تحريمه وتحليله في عموم الأمة؛ لخفاء دلالة النص عليه ووقوع تنازع العلماء فيه ونحو ذلك، فيشتبه على كثير من الناس هل هو من الحلال أو من الحرام؟ وأما خواص أهل العلم الراسخون فيه فلا

---

(١) البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (١٥٩٩).

يشتبه عليهم؛ بل عندهم من العلم الذي اختصوا به عن أكثر الناس ما يستدلون به على حل ذلك أو حرمته، فهؤلاء لا يكون ذلك مشتبهًا عليهم لوضوح حكمه عندهم.

أما من لم يصل إلى ما وصلوا إليه فهو مشتبه عليه؛ فهذا الذي اشتبه عليه إن اتقى ما اشتبه عليه حِلُّه وحرمته واجتنبه فقد استبرأ لدينه وعرضه، بمعنى أنه طلب لهما البراءة مما يشينهما، وهذا معنى الحديث الآخر: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[(١)] وهذا هو الورع، وبه يحصل كمال التقوى، كما في الحديث الذي خرجه الترمذي وابن ماجه: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين؛ حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس**»[(٢)].

وأنواع الشبه تختلف بقوة قربها من الحرام وبعدها عنه. وقد يقع الاشتباه في الشيء من جهة اشتباه وجود أسباب حله وحرمته، كما يشك الإنسان فيه هل هو ملكه أم لا؟ وما يشك في زوال ملكه عنه، وقد يقع الاشتباه لاختلاط الحلال بالحرام في الأطعمة والأشربة وغيرها من المكيلات، والموزونات والنقود.

فكل هذه الأنواع من كان عنده فيها علم يدله على حكم الله ورسوله فيها

---

(١) النسائي (٥٧١١) وصححه الألباني من حديث الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥١) وابن ماجه (٤٢١٥) من حديث عطية الساعدي، قال الحافظ في الإصابة (٥ / ٢٧٦): «ذكره بعضهم في الصحابة، وهو غلط». وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٢٠).

فتبعه فهو المصيب، ومن اشتبهت عليه فإن اتقاها واجتنبها فقد فعل الأولى واستبرأ لدينه وعرضه، فسلم من تبعتها في الدنيا والآخرة، ومن اشتبهت عليه فلم يتقها؛ بل وقع فيها فمثله كمثل راع يرعى حول الحمى فإنه يوشك أن يواقعه. وفي رواية: «**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه**» ومعنى هذا: أن من وقع في الشبهات كان جديرًا بأن يقع في الحرام بالتدريج؛ فإنه يسامح نفسه في الوقوع في الأمور المشتبهة فتدعوه نفسه إلى مواقعة الحرام بعده؛ ولهذا جاء في رواية: «**ومن خالط الريبة يوشك أن يجسُرْ**»[١] يعني: يجسُر[٢] على الوقوع في الحرام الذي لا ريب فيه.

ومن هنا كان السلف يحبون أن يجعلوا بينهم وبين الحرام حاجزًا من الحلال يكون وقاية بينهم وبين الحرام، فإن اضطروا واقعوا ذلك الحلال ولم يتعدوه، وأما من وقع في المشتبه فإنه لا يبقى له إلا الوقوع في الحرام المحض فيوشك أن يتجرأ عليه ويجسر.

وقوله: «**ألا وإنّ لكل ملك حِمى، وإن حِمَى الله في الأرض محارمه**»، وفي

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٢٩) وسكت عنه. والنسائي في المجتبى (٧ / ٢٤١ - ٢٤٢) (٨ / ٣٢٧). وصححه الألباني في صحيح النسائي.

(٢) الجسارة: الجرأة والشجاعة، وهي مذمومة حال اقتحام الذنوب، إنما المحمود الخوف من الله تعالى، وتوقيره، وإجلاله، والحياء منه، وشكره، وطاعته، والمجاهدة في سبيله، والولاء والبراء لأجله، والأمر بالمعروفوالنهي عن المنكر لوجهه، تبارك وتعالى.

رواية: «**ألا وإن حمى الله محارمه**»: ضرب مثل لمحارم الله بالحمى الذي يحميه الملك من الأرض ويمنع الناس من الدخول إليه، فمن تباعد عنه فقد توقى سخط الملك وعقوبته، ومن رعى بقرب الحمى فقد تعرض لمساخط الملك وعقوبته؛ لأنه ربما دعته نفسه إلى الولوج في أطراف الحمى.

وفي هذا دليل على سد الذرائع والوسائل إلى المحرمات كما يحرم الخلوة بالأجنبية، وكما يحرم شرب قليل ما يسكر كثيره، وكما ينهى عن الصلاة بعد الصبح وبعد العصر خشية الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وكما يُمنع مَن تُحرِّك القُبلةُ شهوته في صيامه من القُبلة، وكما يؤمر من يباشر امرأته في حال حيضها أن يباشرها من فوق إزار ما بين سرتها وركبتها.

ثم ذكر النبي ﷺ كلمة جامعة لصلاح حركات ابن آدم وفسادها وأن ذلك كله بحسَب صلاح القلب وفساده، فإذا صلح القلب صلحت إرادته وصلحت جميع الجوارح فلم تنبعث إلى طاعة الله واجتناب سخطه فقنعت بالحلال عن الحرام. وإذا فسد القلب فسدت إرادته، ففسدت الجوارح كلها وانبعث في معاصي الله عز وجل وما فيه سخطه ولم تقنع بالحلال؛ بل أسرعت في الحرام بحسب هوى القلب وميله عن الحق.

فالقلب الصالح هو القلب السليم الذي لا ينفع يوم القيامة عند الله غيره، وهو أن يكون سليمًا عن جميع ما يكرهه الله من إرادة ما يكرهه الله ويسخطه، ولا يكون فيه سوى محبة الله وإرادته ومحبته ما يحبه الله وإرادة ذلك، وكراهة ما يكرهه الله والنفور عنه.

والقلب الفاسد: هو القلب الذي فيه الميل على الأهواء المضلة والشهوات المحرمة، وليس فيه من خشية الله ما يكف الجوارح عن اتباع هوى النفس؛ فالقلب ملك الجوارح وسلطانها، والجوارح جنوده ورعيته المطيعة له المنقادة لأمره، فإذا صلح الملك صلحت رعاياه وجنوده المطيعة له المنقادة لأوامره، وإذا فسد الملك فسدت جنوده ورعاياه المطيعة له المنقادة لأوامره ونواهيه.

وقد بوب البخاري على هذا الحديث باب: (فضل من استبرأ لدينه). والمقصود من إدخاله هذا الحديث في هذا الباب أن من اتقى الأمور المشتبهة عليه التي لا تتبين له أحلال هي أو حرام؛ فإنه مستبرئ لدينه، بمعنى أنه طالب له البراء والنزاهة مما يدنسه ويشينه؛ ويلزم من ذلك أن من لم يتق الشبهات فهو معرِّضٌ دينه للدنس والشين والقدح، فصار بهذا الاعتبار الدين تارة يكون نقيًّا نزهًا بريًّا، وتارة يكون دنِسًا متلوثًا.

والدين يوصف تارة بالقوة والصلابة، وتارة بالرقة والضعف، كما يوصف بالنقص تارة وبالكمال تارة أخرى، ويوصف الإسلام تارة بأنه حسن وتارة بأنه غير حسن، والإيمان يوصف بالقوة تارة وبالضعف أخرى.

هذا كله إذا أُخذ الدين والإسلام والإيمان بالنسبة إلى شخصٍ شخص، فأما إذا نظر إليه بالنسبة إلى نفسه من حيث هو هو فإنه يوصف بالنزاهة. قال أبو هريرة:

«الإيمانُ نَزْهٌ، فإن زنا فارقه الإيمان، فإن لام نفسه وراجع راجعه الإيمان»[(١)] ومن كلام يحيى بن معاذ: «الإسلام نقيٌّ فلا تدنّسه بآثامك»[(٢)].

قال الشيخ عبد العزيز آل عبد اللطيف: «إن التعلق بالله عز وجل وقصده وإرادته هو أساس التوحيد ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله، والله سبحانه وتعالى هو المستحق وحده أن يكون المقصود والمدعو والمطلوب. يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الإله هو المقصود والمعتمد عليه، وهذا أمر هيّن عند من لا يعرفه، كبير عظيم عند من يعرفه»[(٣)].

ومن لم يكن مقصوده وغايته الله عز وجل؛ فلا بد أن يكون له مقصود ومراد آخر يستعبده، كما وضّح ذلك ابن تيمية بقوله: «الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله؛ كان أعظم إشراكًا بالله؛ لأنه كلما استكبر عن عبادة الله تعالى ازداد فقرًا وحاجة إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود. فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته؛ فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك؛ فلا بد أن له مرادًا محبوبًا يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب: إما المال، وإما

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٥١٣٢). ومعنى نزه أي شديد النقاء فأي كدر أو قذر يتبيّن فيه لصفائه.

(٢) فتح الباري لابن رجب (١/ ١١٦ - ١٢٠) مختصرًا.

(٣) الدرر السنية (٢/٢١) وانظر: تاريخ ابن غنام (٢/٥٢، ٢٩٨)، وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ٣٤).

الجاه، وإما الصور، وإما ما يتخذه إلهًا من دون الله»[١].

والناظر إلى واقعنا الحاضر يرى أنواعًا من التعلق بالشهوات والافتتان بها، فما أكثر المسلمين الذين أشربوا حب الشهوات من النساء والأموال، والملبوسات والمركوبات، والمناصب والرياسات، والولع بالألعاب والملاهي.

وإن المسلك العدل إزاء الشهوات وسط بين مسلك أهل الفجور والفواحش، ومسلك أصحاب الرهبانية والتشدّد[٢]؛ فأهل الفجور أضاعوا

---

(١) العبودية (ص١١٢-١١٤) بتصرف، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٥-١٨٧)، والفوائد لابن القيم (ص ١٨٦).

(٢) أي التشدد الزائد عن الحد المشروع، وهو ما يسمى بالغلوّ والتنطّع. ولفظ التشدّد يأتي على ثلاثة معان:
الأول: شدّة الاستمساك بالشيء، وعدم التسامح في شأنه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، والاستمساك هو التشدُّد القويُّ المشروع، كذلك فلقد أمرنا رسول الله ﷺ بالاستمساك بسنّته لدرجة التمثيل بالعضّ عليها فقال: «**تمسّكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ**» رواه أحمد (١٧١٤٢) وأبو داود (٤٦٠٧) وصححه الألباني.
الثاني: القوة في الشيء، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قويّناه، وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: مبلغ غاية قوته. والله تعالى قد أمر بأخذ دينه بالقوة، فقال في شأن بني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾. وقد شدَّ اللهُ تعالى عَضُدَ موسى بأخيه هارون عليهما السلام، ووصف الله تعالى المؤمنين بأنهم أشدّاء على الكفار، وهي القوة الغليظة. وقال ﷺ: «**المؤمن القويّ خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف**
=

=

وفي كل خير» رواه مسلم (٢٦٦٤). وقال الإمام أحمد: «إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشدّدنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكمًا ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد» . ذكره الخطيب البغدادي في الكفاية (١/ ١٣٤). والتشدد هنا هو قوة الإحكام وعدم التساهل.

فالشدّة ممدوحة في موطنها، وليس لفظ التشدّد موحيًا بالذم على الدوام، إنما يكون للذم إن كانت شدّة غير مأذون بها شرعًا، وهي النوع الثالث.

الثالث: المبالغة والغلوّ والتنطّع والتكلّف والتعمّق وتجاوز الحدّ المشروع، أي: تشدّدٌ في العمل، وغلوٌّ في الاعتقاد، وإلى هذا المعنى يشير قوله ﷺ: «**إيّاكم والغلوّ في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدين**»، رواه النسائي (٣٠٥٧) وصححه الألباني، وكذلك قوله ﷺ: «**هلك المتنطّعون، هلك المتنطّعون، هلك المتنطّعون**»، رواه مسلم (٢٦٧٠)، وكذا قوله ﷺ: «**لن يشادّ الدين أحد إلا غلبه**»، رواه البخاري (٣٩) وهو هنا التشديد والمغالبة.

وبالجملة؛ فالتشدُّد المذموم: هو الغلوّ والتنطّع والزيادة والخروج عن منهج الاعتدال في الدين الذي كان عليه النبي ﷺ، أما الشدّة الممدوحة: فهي الشِّدّة المنضبطة بحُسن الاتّباع للشرع الحنيف، وهي شدّة معها علم وحكمة ورفق، وليست الشدّة القاسية، فالمؤمن قويٌّ صلبٌ رفيق، ليس بالخوّار الضعيف، ولا العُتُلِّ القاسي.

وعلى كل حال؛ فمن استخدم لفظ «التشدّد» قاصدًا معنى الغلوّ والتنطّع فلا تثريب عليه، بل أكثر جادّتهم عليه، وقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «فشدّدْتُ فشُدِّدَ عليّ»، رواه البخاري (٥٧٨٣) وفعله هذا ليس تنطّعًا ولا غلوًّا منه، بدليل إذنه ﷺ له، لكنه ألزم نفسه حال شبابه ونشاطه بما شقّ عليه حال شيبته

=

الصلاة واتبعوا الشهوات؛ وأهل الرهبانية حرّموا ما أحل الله من الطيبات. ودين الله عز وجل وسط بين ذينك، فهو حق بين باطلين وهدى بين ضلالتين، فهو يراعي أحوال الناس، ويدرك ما هم عليه من الغرائز والشهوات؛ لذا فهو يبيحها ويعترف بها، لكنه يضبطها ويهذبها.

يقول ابن القيم مقررًا هذه الوسطية: «لما كان العبد لا ينفك عن الهوى ما دام حيًّا، فإنّ هواه لازم له؛ كان الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهَلَكة إلى مواطن الأمن والسلامة؛ مثاله أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة؛ بل أمره بصرف ذلك إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرى الهوى من محل إلى محل، وكانت الريح دبورًا فاستحالت صَبًا»(١).

=

وضعفه، ولم يُرد أن يغيّر شيئًا من حاله الذي عهده عليه حبيبه ﷺ. ولاحِظْ زيادة مبنى مفردة «التشدّد» على «الشدّة»، وفي هذا زيادة لمعناها، أي: بالمبالغة فيه.

والمقصود؛ أن استعمال لفظ الغلوّ والتنطّع أولى من لفظ التشدّد ـ مع صحته ـ دفعًا للإيهام لدى بعضهم في الخلط بين التمسّك المحمود والتشدد المذموم، وبالله التوفيق، والله أعلم.

(١) روضة المحبين (١١) وانظر: ذم الهوى، لابن الجوزي، (٣٥).

والدَّبُور: هي الريح الغربية، وهي التي سلّطها الله تعالى على عاد فأهلكتهم، وهي التي تهبُّ من دُبُرِ الكعبة، وفيها خشونة وشدة، وتسمّى محوة فهي تمحو السحاب وتَسْلُتُه، وتثير العَجَاج بأمر الله تعالى.

=



=

أما الصَّبَا فهي الريح المشرقية، وتُسمّى القَبول لأنها تقابل وجه الكعبة، وهي ريح طريّة، وكثيرًا ما تغنّى بها الشعراء لرقّتها، وهي التي سلطها الله تعالى على الأحزاب يوم الخندق، وكانت باردة في ليلةٍ شاتية، فسفَّت التراب في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقَطَّعت خيامهم، وكانت سبب رحيلهم بإذن الله تعالى عن المسلمين لِمَا أصابهم بسببها من الشدة، ومع ذلك فلم تُهلك منهم أحدًا. فالدَّبُور والصبا من جند الله عز وجل، وفي الحديث: «**نُصِرتُ بالصَّبَا، وأهلكت عاد بالدَّبُور**» رواه البخاري (٣٠٣٣) ومسلم (٩٠٠). فالقبول نصرتْ أهلَ القبول، والدّبور أهلكت أهل الإدبار بأمر مُسَيِّرِهِنّ تبارك وتعالى.

أما ريح الشمال فهي الريح الشامية، ولها خاصّيّة جميلة إذ سُمِّيت بها ريحُ الجنة، ففي صحيح مسلم (٢٨٣٣) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة لسوقًا يؤتى كلّ جمعة، فتهبّ ريحُ الشّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا**».. الحديث. والعرب يفرحون بالريح الشامية لمطرها بإذن الله تعالى، وهي ريح باردة، وتسمى الجربياء، وبعضهم يسميها محوة لمحوها السحاب أحيانًا وإذهابه بأمر الله تعالى.

أما الجنوب، فهي الريح اليمانية، لأنها جهة اليَمَنِ من الكعبة، وتهبّ من ناحية نجم سُهيل اليماني، وتسمّى النُّعَامَى والأَزْيَب.

هذا؛ وكل ريح انحرفت عن مهابِّ هذه الرِّياح الأربع فوقعت بين ريحين فهي نّكْبَاء، وجمعها نُكُبٌ، لتنكّبها عن المهابّ المعروفة، وتميل في طبعها بأمر الله تعالى إلى الرّيح التي في مهبّها أقرب إليها. ونكب الرياح أربع: بين الصَّبا والدَّبور وتُسمى الصَّابية، وبين الصَّبَا والجنوب وتسمى الأَزْيَب، وبين الشمال والدّبور وهي الجربياء، وبين الجنوب والدّبور وهي الهيف. وكما تلاحظ فأسماء هذه النكب تستعمل لها كما تستعمل لأصول الرياح الأقرب إليها. ونقل المرزوقي في الأزمنة

=

واتّباع الشهوات والانكباب عليها يؤول إلى استيلائها على القلب، فيصير القلب عبدًا وأسيرًا لتلك الشهوات، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسير ما يهواه يصرفه كيف تصرّف ذلك المطلوب.

فما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه؛ فيبقى مستغرقًا في تلك الصورة.. والقلب يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور؛ والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقًا كما يغرق الغريق في الماء»(١).

وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لزم الشهوات لزمته عبودية أبناء

=

والأمكنة (١٦٢/١) عن ابن الأعرابي قوله: «مهبّ الجنوب من مطلع سهيل إلى مطلع الثّريا، ومهبّ الصَّبا من مطلع الثّريا إلى بنات نَعْش، ومهبّ الشّمال من بنات نعش إلى مسقط النّسر الطائر، ومهبّ الدّبور من مسقط النّسر الطائر إلى مطلع سهيل. والجنوب والدّبور لهما هيف وهو الرّياح الحارة الصّيفية، والصّبا والشّمال لا هيف لهما. والعرب تجعل أبواب بيوتها حذاء الصّبا ومطلع الشّمس». وبالله التوفيق.

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/٥٩٤، ٥٩٥، بتصرف يسير.

الدنيا»(١).

وإذا كان الإفراط والانهماك في الشهوات مذمومًا شرعًا، كما قال عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]؛ فكذلك اتباع الشهوات مذموم عقلًا؛ فإن العاقل البصير ينظر في عواقب الأمور، فلا يُؤْثِرُ العاجلة الفانية على الآخرة الباقية.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذّات في الآجل. فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذةٍ يعقبها ألم، وشهوة تُورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًا للهوى.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل؛ فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة»(٢).

وليعلم العبد أن الصبر عن الشهوات وما فيها من الإغراء والبريق والافتتان أيسر من الصبر على عواقب الشهوات وآلامها وحسراتها، كما بينه

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٩٧).

(٢) ذم الهوى، لابن الجوزي، ص٣٦، باختصار.

ابن القيم بقوله: «الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تُضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تُذهب مالًا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك، وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسي علمًا ذكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تُشمت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول؛ فإن الأعمال تورث الصفات والأخلاق»[1].

وهلمّ - أخي في الله تعالى - إلى طَرْقِ شيء من مداخل الشهوات على ابن آدم، وكيف يسيّرها المؤمن الموفق على مراد ربه الأكرم، ووفق غريزته التي رُكِّبها باعتدال واستقامة واتّباع وديانة:

شهوة النساء:

أما عن شهوة النساء، أو بالأحرى شهوة الجنس المُحرّم عمومًا؛ فإن المتأمل في أحوال المسلمين فضلًا عمن دونهم يرى سُعارًا محمومًا تجاه هذه الشهوات الفاسدة، وولوغًا في مستنقعاتها الآسنة، فما أكثر المسلمين العاكفين

---

(١) الفوائد، (١٣١).

على متابعة الشاشات الصغيرة والكبيرة عبر الأطباق الفضائية أو السينما أو شبكات (الإنترنت)، وقد سمّروا أعينهم في سبيل ملاحقة برامج الفحش، ومُهيّجات الغرائز، ومُحرّكات الكوامن، واتّباع خطوات الشيطان، وفتح ذرائع الخطايا، نظرًا لمحرم، وسماعًا لمعازف وغناء، ومخالطة لأهل فسق وفاحشة، ومغازلة لكل شاذّة وفاذّة من حبائل إبليس، فيسيرُ به عمره للنقص والنهاية والحساب، وهو لا يكترث للأمر العظيم ويظن الأمر جِدُّ يسير!

وما أكثر الذين يشدّون رحالهم إلى بلاد الكفر والفجور في سبيل تلبية شهواتهم المحرمة، وقد يكون المرء مختليًا لوحده مع هاتفه وشاشته، محتضنًا بَيْضَ خطاياه، باحثًا عن سبل الشرّ إرضاء لغريزته بالحرام القذر دون المباح الطيب، ويفتن في كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوب ولا يذّكّر ولا يُسلف الصالحات بين يديه إلى الممات.

وكم من معتوهٍ في مسلاخ عاقل، وجَهولٍ في ثوب حكيم، وحيوانٍ بهيمٍ في شكل إنسان كريم! حكمةٌ لله تعالى نافذةٌ، وقضاءٌ له ساري، وناموسٌ له باقي، ويومَ القيامة يندمُ المُفرّطون.

والموفق المُعافى المعصوم من عصمه مولاه، وكتب فلاحه فاتّبع هُداه، والمخذول من اتّبع هواه، فانتكس في رداه، وارتكس في خطاياه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد تكالب شياطين الإنس والجن مع النفوس الأمّارة بالسوء على إفساد عفاف المسلمين وأخلاقهم، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

ومما يجدر ذكره أن من أرخى لشهوته العنان؛ فإنّ سعار هذه الشهوة لا حدّ له ولا انقضاء، وإذا كان الشخص المولع بالدنيا لا يشبع من المال كما في الحديث: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»[١]، فكذلك الشخص المولع بشهوة الجنس بدون ضابط شرعٍ، أو حارس عقل، أو رادع شرف؛ فإنه لا يقف ولا يرعوي ولا يشبع ولا يكتفي، حتى يحين حَيْنُهُ، إلا من رحم الله تعالى.

يقول الشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أوتيتَ مال قارون، وجسد هرقل، وواصلتك عشر آلاف مِن أجمل النساء من كل لون وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال، هل تظن أنك تكتفي؟ لا، أقولها بالصوت العالي: لا، أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك. لا تطلبوا مني الدليل؛ فحيثما تلفّتم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائمًا ظاهرًا مرئيًا»[٢] وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كان لرجل ملء البصرة نساء فدخلت امرأة من خارج البصرة متحجبة لأرادها لنفسه وظن أن معها شيئًا ليس مع نسائه!».

وجاء في الأدب الكبير، لابن المقفع: «اعلم أن مِن أَوقَعِ الأمور في الدين،

---

(١) مسلم (١٠٤٩) والترمذي (٣٧٩٣) و(٣٨٩٨).

(٢) فتاوى علي الطنطاوي، ١٤٦ وانظر: صيد الخاطر، لابن الجوزي (٢٦١).

وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأجلبها للعار، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار: الغرام بالنساء.

ومن العَجَب أن الرجل لا بأس بلُبِّه ورأيه يرى المرأة من بعيد متلفّفة في ثيابها، فيصوّر لها في قلبه الحُسن والجمال حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر.

ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح، وأدمّ الدمامة، فلا يعظه ذلك؛ ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغوفًا بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة، لظن أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشقاء والسفه».

إنّ أشد الفتن وأعظمها: الفتنة بالنساء، كما قال النبي ﷺ: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أشدُّ على الرجال من النساء»**[١]. قال طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، «إذا نظر إلى النساء لم يصبر»[٢]. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لم يكن كفر من مضى إلا من قِبل النساء، وهو كائنٌ، كُفْرُ من بقي من قِبَلِ النساء»[٣]. لا جرم؛ فهُنَّ حبائل إبليس، حاشا الصالحات.

(١) أخرجه مسلم ٢٧٤، ٢٧٤١ والترمذي ٢٧٨٠.
(٢) انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي ١٧٩، وروضة المحبين، (٢٠٣).
(٣) انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي، ١٧٨، وروضة المحبين (١٩٧).

وهاك أخي القارئ حكايتين واقعيتين تكشفان أن من أسباب الكفر بالله تعالى عشق النساء.

فأما الحكاية الأولى: فقد ساقها أبو الفرج ابن الجوزي بقوله: «بلغني عن رجل كان ببغداد يُقال له: صالح المؤذن، أذّن أربعين سنة، وكان يُعرف بالصلاح، أنه صعد يومًا إلى المنارة ليؤذن، فرأى بنت رجل نصراني كان بيته إلى جانب المسجد، فافتتن بها، فجاء فطرق الباب، فقالت: من؟ فقال: أنا صالح المؤذن، ففتحت له، فلما دخل ضمّها إليه، فقالت: أنتم أصحاب الأمانات فما هذه الخيانة؟ فقال: إن وافقتني على ما أريد وإلا قتلتك. فقالت: لا؛ إلا أن تترك دينك، فقال: أنا بريء من الإسلام ومما جاء به محمد، ثم دنا إليها، فقالت: إنما قلت هذا لتقضي غرضك ثم تعود إلى دينك، فكُلْ من لحم الخنزير، فأكل، قالت: فاشرب الخمر، فشرب، فلما دبّ الشراب فيه دنا إليها، فدخلت بيتًا وأغلقت الباب، وقالت: اصعد إلى السطح حتى إذا جاء أبي زوّجني منك، فصعد فسقط فمات، فخرجت فلفّته في ثوب، فجاء أبوها، فقصّت عليه القصة، فأخرجه في الليل فرماه في السكة، فظهر حديثه، فرُمي في مزبلة»[1]. ولا خيرَ في لذَّةٍ مِن بعدِها سَقَرُ!

أما الحكاية الثانية: فقد ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حوادث سنة ثمان وسبعين ومئتين ما يلي: «وفيها توفي عبده بن عبد الرحيم قبحه الله، ذكر ابن الجوزي أن هذا الشقي كان من المجاهدين كثيرًا في بلاد الروم، فلما كان في

(١) ذم الهوى، (٤٠٩).

بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم، إذ نظر إلى امرأة من نساء الروم في ذلك الحصن، فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصّر وتصعد إليّ، فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلا وهو عندها، فاغتم المسلمون بسبب ذلك غمًّا شديدًا، وشق عليهم مشقة عظيمة، فلما كان بعد مدّة مَرُّوا عليه وهو مع تلك المرأة في ذلك الحصن، فقالوا: يا فلان ما فعل القرآن الذي كان معك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أني أُنسيت القرآنَ كله إلا قوله: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٢، ٣] وقد صار لي فيهم مال وولد»[(١)].

عياذًا بالله من موارد سخطه ونوازل عذابه، جَلَّ في عُلاه.

إن الوقوع في الفواحش وارتكابها له ذرائع متعددة، وأسباب كثيرة، فإبليس ـ أعاذنا الله منه ـ يفتل حبله على المدى البعيد حتى يخنق رادع الإيمان في القلب على طول الأمد وكثرة الملابسة لمقدمات الفتن، فإنه يعرض الفتن على القلب واحدة بعد واحدة، فيشمُّ قلب العبد، ويسوق له ما ضعف قلبه من جهته، ويصبّ عليه فتنته التي هو لها محب، حتى يستمرئها الفؤادُ المريض، ويستلذّ بها القلب الضعيف، وتهشُّ لها النفس الأمارة، فتتمكّن مضلات الفتن حينئذ من سويداء القلب، فتسوق صاحبه لمعاطبه، وتزجيه لمهالكه، وتبعده عن كلِّ خير وكلِّ ذي خير، وجُرَّتْ لحتفها الرعناء.

---

(١) البداية، ١١/ ٦٤.

فمن ذرائع الفاحشة ومقدمات قسوة القلب: سماع الغناء؛ فإن الغناء رقية الزنا، وداعية الفاحشة. قال يزيد بن الوليد: «يا بني أمية! إياكم والغناء؛ فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السّكْر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنّبوه النساء؛ فإن الغناء داعية الزنا»[(١)].

قال ابن القيم: «ومن الأمر المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يُسمعها صوت الغناء، فحينئذٍ تُعطي الليان». وهذا لأنّ المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًّا، فإذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين: من جهة الصوت، ومن جهة معناه؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه: «**يا أنجشة رويدك، رفقًا بالقوارير**»[(٢)] يعني النساء.

أما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدّف والشبابة والرقص بالتخنث والتكسر، فلو حبلت المرأة من صوت لحبلت من هذا الغناء. فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا، وكم من حرّ أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا، وكم من غيور تبدّل به اسمًا قبيحًا بين البرايا، وكم من معافى تعرّض له فأمسى

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ١/٣٦٩.

(٢) البخاري (٥٨٠٩) ومسلم (٢٣٢٣) والمعنى: ارفق بالنساء في حدائك، وليكن رويدًا رويدًا، لأن الإبل تطرب له فتسرع في مشيها أكثر من احتمال النساء اللاتي فوقها.

وقد حلّت به أنواع البلايا»(١).

ومن أشد الوسائل فتكًا: النظر المحرم، فكم من نظرة إلى صورة جميلة في السوق أو العمل أو في شاشة أو مجلة أعقبت فواحش وآلامًا وحسرات. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا خاف الفتنة لا ينظر، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل»(٢).

يقول ابن الجوزي محذرًا من إطلاق البصر: «اعلم وفقك الله أن البصر صاحب خبر القلب، ينقل إليه أخبار المبصرات، وينقش فيه صورها، فيجول فيها الفكر، فيشغله ذلك عن الفكر فيما ينفعه من أمر الآخرة. ولما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوى في القلب، أمرك الشارع بغضّ البصر عما يُخاف عواقبه. قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. ثم أشار إلى مُسبب هذا السبب، ونبّه على ما يؤول إليه هذا الشر بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]»(٣).

وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن النظر المحرم وما يؤول إليه من الوقوع في الفواحش، بل وقد ينتهي بصاحبه إلى الشرك بالله تعالى

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٧٠، ٣٧١).
(٢) ذم الهوى، لابن الجوزي، (١١٦) والبلابل: كبار الرزايا.
(٣) ذم الهوى، (١٠٦).

فقال: «وأما النظر والمباشرة؛ فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش، فإنّ دوام النظر بالشهوة وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه، ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل: أن لا يأتي كبيرة، ولا يصرّ على صغيرة.

بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان. والله تعالى إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة، وعن قوم لوط المشركين»(١).

فالعين جاسوسةُ القلب ومرآته وساعيته، وكم من عين خانت قلبها بفاتن الصور فأهلكته، وعينٍ حفظت قلبها عن الحرام وحرسته، وهو في الحقيقة الملوم لا هي، فهي خادمته وجارحته وتابعته، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غضّ العبد بصره، غضّ القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.. والنظرة إذا أثّرت في القلب، فإنْ عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهُل علاجه، وإن كرر النظر ونقّب عن محاسن الصورة، ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه؛ تمكنت المحبة.

وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة

(١) مجموع الفتاوى، ١٥/٢٩٢، ٢٩٣.

الحب تنمو حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن»(١).

ومن أشد الوسائل ضررًا وشرًا: اختلاط النساء بالرجال؛ فإن هذا الاختلاط أنكى وسيلة في الانغماس في الفواحش والقاذورات، وقد كثر في هذا الزمان من يطالب بهذا الاختلاط المطلق بلا ضوابط شرعية، ويدعو إليه؛ حيث ينادون بمزاحمة النساء للرجال في جميع المجالات والأعمال، زاعمين أنهم يريدون الخير والإصلاح لمجتمعاتهم، ودعوتهم في الحقيقة ـ وإن لم يقصدوا ـ دعوة رذيلة، فإن أحبّوا ذلك فهم من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وقد علم المؤمنون وعيد الجبار في ذلك، فلقد أعظم الله تعالى الزجر والوعيد لمن تلوّث بتلك الرغبة الآثمة والخطيئة الشيطانية في سورة النور، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.

قال ابن القيم متحدثًا عن مفاسد الاختلاط: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة.. وهو من أسباب الموت العام والطواعين المهلكة. ولما اختلطت البغايا بعسكر موسى عليه السلام وفشت فيهم الفاحشة؛ أرسل الله عليهم الطاعون، فمات في يوم واحد سبعون ألفًا، والقصة مشهورة في كتب التفسير.

(١) روضة المحبين، ٩٢، ٩٤، ٩٥، باختصار يسير.

فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال والمشي بينهم متبرجات متجملات»(١).

وها هنا أمر مهم ينبغي التنبيه عليه، وهو أن الولع والانكباب على الشهوات سببه ضعف التوحيد، فإن القلب كلما كان أضعف توحيدًا وأقل إخلاصًا لله تعالى؛ كان أكثر فاحشة وشهوة وسُعَارًا(٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة: «وهذا ـ أي العشق والشهوات ـ إنما يُبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك، وإلا فأهل الإخلاص، كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع تزوُّجِها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته، ومراودتها له، واستعانتها عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة، عصمه الله بإخلاصه له، تحقيقًا لقوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] والغي هو اتباع الهوى(٣).

---

(١) الطرق الحكمية، ٢٥٩.
(٢) انظر: الفوائد لابن القيم، ٧٥.
(٣) مجموع الفتاوى، ٥١/ ٤٢١.

إن الافتتان بالنساء والولع بهن يورث أنواعًا من العقوبات والمفاسد في الدنيا والآخرة. وقد أشار ابن الجوزي إلى تنوع هذه العقوبات فقال: «اعلم أن العقوبة تختلف: فتارة تتعجل، وتارة تتأخر، وتارة يظهر أثرها، وتارة يخفى.

وأطرف العقوبات ما لا يحس بها المعاقَب، وأشدها العقوبة بسلب الإيمان والمعرفة، ودون ذلك موت القلب ومحو لذة المناجاة منه، وقوة الحرص على الذنب، ونسيان القرآن، وإهمال الاستغفار، ونحو ذلك مما ضرره في الدين. وربما دبّت العقوبة في الباطن دبيب الظُّلمة، إلى أن يمتلئ أفق القلب، فتعمى البصيرة، وأهون العقوبة ما كان واقعًا بالبدن في الدنيا، وربما كانت عقوبة النظر في البصر. فمن عرف لنفسه من الذنوب ما يوجب العقاب؛ فليبادر نزول العقوبة بالتوبة الصادقة، عساه يرُدّ ما يَرِد»[(١)].

وتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن عقوبات الشهوة المحرمة، فكان مما قاله: «فأما من استعبد قلبه صورة محرمة: امرأة أو صبي، فهذا هو العذاب الذي لا يَدان فيه[(٢)] وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا؛ فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها، مستعبَدًا لها، اجتمع له من أنواع الشر والفساد

---

(١) ذم الهوى، ٢١٧.

(٢) أي: لا طاقة له به. ومن شواهده ما رواه مسلم (٢٩٣٦) في حديث الملاحم والدجال عن النَّوَّاسِ بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**فبينما هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: أني قد أخرجتُ عبادًا لي لا يَدَانِ لأحدٍ بقتالهم، فحَرِّزْ عبادي إلى الطُّور**».. الحديث.

ما لا يحصيه إلا رب العباد.

ومن أعظم هذا البلاء إعراض القلب عن الله؛ فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب»(١).

وقال أيضًا: «ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب؛ فإن الشهوة توجب السّكْر، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**العينان تزنيان وزناهما النظر..**» الحديث إلى آخره(٢).

فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث كالنظر والاستماع والمخاطبة، ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة، ومنهم من يقبّل وينظر، وكل ذلك حرام، وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزناة رأفة، بل نقيم عليهم الحد، فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم على ما يتمتع

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/١٨٧.

(٢) عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: إن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنّى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**» أخرجه البخاري (٤ / ١٧٠ و ٢٥٥) ومسلم (٨ / ٥٢).

به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره»[١].

وتحدّث ابن القيم في غير موضع عن مفاسد الزنا وما يحويه من أنواع الشرور فقال: «والزنا يجمع خلال الشر كلها: من قلة الدين وذهاب الورع، وفساد المروءة وقلة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، ولا غيرة تامة على أهله.. ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمة عياله، ومنها: سواد الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت، ومنها ظلمة القلب وطمس نوره.. ومنها أنه يذهب حرمة فاعله، ويسقط من عين ربه ومن أعين عباده، ومنها أن يسلبه أحسن الأسماء ويعطيه أضدادها. ومنها ضيق الصدر وحرجه؛ فإن الزناة يعاملون بضدّ قصودهم؛ فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سببًا إلى خير قط»[٢].

وقال في موضع آخر: «واعلم أن الجزاء من جنس العمل والقلب المعلّق بالحرام كلما همّ أن يفارقه ويخرج منه عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا.. وفي بعض طرق حديث سَمُرة بن جندب الذي في صحيح البخاري[٣] أن النبي ﷺ قال: «**رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني فانطلقت**

---

(١) مجموع الفتاوى، ١٥/٢٨٨، ٢٨٩.

(٢) روضة المحبين، ٣٦٠.

(٣) البخاري (١٣٢٠).

معهما، فإذا بيت مبني على مثل بناء التنور أعلاه ضيّق وأسفله واسع، يوقد تحته نار، فيه رجال ونساء عراة، فإذا أوقدت النار ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا أخمدت رجعوا فيها، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هم الزناة».

فتأمل مطابقة هذا الحديث لحال قلوبهم في الدنيا؛ فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أُركِسوا فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون»(١).

وقال في موضع ثالث: «وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بهما عشر معشار من يفعله نادرًا في الأحيان»(٢).

ومما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفاسد البغاء: «في البغاء فساد كبير، وشر مستطير: يفتك بالفضيلة، يدنس الأعراض، يعكّر صفو الأمن، يفصم رابطة الوفاق، يبعث الأمراض القاتلة في الأجسام، وأي حياة لجماعة تضيع أخلاقها وتتسخ أعراضها، ويختل أمنها، وتدب البغضاء في نفوسها، وتنهك العلل أجسامها؟»(٣)(٤).

(١) روضة المحبين، ٤٤٢.

(٢) روضة المحبين، ٤٧٠.

(٣) رسائل الإصلاح، ٢٣.

(٤) عبودية الشهوات، عبد العزيز آل عبد اللطيف. مجلة البيان (١٣٤ / ٨) باختصار
=

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أسباب ترك المعاصي وقمع الشهوة الحرام: «ويدخل في الصبر عن محارم الله المواظبة على فعل الواجبات والكف عن المحرمات، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله حرمها صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها ولو لم يَرِد على فعلها وعيد، ومنها الحياء منه والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها لسوء عاقبتها، وأن العبد منه بمرأى ومسمع فيبعثه ذلك على الكف عما نهي عنه، ومنها مراعاة النعم فإن المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة، ومنها محبة الله فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب، وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى، والمكابدة في تحمله، وانتظار الفرج، وقد أثنى الله على الصابرين في عدة آيات، والصبر نصف الإيمان، وقال عمر: وجدنا خير عيشنا بالصبر»(١).

٥- ضعف الإيمان، وضعف أعمال القلوب.

الإيمان فرع عن علم القلب، فعلى قدر شعاعه ورسوخه يكون نور التعلق وثباته، فإذا ضعف الإيمان وقلّت مادته في القلب تبعها ضرورة ضعف بقية أعمال القلب، فالأعمال كالشبكة التي تغذي بعضها بعضًا، فإذا ضعف طرفٌ غذّته بقية الأطراف، فإن استحكم داؤه ومرضه أمرضها معه! فكذلك التعلق بالله تعالى، فإن ضعُفَ الإيمان به وغابت عن القلب مشاهد تعظيمه ورواسخ

=

وتصرف وزيادات.

(١) فتح الباري لابن حجر (١٨/ ٢٩٢) بتصرف يسير.

ربوبيته ومعالي ألوهيته؛ ضَعُف على الأثر التعلّق به ولا بدّ، فعلى الموفق الناصح لنفسه أن يراعي موارد غذاء قلبه بالقرآن والإيمان، وأن يُرمّم ما وَهَى من بنيان قلبه بالمحاسبة والمجاهدة والإحسان، وأن يتفقد أعمال قلبه ويقيسها جميعًا بمعيار صدق تعلّقه بربه تبارك وتعالى، فهو المعيار الذي لا يخطئ بإذن الله تعالى إن كانت البصيرة حاضرةٌ والعقل شاهدٌ.

وإذا كانت الأعمال الصالحة للقلب واللسان والجوارح تزيد الإيمان والتعلق، ويغذّي بعضها بعضًا؛ فكذلك الذنوب والمعاصي طردًا وعكسًا، وتوفيق الله وخذلانه من وراء ذلك كله!

قال ابن القيم في تدبره لقول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء:٥٧][١]: «في هذه الآية ذكر المقامات الثلاثة:

الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء، والخوف. وهذا هو التوحيد وهو حقيقة دين الإسلام كما في المسند عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما أتيتك حتى حلفت عدد

(١) والمعنى: أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين. قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه» قال العماد ابن كثير: «وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين»، وذكره عن عدة من أئمة التفسير. قلت: وليس في هذا مستمسك لقبوري، فالآية داحضة لشبهتهم من جهة هدم ما تعلّقوا به من أن هؤلاء الذين دعوهم مع الله قد رضوه أو أنه يصح لهم ذلك، بل هؤلاء عبادٌ لله يؤمنون به ويتقربون بصالح أعمالهم إليه، فكيف يصح أن يُتقرب بهم إليه؟!

أصابعي هذه ألّا آتيك، فبالذي بعثك بالحق ما الذي بعثك به؟ قال: «**الإسلام**». قال: وما الإسلام؟ قال: «**أن يسلم قلبك لله، وأن توجه وجهك إلى الله، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدّيَ الزكاة المفروضة. أَخوَان نصيران**(١)**. لا يقبل الله من أحد توبة أشرك بعد إسلامه**(٢)»(٣). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للإسلام صوًى ومنارًا كمنار الطريق**(٤)**، من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**»(٥) وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

---

(١) أي أن المسلم ينصر أخاه المسلم، وتوضحه الرواية الأخرى: «**كل مسلم على مسلم محرّم، أخوان نصيران**».

(٢) أي أن الشرك يحبط العمل بالكلية. وفي الرواية الأخرى يكون المعنى تعليق قبول توبته حتى يهاجر عن المشركين: «**لا يقبل الله من مشرك أشرك بعد ما أسلم حتى يفارق المشركين إلى المسلمين**».

(٣) أحمد (٢٠٢٧٢).

(٤) الصُّوى: جمع صُوَّة، وهي الأعلام المنصوبة من الحجارة التي يُستدلُّ بها على الطريق. والمعنى: أن للإسلام معالم واضحة يُهتدى بها إلى رضوان الله وجنته، وأن الدين واضح بيّن. وقد سمى العلامة محمد رشيد رضا مجلته المنار اقتباسًا من هذا الحديث العظيم.

(٥) أخرجه الحاكم (١/٧٠) (٥٢) وقال: صحيح على شرط البخاري. وصححه الألباني.

«فيجب على المسلم أن يجعل خوفه ورجاءه وتعلقه بالله وحده فقط، ويعلم أن جميع الخلق لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا من دون الله جل وعلا، قال الرسول ﷺ في وصيته لابن عباس: «**واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»[١] فالأمر كله بيد الله جل وعلا، فيجب أن يكون تعلق القلب والتوجه إليه وحده، وأن تكون العبادة خالصة له وحده.

والعبادة تكون بالقلب، وتكون بالجوارح، وتكون بهما جميعًا، فمثلًا القيام تعبّدًا يجب أن يكون لله، والركوع يجب أن يكون لله، والسجود يجب أن يكون لله، والتوبة يجب أن تكون لله، والنذر والدعاء والرجاء والخوف وغير ذلك من أنواع العبادة الكثيرة كلها يجب أن تكون خالصة لله جل وعلا، ولا يجوز أن يتعلق العابد لله بغير الله جل وعلا في دعاء ولا في خوف ولا في رجاء، إلا أن الخوف يكون خوفًا طبيعيًّا ويكون خوفًا غيبيًّا، فالخوف الطبيعي كالذي يخاف من السبع أو من الحية أو من الظالم المقتدر على أذاه أو تعذيبه، فهذا لا يضر الإنسان شيئًا، وليس عليه في ذلك شيء.

ولكن الخوف الذي يضرِّ إذا خاف من غائب عنه[٢]، فهو يخافه وهو ميت، أو يخافه في أمر ليس من الأسباب الظاهرة، فإن هذا لا يجوز أن يكون

(١) الترمذي (٢٧٠٦) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) وهو ما يُسمى بخوف السِّرِّ.

إلا لله وحده جل وعلا، فإن حصل للإنسان شيء من ذلك ـ والعياذ بالله ـ فقد وقع في الشرك، وهذا الشرك يكون من الشرك الأكبر.

وكذلك المحبة يجب أن تكون لله وحده، فالحب هو لبّ العبادة وهو التأله، وهو معنى (لا إله إلا الله)، فيجب أن يكون لله وحده، إلا أن الحب ينقسم أيضًا إلى حب طبيعي وحب خاص، فالحب الطبيعي كحب الجائع للطعام والظمآن للشراب، وكذلك حب الألفة والأنس والمصاحبة، وكذلك حب الحنان والرحمة كحب الوالد لولده وما أشبه ذلك فهذا لا ضير فيه، ولا يلام الإنسان عليه، وإنما الحب الذي يكون لله هو الحب الخاص الذي يتضمن الذل والتعظيم، فهذا لا يجوز إلا أن يكون لله؛ إذ كان الحب في ضمنه ذلّ للمحبوب وتعظيم له، فهذا يكون عبادة لا يجوز أن يكون للمخلوق، وكذلك هذه الآية، حيث استثنى إبراهيم الله جل وعلا فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٧] مما يدل على أنه لا يكفي في عبادة الله جل وعلا أن يقرّ الإنسان بأن الله هو ربه، بينما يوزع عبادته بين الله جل وعلا وبين المخلوقين، فإنه بذلك يكون مشركًا، فإذا قال الإنسان: إن الله هو ربي، وهو خالقي، وهو المتصرف في كل شيء والمالك لكل شيء، وهو المحيي والمميت، وهو الضار النافع، ومع ذلك يدعو غيره من الأموات فهذا الإقرار لا يفيده شيئًا ولا ينفعه، وذلك لأن المشرك لا يقبل منه عمل، والشرك يفسد العمل كله، فلابد في قبول العمل وصحته من الإخلاص، أن يكون الإنسان مخلصًا في عبادته

ودعوته واتجاهه إلى الله جل وعلا»[(١)].

لذا فمن توحيد التعلق بالله تعالى توحيدُ الخوف منه وخشيته تبارك وتعالى، فالمؤمن لا يخشى إلا الله تعالى، ولا يخاف إلا منه؛ لعلمه أن الخير لا يأتي إلا منه سبحانه، ولا يردّ الشرّ إلا هو عز وجل، وأنه على كل شيء قدير، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، ولا بأس بخوف طبيعي عارض كالخوف من سبع أو غرق أو عدو قادر حاضر ونحو ذلك، ولكن الحذر كل الحذر من خوف السرِّ؛ وضابطه المخرج من الإسلام هو أن يخاف من غير الله كخوفه من الله تعالى، أو أن يخاف من غير الله لظنه أن له تصرّفًا في الكون من دون الله تعالى، أو أن يخاف من غائب كميت أو جني أو وثنٍ أو طاغوت لظنه بأن له تصرُّفًا سرّيًا في الكون، أو أن يخاف أحدًا في شيء من خصائص الله تعالى، وفيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فكل هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة، أما الخوف الطبيعي فعفوٌ بحمد الله تعالى.

وكذلك الحال في المحبة، فالمحبة الطبيعية فطرة وغريزة لا بأس بها، وبها تحلو الحياة شيئًا مِن مُرِّهَا، وترتاح له هشاشة الروح شيئًا مِن عناء الدنيا وكَبَدِها، كحب الولد والزوجة والحرث والمهنة ونحو ذلك، مع أنها في الحقيقة ليست بشيء إزاء محبة الإله الحق تبارك وتعالى، فلا تطيب الحياة إلا بذلك، إنما المحذور هو محبة العبادة لغير الله تعالى، وهي ما خالطها ذلٌّ وتعظيم لغير الله تعالى، فهنا تكون المحبة شركية، فهذا هو شرك المحبة، وهو داء العاشقين،

(١) شرح فتح المجيد للغنيمان (٢٩ / ٤) بتصرف يسير.

ويكون كذلك لدى أتباع المُعظّمين، وهو أشدُّها وأخطرها وأوبقها، والله المستعان.

إن المؤمن المتعلق بربه تعالى يترقّى بتوفيق الله له في درجات الكمال في التعلق حتى يصل درجة الإحسان، فكل محسن متعلق بالله تعالى ولا بد، فحبل الإحسان هو التعلق، ولا يكون التعلق طيّبًا حتى يكون حَسَنًا، وبحسب جودة الإحسان يكون طِيب التعلق. قال ابن رجب في الفتح: «وأما الإحسان: ففُسّر بنفوذ البصائر في الملكوت حتى يصير الخبر للبصيرة كالعيان، فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه. ويتفاوت المؤمنون والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتا كثيرًا بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان والإحسان، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)] قيل: المراد: أن نهاية مقام الإحسان أن يعبد المؤمن ربه كأنه يراه بقلبه فيكون مستحضرًا ببصيرته وفكرته لهذا المقام، فإن عجز عنه وشق عليه انتقل إلى مقام آخر وهو أن يعبد الله على أن الله يراه، ويطلع على سره وعلانيته، ولا يخفى عليه شيء من أمره.

وقد وصّى النبي ﷺ طائفة من أصحابه أن يعبدوا الله كأنهم يرونه، منهم ابن عمر، وأبو ذر، ووصّى معاذًا أن يستحيي من الله كما يستحيي من رجل ذي هيبة من أهله[(٢)].

---

(١) البخاري (٤٤٩٩) ومسلم (٩، ١٠). وهو حديث جبريل عليه السلام المشهور.

(٢) جاء من حديث سعيد بن يزيد أن رسول الله ﷺ قال: «**أوصيك أن تستحي من**
=

قال بعض السلف: «من عمل لله على المشاهدة فهو عارف، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص». فهذان مقامان: أحدهما: مقام المراقبة، وهو أن يستحضر العبد قرب الله منه واطلاعه عليه؛ فيتخايل أنه لا يزال بين يدي الله، فيراقبه في حركاته وسكناته وسره وعلانيته، فهذا مقام المراقبين المخلصين، وهو أدنى مقام الإحسان.

والثاني: أن يشهد العبد بقلبه ذلك شهادة، فيصير كأنه يرى الله ويشاهده، وهذا نهاية مقام الإحسان، وهو مقام العارفين[(١)]. ومنه قول ابن عمر لعروة

= **الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح في قومك»**. رواه أحمد في الزهد (ص: ٤٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٣٨)، والديلمي (١٧٤٩). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤١).

(١) أي العالِمين بالله تعالى، المليئة قلوبهم بحبه ورجائه وإجلاله وخشيته. ولو أنه قال مقام المحسنين أو العلماء به ونحوهما مما مُدح مُسمّاه في الشرع كان حسنًا، والخطب يسير بحمد الله تعالى، فقد ورد لفظ المعرفة في أحد طرق حديث معاذ لما أرسله إلى اليمن وأوصاه، والحديث مخرج في الصحيحين كما عند البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن قال: "**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله..**" وقد ذكره ابن القيم في المدارج (١/١٥٤) بلفظ "إلى أن يعرفوا الله"، وأظنه قد قصد إلى لفظ: "**فإذا عرفوا الله**".

والأظهر أن لفظ المعرفة قد روي بالمعنى، فأكثر المواطن قد جاءت بلفظ "**فإن هم أطاعوا لذلك**"، والمقام واحد، فلعله المحفوظ وما سواه قد روي بالمعنى، وقد =

لما خطب إليه ابنته في الطواف فلم يردّ عليه، ثم لقيه فاعتذر إليه وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا»[(١)].

=

أخرج البخاري هذا الحديث في صحيحه في سبعة مواضع، أوّلها: "**ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك..**". وهو اللفظ بدون ذكر المعرفة هو الأكثر دورانًا، فلعل ما سواه قد روي بالمعنى، وقد ورد هذا الموضع بألفاظ: "**فإن هم أطاعوا لذلك**"، "**فإن هم أطاعوا لك بذلك**"، "**فإذا عرفوا ذلك**"، "**فإذا عرفوا الله**"، وإذا وقع الاحتمال سقط الاستدلال.

وقد شكّك الحافظ في فتح الباري (١٣/ ٣٥٤) في حفظ هذا اللفظ "**فإذا عرفوا الله**" فقال: "الاحتجاج به يتوقف على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة، وفيه نظر؛ لأن القصة واحدة، ورواة هذا الحديث اختلفوا هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره، فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع احتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرّف الرواة لا يتم الاستدلال، وقد بينت في أواخر كتاب الزكاة أن الأكثر رووه بلفظ: "**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك**"، ومنهم من رواه بلفظ: "**فادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإذا عرفوا ذلك**"، ومنهم من رواه بلفظ: "**فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله**". ووجه الجمع بينها: أن المراد بالعبادة التوحيد، والمراد بالتوحيد الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: "**فإذا عرفوا الله**"، أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطواعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة". أهـ.

وبالجملة؛ فلفظ العلم أشرف وأعلى من لفظ المعرفة، لذلك فمن أسماء الله تعالى العليم، وبالله التوفيق.

(١) أي كأنّنا نراه بأعيننا حال طوافنا تعظيمًا ومحبة وقُربًا.

وبهذا فسر المثل الأعلى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الروم: ٢٧] ومثله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن كعب وغيره من السلف: «مثل نوره في قلب المؤمن». فمن وصل إلى هذا المقام فقد وصل إلى نهاية الإحسان، وصار الإيمان لقلبه بمنزلة العيان، فعرف ربه وأنس به في خلوته وتنعم بذكره ومناجاته ودعائه حتى ربما استوحش من خلقه، كما قال بعضهم: «عجبت للخليقة كيف أنست بسواك؟! بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك». وقيل لآخر: أما تستوحش؟! قال: «كيف استوحش وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟!»[(١)].

وقيل لآخر: أما تستوحش وحدك؟ قال: «أويستوحشُ مع الله أحد؟!» وكان حبيب أبو محمد يخلو في بيته ويقول: «من لم تقرّ عينه بك فلا قرّت عينه، ومن لم يأنس بك فلا أنس». وقال الفضيل: «طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله جليسه»[(٢)].

وقوله ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**» إشارة إلى أن العابد يتخيل ذلك في

---

(١) هو قول محمد بن النضر، أخرجه البيهقي في الشعب (١ / ٤٥٨).

(٢) الحلية (٨ / ١٠٨).

عبادته، لا أنه يراه حقيقة لا ببصره ولا بقلبه. وأما من زعم أن القلوب تصل في الدنيا إلى رؤية الله عيانًا كما تراه الأبصار في الآخرة - كما يزعم ذلك من يزعمه من الصوفية - فهو زعم باطل»[١].

٦-الانقطاع عن العبادات، أو عدم ديمومتها.

فالعبادة للقلب كالماء للشجرة، فإذا انقطع الماء فقد انقطعت مادّة حياتها وسبب بقائها بإذن مولاها، وهذا أمر يحسه كل مؤمن، فحال قلبك في صلاتك وسجودك وقراءتك ودعائك ليس كحاله في تجارتك وطعامك وشهوتك وفضول مباحاتك، فالعبادة مثل الدِّيْم الهتون على الأرض الطيبة القابلة له، والقلب هو مخزن الإيمان، والعبادات القلبية والقولية والعملية هي مادّة هذا الإيمان، فالإيمان قول القلب وعمله وقول الجوارح وعملها، والعلم الصحيح عن الله تعالى مفض بإذن الله للعمل النافع على اختلاف مشاربه وتنوع مسالكه، فكل عبادة لها قناة تُغذِّي القلب بمادة الإيمان، وتتغذّي منه كذلك وللقرآن والدعاء والسجود والصدقة تأثير مباشر سريع في حياة القلب وانشراحه وسعادته.

وخير العمل ما كان ديمة، كما هو حال الرحمة المهداة صلوات الله

---

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ٩٨ - ١٠٨) باختصار.

وسلامه وبركاته عليه، كما في الصحيحين[١] عن علقمة قال: سألت أم المؤمنين عائشة، قلت: يا أم المؤمنين، كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ هل كان يخص شيئًا من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله دِيْمَةً، وأيّكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟». ومعنى ديمة: أي يدوم عليه ولا يقطعه[٢].

وقد كان ﷺ ينهى عن قطع العمل وتركه، كما قال لعبد الله بن عمرو: «**لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»[٣] وقال: «**إن الله لا يملّ حتى تملّوا**»[٤] وفي رواية: «**لا يسأم حتى تسأموا**»[٥].

قال ابن رجب في ذلك: «الملل والسآمة للعمل يوجب قطعه وتركه، فإذا سأم العبد من العمل وملّه قطعه وتركه؛ فقطع الله عنه ثواب ذلك العمل؛ فإنّ العبد إنما يُجازى بعمله، فمن ترك عمله انقطع عنه ثوابه وأجره إذا كان قطعه لغير عذر من مرض أو سفر أو هرم.

كما قال الحسن: إن دور الجنة تبنيها الملائكة بالذكر فإذا فتر العبد انقطع الملك عن البناء، فتقول له الملائكة: ما شأنك يا فلان؟ فيقول: إن صاحبي

(١) البخاري (١٨٨٦) ومسلم (١/ ٥٤١) واللفظ له.
(٢) «ديمة» أصلها الواو، لأنها من الدوام، وانقلبت ياءها للكسرة قبلها، قال أهل اللغة: الديمة: المطر الدائم في سكون، شبّه به عمله في دوامه مع الاقتصاد.
(٣) مسلم (١١٥٩ / ١٨٥).
(٤) البخاري ١/١٧ (٤٣)، ومسلم ٢/١٨٩ (٧٨٥) (٢٢١).
(٥) مسلم (٧٨٥ / ٢٢٠).

فتر[1]، قال الحسن: أمدوهم ـ رحمكم الله ـ بالنفقة.

وأيضًا فإن دوام العمل وإيصاله ربما حصل للعبد به في عمله الماضي ما لا يحصل له فيه عند قطعه؛ فإن الله يحب مواصلة العمل ومداومته، ويجزي على دوامه ما لا يجزي على المنقطع منه.

وقد صح هذا المعنى في الدعاء، وأن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، فيَدَعُ الدعاء، فدل هذا على أن العبد إذا أدام الدعاء وألحّ فيه أُجيب، وإن قطعه واستحسر[2] منع إجابته، وسُمّي هذا المنع من الله مللًا وسآمة مقابلةً للعبد على ملله وسآمته، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] فسمى إهمالهم وتركهم نسيانًا مقابلة لنسيانهم له. هذا أظهر ما قيل في هذا»[3].

---

(١) ولعلّ هذا من باب ضرب الأمثال أو أنه من الإسرائيليات، والأول أظهر، والله أعلم.

(٢) الاستحسار: الكلال والتعب والندم، فهو قد انقطع عن الدعاء بسبب ضعف يقينه بالإجابة.

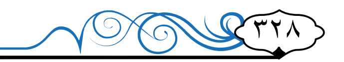
(٣) فتح الباري لابن رجب (١/ ٨٧) وذكر الشيخ ناصر العقل في شرحه للطحاوية (٧٦/ ١٧) كلامًا متينًا في وجه امتناع اشتقاق الصفة من التردد والهرولة والملل فقال ـ حفظه الله تعالى ـ: «التردد والهرولة وردت في مقابل أفعال العباد، ولو لم ترد في مقابل فعل العبد لأطلقناها صفة بجزم، لكن ما دامت قد وردت في سياق فعل العبد فلا بد أن يربط المعنى بهذا المفهوم، وهذا أمر لا نستطيع أن نرده عن أذهان السامعين، وهو مقتضى اللغة التي تكلم بها النبي ﷺ، فالنبي ﷺ تكلم بلسان عربي =

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: «من

=

مبين، وأُعطي جوامع الكلم، ولا يتكلم عن ربه إلا بحق، فألفاظ الحديث التي ورد فيها التردد ووردت فيها الهرولة ونحوها من الأفعال الثابتة لله عز وجل لا نستطيع أن نجزم بأنها صفات، لكن نقول: نقرها كما جاءت، ونثبتها لله عز وجل حقيقة على ما يليق بجلاله، فهي حق على حقيقتها، ولا نتأول، لكن مع ذلك لا نثبتها صفة مفردة؛ لأن إثباتها صفة مفردة يحتاج إلى دليل، ولا سيما أنها ربطت بأفعال الخلق، فأي فعل لله يربط بأفعال الخلق يفهم من سياقه المعنى المراد، وإذا فهم من سياقه المعنى المراد لم يصر هذا الفهم تأويلًا؛ بل هو تفسير للفظ بظاهره، فإذا فهمنا أن التردد في قبض نفس المؤمن القصد منه إكرام المؤمن والرأفة به لعمله الصالح؛ فهذا يعني أننا ما أوَّلْنا؛ لأن هذا هو مفهوم النص وظاهره.

وكذلك الهرولة، وإن كانت الهرولة تختلف عن التردد نوعًا ما، لكن يمكن أن يقاس على التردد الملل: «**إن الله لا يملّ حتى تملوا**»، فربط الفعل بأفعال العباد، فمعنى الملل عند العباد منفي عن الله عز وجل، إذًا: للملل في حق الله معنى آخر بالضرورة مفهوم من السياق نفسه، لا بتأول، ولذلك لا تصلح هذه أمثلة على التأويل كما يزعم كثير من المبطلين، فالسلف حينما أوّلوا الملل أو فسروه بغير لفظه ـ وكذلك التردد ـ لا يعني ذلك أن هذا تأويل؛ لأن هذا مقتضى السياق، فالمعنى موجود في النص نفسه؛ لأنه مقابل أفعال العباد، فهذا خبر، ولا مانع أن نثبت منه صفةً بالإجمال، لكن لا يقال: إنها صفة مفردة، فلا يقال: من الصفات التردد ومن الصفات الملل، لكن يقال: هذا الفعل من صفات أفعال الله عز وجل، ونكتفي بذلك ونقف على النص، ونقول: هذا النص يُثْبَتُ لله على ظاهره على ما يليق بالله عز وجل، ومعناه مفهوم عند المخاطبين، والله أعلم».



هذه؟» قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها. قال: «**مه**[١]**، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا**» وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه. متفق عليه[٢].

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبِرُوا كأنهم تقالّوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا. وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبدًا ولا أفطر. وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» متفق عليه[٣].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**هلك المتنطّعون**» قالها ثلاثًا[٤]. قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: «المتنطعون هم المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد»[٥].

---

(١) مه: كلمة نهي وزجر.

(٢) البخاري ١/ ١٧ (٤٣)، ومسلم ٢/ ١٨٩ (٧٨٥) (٢٢١).

(٣) البخاري ٧/ ٢ (٥٠٦٣)، ومسلم ٤/ ١٢٩ (١٤٠١) (٥).

(٤) مسلم ٨/ ٥٨ (٢٦٧٠) (٧).

(٥) رياض الصالحين (١/ ٨٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشادّ**[١] **الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة**»[٢] وفي رواية للبخاري: «**سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدُّلجة، القصدَ القصدَ تبلغوا**» أي: الزموا الاقتصاد ودعوا التنطّع والغلوّ والتشديد.

قال النووي: «قوله ﷺ: «**إلا غلبه**»: أي غلبه الدِّين وعجز ذلك المشادُّ عن مقاومة الدين لكثرة طرقه. و«**الغدوة**»: سير أول النهار. و«**الروحة**»: آخر النهار. و«**الدلجة**»: آخر الليل. وهذا استعارة وتمثيل، ومعناه: استعينوا على طاعة الله تعالى بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة، ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل المقصود بغير تعب، والله أعلم»[٣].

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «**ما هذا الحبل؟**» قالوا: هذا حبل لزينب[٤] فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «**حُلُّوه، ليصلّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد**»

---

(١) المشادّة: هي المنازعة بقوّة، وهي الغلو والتنطّع، والمراد أنه زاد على نفسه من العبادات بما لم تكلّف به، إمّا في الكيفيّة أو العدد.

(٢) البخاري ١/١٦ (٣٩) و٨/١٢٢ (٦٤٦٣).

(٣) رياض الصالحين: ١/٨٦.

(٤) أم المؤمنين، وهذا من اجتهادها في العبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

متفق عليه(١).

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسبُّ نفسه**»(٢).

وعن أبي عبد الله جابر بن سمرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا، قال: «كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا»(٣) وقوله: قصدًا: أي بين الطول والقصر.

وعن أبي جحيفة وهب بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً(٤) فقال: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا(٥)، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له: نم، فنام، ثم ذهب يقوم

---

(١) البخاري ٢/٦٧ (١١٥٠)، ومسلم ٢/١٨٩ (٧٨٤) (٢١٩).
(٢) البخاري ١/٦٣ (٢١٢)، ومسلم ٢/١٩٠ (٧٨٦) (٢٢٢).
(٣) مسلم ٣/١١ (٨٦٦) (٤٢).
(٤) متبذلة: أي لابسة ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة. ولعل هذا قبل فرض الحجاب.
(٥) وهذا من علمها وحيائها، فألمحت للمقصود بأيسر طريق وأعفّه وأنقاه.

فقال له: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن[١]، فصلّيا جميعًا[٢] فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان»[٣].

وعن أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أُخبر النبي ﷺ أني أقول: والله لأصومن النهار، ولأقومنّ الليل ما عشت[٤] فقال رسول الله ﷺ: **«أنت الذي تقول ذلك؟»** فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: **«فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر»** قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: **«فصم يومًا وأفطر يومين»** قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: **«فصم يومًا وأفطر يومًا، فذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام»**.

---

(١) وتأمل حسن خلق الأصحاب، ولِينهم بأيدي بعضهم، وبُعدهم عن المخالفة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) وهذا أصل في صلاة الجماعة في قيام الليل، وقد صلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع رسول الله ﷺ، وكذلك ابن مسعود وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) البخاري ٨/ ٤٠ (٦١٣٩).

(٤) ولاحظ همّة شباب الصحابة وسموّ أهدافهم وعلوّ مقاصدهم ومبلغ اجتهادهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وفي رواية: «**هو أفضل الصيام**» فقلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا أفضل من ذلك**» ولأن أكون قبلتُ الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي(١).

وفي رواية: «**ألم أُخْبَرَ أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟**» قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «**فلا تفعل: صم وأفطر، ونم وقم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينيك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزَوْرِك**(٢) **عليك حقًّا. وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر**» فشدّدتُ فشُدِّد عليَّ. قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة، قال: «**صم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه**» قلت: وما كان صيام داود؟ قال: «**نصف الدهر**» فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ.

وفي رواية: «**ألم أخبر أنك تصوم الدهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟**» فقلت: بلى، يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلا الخير، قال: «**فصم صوم نبي الله داود، فإنه كان أعبد الناس، واقرأ القرآن في كل شهر**» قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال: «**فاقرأه في كل عشرين**» قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك؟ قال: «**فاقرأه في كل عشر**» قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل

---

(١) لأنه قد بلغ به الجهد والمشقة مع كبر سنه بخلاف نشاط الشباب وقوّته.
(٢) أي: الزائر والضيف.

من ذلك؟ قال: «فاقرأه في كل سبع ولا تزد على ذلك»[١] فشدّدتُ فشدّد علي. وقال لي النبي ﷺ: «إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر»[٢] قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ. فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ[٣].

وفي رواية: «وإن لولدك عليك حقًّا». وفي رواية: «لا صام من صام الأبد» ثلاثًا. وفي رواية: «أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفرّ إذا لاقى»[٤].

وفي رواية قال: «أنكحني أبي امرأة ذات حَسَبٍ وكان يتعاهد كَنَّتِه[٥] فيسألها عن بعلها[٦] فتقول له: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشًا، ولم يفتشّ

(١) وفي رواية له عند أحمد (٦٥٤٦) وصححه أحمد شاكر والأرناؤوط: «قال: «اقرأه في سبع»، قال: قلتُ: إني أقوى على أكثر من ذلك، قال: «لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث».

(٢) وهذا من دلائل نبوته ﷺ فقد عمّر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ولكنه أخذ بالعزيمة حفظًا للحال الذي فارقه عليه رسول الله ﷺ، وهذا من فضله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أي: أن صيامه وقيامه لا يضعفان جسده ولا قلبه عن القتال في سبيل الله تعالى.

(٥) أي: امرأة ولده.

(٦) وفيه أن على الوالد أن يتفقد حال ولده حتى وإن كبر ونضج.

لنا كَنَفًا[(١)] منذ أتيناه. فلما طال ذلك عليه[(٢)] ذكر ذلك للنبي ﷺ[(٣)]، فقال: «القني به» فلقيته بعد ذلك، فقال: «كيف تصوم؟» قلت: كل يوم، قال: «وكيف تختم؟» قلت: كل ليلة، ـ وذكر نحو ما سبق ـ وكان يقرأ على بعض أهله السُّبع الذي يقرؤه[(٤)]، يعرضه من النهار ليكون أخفّ عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوّى أفطر أيامًا وأحصى وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النبي ﷺ[(٥)]»[(٦)].

وعن أبي ربعي حنظلة بن الربيع الأسيدي الكاتب ـ أحد كتاب رسول الله ﷺ ـ قال: لقيني أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟[(٧)] قلت: نافق

---

(١) كنفًا: أي لم يكشف لها سترًا وعورة، والمراد: لم يجامعها.

(٢) وفيه إمهال من لوحظ عليه أمر خلاف المظنون به أو المنتظر منه، فلعل له عذر يتبدّى مع مضيّ الوقت، أو يزول مع تتابع الأيام.

تأنّ ولا تعجل بلومك صاحبًا لعل له عـــذرٌ وأنت تلـــومُ

(٣) وفيه رفع المشورة لأهلها من أهل العلم والحكمة والنصح.

(٤) أي: في آخر عمره بعدما سن وكبر.

(٥) وهذا حال الصحابة في حسن عهدهم به صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(٦) البخاري ٢/ ٦٣ (١١٣١) و٣/ ٥١ (١٩٧٥) و(١٩٧٦) و(١٩٧٧) و(١٩٧٩) و٤/ ١٩٥ (٣٤١٨) و٦/ ٢٤٢ (٥٠٥٢) و(٥٠٥٤)، ومسلم ٣/ ١٦٢ (١١٥٩) (١٨١) و(١٨٢) و(١٨٣) و(١٨٦) و(١٨٧) و(١٨٩) وقد جمع هذه الروايات الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في الرياض (١/ ٨٨-٩١).

(٧) وفيه سؤال الصاحب عن أصحابه وتفقد أحوالهم والاهتمام بأمرهم.

حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالجنة والنار كأنّا رأي عين[١] فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا[٢] الأزواج والأولاد والضيعات[٣]، ونسينا كثيرًا، قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: فوالله إنّا لنلقى مثل هذا[٤] فانطلقت أنا وأبو بكر[٥] حتى دخلنا على رسول الله ﷺ. فقلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: **«وما ذاك؟»** قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأنّا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيرًا. فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر[٦]، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، لكن يا حنظلة ساعة**

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ٩/٥٩ (٢٧٥٠): «أي نراها رأي عين».

(٢) أي: عالجنا ولاعبنا.

(٣) أي: الأموال والمعايش والحرث، لأنها تضيع إن أُهملت.

(٤) وتأمل عنايتهم بأمر القلوب وحساسيتهم الشديدة من كل ما يحول بينها وبين سلامتها.

(٥) انطلقوا من فورهم لحلّ المعظلة وعلاج النازلة، فالأمر العظيم قد يدهم مَن لا يأبَه به ويبادره، فقد تفوت النفس بأجَلِها قبل تداركها بإصلاحها.

(٦) أما الأولى فأغلق بابها بوفاته بأبي هو وأمي وولدي ونفسي ﷺ، وأما الثانية فباقية وهي الذكر. ولا بد للمرء من ساعة يروّح فيها عن نفسه عناءَ الجدّ، وفي الإحماض والترويح إيقاظٌ وإجمام.

وساعة» ثلاث مرات(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: «**مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه**»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل عمل شِرَّةٌ(٣) ولكل شِرَّة فترة(٤) فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح(٥)، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك(٦)**»(١).

---

(١) مسلم ٨/ ٩٤ (٢٧٥٠) (١٢).

(٢) لأن الوقوف وترك الاستظلال والصمت ليست من الشرع فأبطلها، أما الصيام فأقره على إتمامه. وكان الصمت من شرع بني إسرائيل كما أخبر الله تعالى عن مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وقد فسَّر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا صومها بالصمت، كما نقله عنه ابن جرير رحمه الله (١٨/ ١٨٢)، ولو كان إنما شُرع بمجرد النذر لم ينه رسول الله ﷺ أبا إسرائيل عنه، لأنه لا أصل له في شرعنا. والله أعلم. والحديث خرّجه البخاري ٨/ ١٧٨ (٦٧٠٤).

(٣) أي: نشاط.

(٤) أي: فتور وكسل يعقب النشاط.

(٥) أي: لم يخرج عن السنة، ولم يدخل الحرام، إنما ضعفت عبادته مؤقتًا عن نشاطها السابق.

(٦) أي خرج إلى المعصية بعد الطاعة، وانتكس بعد الاستقامة، عياذًا بالله تعالى.

٧- هجر القرآن العظيم.

كلام الله تعالى العظيم الكريم المنزل على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن له خصائص يعجز الذهن عن تصوّر بعض حدودها، ويُعقرُ القلم عن الوقوف على وصف ساحلها، فالقرآن هدى ونور وشفاء ورحمة للمؤمنين.

ومن أراد الخير بحذافيره وجوامعه وأوائله وخواتمه؛ فليزم القرآن تلاوة وتدبّرًا وحفظًا وتفكُّرًا وعملًا واستشفاءً واستهداء، فما من علمٍ ولا هدى ولا خير إلا ومفاتحه في القرآن. والشجرة إذا لم تسق الماء يبست وماتت، وكذلك القلب إذا لم يسق بالقرآن، فالقرآن وِرْدُ القلوب، كما أن الماء وِرْدُ الأجساد.

قال الحسن: «والله ما جالس القرآن أحدٌ إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان قال الله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢]».

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴾ «يقول تعالى ذكره: وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يُستشفى به من الجهل من الضلالة، ويُبصر به من العمى للمؤمنين، ورحمة لهم، دون الكافرين به، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلون حلاله، ويحرّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله، أنعم بها عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

=

(١) أحمد (٦٩٥٨) وصححه أحمد شاكر والأرناؤوط.

يقول: ولا يزيد هذا الذي ننزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارًا. يقول: إهلاكًا، لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به»(١).

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]: «يقول تعالى ذكره لخلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، يعني: ذكرى تذكركم عقابَ الله وتخوّفكم وعيده. ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به ﴿وَهُدٗى﴾ وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليلٌ على طاعته ومعصيته ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ يرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به؛ لأن من كفر به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلودُ في لظًى.

وقوله سبحانه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، أيها الناس، الذي تفضل به عليكم، وهو الإسلام، فبيَّنه لكم، ودعاكم إليه ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، التي رحمكم بها، فأنزلها إليكم، فعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابه، وبصَّركم بها معالم دينكم، وذلك القرآن

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٣٤٠).

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، يقول: فإن الإسلام الذي دعاهم إليه، والقرآن الذي أنزله عليهم، خيرٌ مما يجمعون من حُطَام الدنيا وأموالها وكنوزها.

وعن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ قال: بفضل الله القرآن ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ أن جعَلَكم من أهله. وعن هلال بن يساف قال: (فضل الله) الإسلام، و(رحمته) القرآن»[1].

وقال العماد بن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ «أي: بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم، في تفسير هذه الآية: «وذُكِر عن أيفع بن عبدٍ الكلاعي يقول: لما قدم خراجُ العراق إلى عمر، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعدّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت[2]. ليس هذا هو الذي يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وهذا مما

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٥٣٨).

(٢) الكذب بلغة قريش هو الخطأ في الكلام حتى ولو بدون قصد الكذب.

يجمعون»(١).

وإلى القرآن الكريم مردُّ علوم الشريعة، ومدارج الدنيا ومعارج الآخرة، ومن كان من أهل فهم القرآن فهو الفقيه حقًّا، قال الضحاك: «حقٌ على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهًا»(٢).

وذكر القرطبي عن ابن أبي الجوزي قال: «أتينا فضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومئة ونحن جماعة، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول، فقال بعض القوم: إن كان خارجًا لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن، فأمرنا قارئًا فقرأ فاطلع علينا من كوّة، فقلنا: السلام عليك ورحمة الله، فقال: وعليكم السلام، فقلنا: كيف أنت يا أبا علي، وكيف حالك؟ فقال: أنا من الله في عافية، ومنكم في أذى، وإنَّ ما أنتم فيه حديثٌ في الإسلام(٣)، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ما هكذا كنا نطلب العلم، ولكنا كنا نأتي المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلًا للجلوس معهم، فنجلس دونهم ونسترق السمع، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيّدناه، وأنتم تطلبون العلم بالجهل، وقد ضيعتم كتاب الله، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون، قال: قلنا قد تعلمنا القرآن، قال: إنّ في تعلمكم القرآن شغلًا لأعماركم وأعمار أولادكم، قلنا:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١١٢٥٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٥) بتصرف يسير.

(٣) أي مُحْدَث.

كيف يا أبا علي؟ قال: لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه[١]، ومحكمه من متشابهه، وناسخه من منسوخه، إذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة،، ثم قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]»[٢].

ولتحذر ـ رعاك الله ووقاك ـ هجرَ القرآن، وليكن لك ورد تردده، وحزب تدأب فيه، وختمة تستولي على فكرك، وآيات تتابع تدبرها، وكن من أهل الله وحزبه تَفُزْ وتُفلح، وتعلو وتنجح، وتغنم وتربح. فما انقطع من انقطع عن خير كان من أهله إلا من قِبَلِ تضييعه لحق القرآن، ولو حفظ نفسه بالقرآن ما اجتالته الشيطان عن رياض رضى الرحمن. ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

قال ابن القيم في أنواع هجر القرآن: «هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والاصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد

---

(١) دلّ هذا على أن العُجمة قديمة.

(٢) الدر المنثور (٢/ ٣٦٩).

أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به.

وكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ وإن كان بعض الهجر أهون من بعض، وكذلك الحرجُ الذي في الصدور منه، فإنك لا تجد مبتدعًا في دينه قط إلا وفي قلبه حرجٌ من الآيات التي تخالف بدعته[1]، كما إنك لا تجد ظالمًا فاجرًا الا وفى صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء»[2].

٨- ضعف التفكر وقلة المحاسبة.

المحاسبة ضرورة لحفظ رأس المال حتى لا يُستلب أو ينقص، ورأس مال المؤمن دينه، وطيب دينه بحسب حسن تعلّقه بربه تعالى، فحري به أن يحاسب نفسه دومًا محاسبةَ من يوقن بهول المطلع وحق اللقاء لرب العالمين.

قال أبو حامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حتمٌ على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها

(١) كما تمنّى بعض أئمة البدع أن يحُكَّ آيات الاستواء والكلام من المصحف!
(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٢).

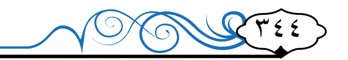
وخطواتها. فإن كل نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يُشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك؛ خسران عظيم هائل، لا تسمح به نفس عاقل.

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يُفرّغ قلبه ساعة لِمُشَارَطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يُفرّغ المجلس لمشارطته. فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنْسَأَ[1] في أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي أنك قد تُوفيتِ ثم قد رددتِ، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، فاعملي يا نفس واجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك.

وقد قال بعضهم: هب أن المسيء قد عُفِيَ عنه؛ أليس قد فاته ثواب

---

(١) الإنساء: التأخير والتأجيل، وفي التنزيل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي تأجيل حرمة الشهر الحرام للحلال، ومن ذلك: ربا النسأ والنسيئة من تأخير العوض الربوي عن المناولة يدًا بيد، وهو ربا الجاهلية.

المحسنين؟ أشار به إلى الغبن والحسرة وقال الله تعالى:  ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] فهذه وصيته لنفسه في أوقاته.

ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إليها، فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التجارة.

وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمَحْرَم، أو إلى عورة مسلم، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل عن كل فضول مستغنى عنه، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها؛ وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يُفصّل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن[1].

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته

(١) عن سهل بن سعد رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة» رواه البخاري (٦٤٧٤).

عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس، ومذمة الخلق والأطعمة، واللعن، والدعاء على الأعداء، والمماراة في الكلام، وغير ذلك، مع أنه خُلِقَ للذكر، والتذكير، وتكرار العلم، والتعليم، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، وسائر خيراته.

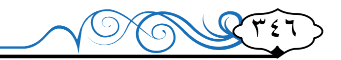
فليأخذ على نفسه ألّا يحرك اللسان إلا بما فيه خيره، فنطقُ المؤمن ذكر، ونظره عبرة، وصمته فكرة و﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وأما البطن: فيكلّفه ترك الشَّرَه، وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر على قدر الحاجة.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة. ثم النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستكثار منها، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها.

وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعود الإنسان ذلك على نفسه أيامًا، وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها؛ استغنى عن المجاهدة فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المجاهدة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حق.

ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا مِن ولاية أو تجارة أو تدريس، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يجاهد نفسه ويحاسبها على الاستقامة فيها، والانقياد للحق في مجاريها، ويحذّرها مغبة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد، فإنّ النفس



بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس، وهي محاسبة قبل العمل، والمحاسبة تارة تكون بعد العمل، وتارة قبله للتحذير، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وهذا للمستقبل، وكلُّ نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمى محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ [النساء: ٩٤] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ [ق: ١٦] ذكر ذلك تحذيرًا وتنبيهًا للاحتراز منه في المستقبل.

وقال بعض الحكماء: «إذا أردت أن يكون العقل غالبًا للهوى؛ فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة، فإنّ مُكْثَ الندامة في القلب أكثر من مُكْثِ خفة الشهوة».

وقال لقمان: «إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة».

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر»[(١)].

---

(١) الفوائد (٨٢) مختصرًا.

وقال عمر بن الخطاب يومًا لنفسه: «أمير المؤمنين بخٍ بخٍ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك».

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه، ماذا أردتُ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه.

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله تعالى، فكان له قائدًا».

وقال ميمون بن مهران: «التقيّ أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح»[1].

وقال إبراهيم التيمي: «مثّلْتُ نفسي في الجنة، آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثّلت نفسي في النار، آكل من زقّومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها. فقلت لنفسي: يا نفس، أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي»[2].

(١) فالسلطان الغاشم يصرعه، والشريك الشحيح يسرقه، وكلاهما من صفات النفس الأمارة.

(٢) وهو الآن ليس في الأمنية، بل في الجزاء، رحمه الله تعالى وإيانا، وغفر لنا، وتاب علينا أجمعين، ووالدينا والمسلمين. والكاتبُ والقارئُ على الأثر، نسأل الله حسن الختام، وسعادة اللقاء، وطيب المنقلب.

وقال مالك بن دينار: «سمعت الحجاج يخطب وهو يقول: رحم الله امرءًا حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله امرءًا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءًا نظر في مكياله، رحم الله امرءًا نظر في ميزانه، فما زال يقول حتى أبكاني»(١).

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال: «كنت أصحبه، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحسّ بالنار، ثم يقول لنفسه: يا حُنيف(٢) ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟».

وأعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يجاهد فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم، حرصًا منهم على الدنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل. فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى المحاسبة مع الشريك: أن ينظر في رأس المال وفي الربح

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٨١ - ٤٨٣) بتصرف واختصار.

(٢) تصغير وترخيم أحنف، وهذا من إذلاله نفسه لا تدليلها.

والخسران، ليتبين له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه، وكلّفه[١] تداركه في المستقبل. فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار[٢].

ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أولًا، فإن أدّاها على وجهها شكر الله تعالى عليه، ورغّبها في مثلها، وإن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن أداها ناقصة كلّفها الجبران بالنوافل.

وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها، ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه، وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحَبَّة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يُغبن في شيء منها[٣]؛ فينبغي أن يتقى غبينةَ النفس ومكرها، فإنها خداعة مُلبّسة مكَّارة، فليطالبها أولًا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلّم به طول نهاره، وليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتى عن سكوته أنه لم سكت؟[٤] وعن سكونه لم سكن؟

---

(١) كمن يفوته ورده من القرآن فيعوّضه في اليوم التالي مع ورده الجديد.

(٢) وفي الليل مثل ذلك.

(٣) وهذا من دقيق الورع.

(٤) كمن سكت عن بيان الحق.

فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، وصحّ عنده قدرٌ أدّى الواجب فيه؛ كان ذلك القدر محسوبًا له، فيظهر له الباقي على نفسه، فليثبته عليها، وليكتبه على صحيفة قلبه، كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها بردّ عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك. ولا يمكن شيء من ذلك إلى بعد تحقيق الحساب، وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يومًا يومًا، وساعة ساعة، في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نقل عن توبة ابن الصمة ـ وكان بالرَّقّة ـ وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمئة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟ ثم خرَّ مغشيًا عليه، فإذا هو ميت. فسمعوا قائلًا يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى!

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجرًا في داره لامتلأت

داره في مدة يسيرة قريبة من عمره[١]! ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، والملكان يحفظان عليه ذلك. ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦].

هذا؛ ولا بد للمؤمن الفطن الحازم أن يعاقب نفسه على تقصيرها. ومهما حاسب نفسه فلن تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى، فلا ينبغي أن يهملها، فإنه أن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنست بها نفسه، وعسر عليه فطامها، وكان ذلك سبب هلاكها.

قال عبد الله بن قيس: «كنا في غزاة لنا، فحضر العدوُّ فَصِيحَ في الناس، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي، ألم أشهد مشهد كذا فقلت لي: أهلك وعيالك؛ فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك؛ فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك. فقلت: لأرمقنّه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم أن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات، وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعًا، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن

(١) وصدق رحمه الله، فلا إله إلا الله من حال لا نشكوها إلا إلى الله.

الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك، وأشد طغيانًا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإنّ غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له، ونفسك هي التي تنغّص عليك عيش الآخرة، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها.

ولا بد في المحاسبة من مجاهدة، وهو أن المؤمن إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنونًا من الوظائف جبرًا لما فات منه وتداركًا لما فَرَطَ[(١)]، كل ذلك مرابطة للنفس، ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد، فما سبيل معالجتها؟ فأقول: سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين، كما روى أبو داود[(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية**

(١) وهذا من سياسة النفس وتأديبها، لا أنها سنة راتبة لا تترك بحال، حتى لا يخرج للابتداع والإحداث، وكل نفس لها أحوال تليق بها، والعاقل الحكيم بحسن سياسة نفسه وسوقها بالحزم والرفق والحكمة والبصيرة.

(٢) أبو داود (١٣٩٨) وصححه الألباني.

كتب من المقنطرين» وله[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلًا قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء» وللترمذي[٢] من حديث بلال أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة لكم إلى ربكم، ومَكْفَرَةٌ للسيئات، ومنهاة عن الإثم».

ومن أنفع أسباب العلاج: أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة، فتلاحظ أقواله وتقتدي به، وكان بعضهم يقول: «كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده، فعملت على ذلك أسبوعًا». إلا أن هذا العلاج قد تعذّر، إذ قد فُقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين[٣]! فينبغي أن يُعدل من المشاهدة إلى السماع، فلا

(١) أبو داود (١٣٠٨) وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٨٩٥) وحسنه الألباني بشواهده.

(٣) الخير في أمتنا كثير بحمد الله تعالى، ولا تخلو الأمة من خير وعلم وعبادة وقنوت وخشوع وورع واجتهاد وجهاد واستقامة وهدى وحسن اتّباع، وهذه الطريقة التي يستخدمها بعض العلماء في ذم جميع الناس غير مرضيّة، فهي ليست من باب الإزراء بالنفس والتواضع، ولكنها ذمّ لمجموع الأمة، وحُكمٌ بالبَطالة عليها، وهذا إجحاف واتّهام للأمة التي لا ينطفئ النور من مجموعها حتى يأذن الله تعالى بخراب العالم.
وقد يكون قصد من وعظ الناس بمثل ذلك استنهاض هممهم لمسابقة السلف في الخيرات، ولكن الثمرة بخلاف ذلك، فاليائس لا يصنع شيئًا، كيف والظنُّ باطلٌ =

شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد(١)، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع(٢) فما أعظم ملكهم، وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم، فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدَّرة(٣) ثم يأتيه الموت، ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد، نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد اقتداء بهم، فعن أبي بكرة أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**» قيل: فأي الناس شر؟ قال: «**من طال عمره وساء عمله**»(٤).

=

من أسِّه؟!

وقد أدركتُ ـ بحمد الله ـ جماعة من الأخيار ممن لو أدركهم بعض الأقدمين لقدّموهم لعلمهم وفقههم وورعهم وتقاهم وجمعهم لخصال خير جمّة، فعلام الإزراء بالأمة المحمدية الحمّادة المَرْضِيّة المرحومة؟!

(١) وانظر في ذكر اجتهادهم: حلية الأولياء لأبي نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) وهذه من أعظم المواعظ، فمن تأمل زوال تعب الطاعة، ورحيل صاحبها عن الدنيا وموافاتها في آخرته، وكذلك زوال لذة المعصية وذهاب صاحبها ليوافيها في آخرته ـ إن لم يتب ـ نشط للعبادة وزهد في الدنيا وأقبل على ما ينفعه في آخرته. فالطاعة تذهب مشقتها ويبقى أجرها، والمعصية تذهب لذتها ويبقى وزرها. والله المستعان.

(٣) فنعيم الدنيا منغَّص، أبى الله تعالى كمال اللذة إلا في جنته.

(٤) البيهقي في السنن الكبرى (٦٣١٧) وبنحوه عند الترمذي (٢٣٢٩) وصححه =

قال أبو الدرداء: «لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر»[١].

وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحرّ حتى يخضرّ جسده ويصفرّ، فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: «كرامتها أريد».

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له: يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: «يا ابنتاه، إن أباك يخاف البيات»[٢].

ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته: يا بني، لعلك قتلت قتيلًا؟ قال: نعم يا أماه، قالت: فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك. فيقول: «يا أماه هي نفسي».

وقال أحمد بن حرب: «يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزيّن فوقه، وأن النار تُسعّر تحته، كيف ينام بينهما؟!».

وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم ابن أدهم فوجدته قد صلى العشاء

=

الألباني.

(١) وورد عن عمر بنحو ذلك.

(٢) قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

فقعدت أرقبه فلفّ نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن، فوثب إلى الصلاة ولم يُحدث وضوءًا! فحاك ذلك في صدري فقلت له: رحمك الله؛ قد نمت الليل كله مضطجعًا، ثم لم تُجدّد الوضوء! فقال: «كنت الليل كله جائلًا في رياض الجنة، أحيانًا، وفي أودية النار أحيانًا، فهل في ذلك نوم».

وقال ثابت البُناني: «أدركت رجالًا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوًا».

وقيل: «مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش».

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: صليتُ خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر، فلما سلّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يده وقال: «والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، وما أرى اليوم شيئًا يشبههم! كانوا يصبحون شعثًا غبرًا صفرًا، قد باتوا لله سُجّدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم. وكأن القوم باتوا غافلين». -يعنى من كان حوله-.

وكان صفوان بن سليم قد تعقّدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدًا ما وجد متزايدًا. وكان إذا جاء الشتاء

اضطجع على السطح ليضرّ به البرد[١] وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام، ومات وهو ساجد، وكان يقول: «اللّهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي».

وقال القاسم بن محمد: «غدوتُ يومًا وكنت إذا غدوتُ بدأت بعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أسلّم عليها[٢] فغدوت يومًا إليها فإذا هي تصلّي صلاة الضحى، وهي تقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧] وتبكي وتدعو وتردد الآية. فقمت حتى مللتُ وهي كما هي، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي تردد الآية وتبكي وتدعو».

وقال محمد بن إسحاق: «لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجًّا اعتلّت إحدى قدميه، فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء».

وقال بعضهم: «ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل».

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: «لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره».

---

(١) حتى لا يثقل نومه عن ورده بصلاة الليل.

(٢) لأنها عمّته رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا ورحمه.

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: «كان زمعة نازلًا عندنا بالمُحَصَّب(١)، وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلي ليلًا طويلًا، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: أيها الركب المُعَرِّسون(٢) أكلّ هذا الليل ترقدون؟! أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون، فيُسمعُ مِن هٰهنا باكٍ، ومن هٰهنا داع، من هٰهنا قارئ، ومن هٰهنا متوضئ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السُّرى»(٣).

وقال بعض الحكماء: «إن لله عبادًا أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكّلوا عليه فسلّموا الخلق والأمر إليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتًا للحكمة، وتوابيت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوذ بمحجوب الغيوم(٤) ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد، وما لا يمكن واصفًا أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حُسنًا، وهم الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعًا. وهذه طريقة لا يُبلغ إليها بالتكلّف، وإنما هو فضل الله

---

(١) المُحَصَّب: شعب في مكة مما يلي منى، مخرجه إلى الأبطح. وقد بات فيه رسول الله ﷺ لما خرج من منى في حجة الوداع.

(٢) التعريس: نوم المسافر آخر الليل، وهو المراد هنا. وتطلقها العرب على الجماع كذلك، وهو لغة صحيحة، لكن الأغلب استعمالها في المعنى الأول.

(٣) أي: السير ليلًا. ويعني أنهم أحسنوا تدبير سفرهم إذا قاموا وحصّلوا زاد السفر بالصلاة والقراءة والذكر والضراعة.

(٤) أي: بالأنس بالله تعالى، والتذاذ حلاوة الإيمان، والعلم بالله، واليقين، والضراعة، والابتهال، والذكر، والتدبر، والعبادة.

يؤتيه من يشاء»(١).

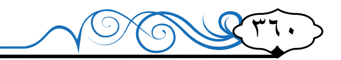
وقال بعض الصالحين: «بينما أنا أسير في مسير لي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها، فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال لي: يا هذا قم، فإن الموت لم يمت! ثم هام على وجهه، فاتبعته فسمعته وهو يقرأ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ويدعو: اللَّهم بارك لي في الموت. فقلت: وفيما بعد الموت. فقال: من أيقن بما بعد الموت شمّر مئزر الحذر، ولم يكن له في الدنيا مستقر. ثم قال: يا من لوجهه عنت الوجوه، بيّض وجهي بالنظر إليك، واملأ قلبي من المحبة لك، وأجرني من ذلك التوبيخ غدًا عندك، فقد آن لي الحياء منك، وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك، ولولا حلمك لم يسعني أجلي، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي. ثم مضى وتركني».

تَلَذُّذُهُ التلاوة أين ولّى … وذِكْرٌ بالفؤادِ وباللسانِ
وعند الموت يأتيه بشيرٌ … يُبَشَّرُ بالنجاة من الهوانِ
فيدرك ما أراد وما تمنّى … من الراحات في غرف الجنانِ(٢)

وقال ابن القيم في بيان حسن سياسة النفس والحزم بمحاسبتها بالحكمة والحزم والرفق والهدى، فقال بعد ذكره للنفس المطمئنة وأماراتها: «وإن كانت

(١) واللطيف لا يخيب من رجاه وأقبل عليه بصالحِ العمل وقويِّ النية وحسنِ المعتقد وحرارة العزم، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٠٥- ١١٣) باختصار وتصرف.



بضد ذلك فهي أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه: من شهوات الغي واتباع الباطل، فهي مأوى كل سوء، وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه.

وقد أخبر سبحانه أنها أمّارة بالسوء، ولم يقل آمرة لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها، إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله لا منها، فإنها بذاتها أمّارة بالسوء، لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا من رحمة الله، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها فلم تكن أمّارة إلا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح من الإرادات والتصورات[١] وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التي خلقت عليها من الجهل والظلم[٢].

وسبب الظلم: إما جهل وإما حاجة، وهي في الأصل جاهلة والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر

(١) التصور يتبع العلم، والإرادة تتبع الرغبة والعزم.
(٢) وهذا معنى حديث: «**والشرّ ليس إليك**» رواه مسلم (٧٧١).

وهلك.

وأما النفس اللوامة فاختلف في اشتقاق هذه اللفظة هل هي من التلوّم وهو التلون والتردد، أو هي من اللوم. وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ما اللوامة؟ قال: «هي النفس اللؤوم». وقال مجاهد: «هي التي تندم على ما فات وتلوم عليه». وقال قتادة: «هي الفاجرة». وقال عكرمة: «تلوم على الخير والشر». وقال عطاء عن ابن عباس: «كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، تلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، وتلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته».

وقال الحسن: «إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدمًا لا يعاتب نفسه».

فهذه عبارات من ذهب إلى أنها من اللوم، وأما من جعلها من التلوّم فلكثرة ترددها وتلوّمها، وأنها لا تستقر على حال واحدة. والأول أظهر، فإن هذا المعنى لو أريد لقيل: المتلوّمة كما يقال: المتلونة والمترددة، ولكن هو من لوازم القول الأول، فإنها لتلومها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه، فالتلوم من لوازم اللوم.

والنفس قد تكون تارة أمارة وتارة لوامة وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من

أحوالها. فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه.

والمقصود: ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الأمارة عليه، وله علاجان:

محاسبتها، ومخالفتها. وهلاك القلب من إهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها.

وعن وهب قال: «مكتوب في حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يتخلّى فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن في هذه الساعة عونا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب».

وكتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة».

وقال الحسن: «المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات حيل بيني وبينك، ويفرُطُ منه الشيء فيرجع إلى نفسه

فيقول: ما أردت إلى هذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا. إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله».

وعلى المؤمن محاسبة نفسه بعد العمل، وهو على ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه(١)، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه(٢)، وشهود منّة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وفّى هذه المقامات حقّها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به؟

---

(١) أي بذل الجهد لإتقانه وإحسان القصد فيه.

(٢) أي أن يعبد الله تعالى كأنه يراه.

وليحذر الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشِيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويُمشّي الحال، ويتّكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها، وعسر عليه فطام نفسه عنها. ولو حضره رشدُه لعلم أن الحمية أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد.

وجماع ذلك: أن يحاسب نفسه أولًا على الفرائض، فإن تذكّر فيها نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلّم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته؟

ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته، وكيف فعلته. فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة[1]. وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦- ٧] وقال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن

---

(١) لو قال: الاتّباع لكان أولى، وكلاهما صحيح على كل حال. وكأنّ الاتّباع في اللغة أقوى من جهة الكيفيّة، والمتابعة أقوى من جهة الزمن. والله أعلم.

صِدۡقِهِمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٨].

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم؛ فما الظن بالكاذبين؟!

قال مجاهد: يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني: هل بلغوا عنهم؟ كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله تعالى؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قال قتادة[١]: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ و﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾» فيُسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال محمد بن جرير[٢]: «يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟».

وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقّه». والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حِلّه وصُرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع يُأخذ بغير حلّه وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

---

(١) واشتهرت عن أبي العالية، ولا يمنع ورودها عن الاثنين رحمهما الله، فمشكاة علمهما واحدة.

(٢) انظر: تفسيره (٢٤/ ٥٨١).



فإذا كان العبد مسئولًا ومحاسبًا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الاسراء: ٣٦] فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يُناقش الحساب(١).

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه؟ أم السيئات التي توبقه؟ قال قتادة: «ما زال ربُّكم يُقرِّبُ الساعة حتى جعلها كغدٍ».

والمقصود: أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفساده بإهمالها والاسترسال معها.

وفي محاسبة النفس عدة مصالح منها: الاطلاع على عيوبها، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشدّ مقتًا»(٢).

وقال مطرِّف بن عبد الله: «لولا ما أعلم من نفسي لقَليت الناس». وقال

---

(١) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال رسول الله ﷺ: «**ليس أحدٌ يُحاسب إلا هلك**» قلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال: «**ذاك العرض، ولكن من نوقش الحساب هلك**» رواه مسلم (٢٨٧٦).

(٢) كنز العمال (٢٩٥٢٨) وأخرجه ابن عساكر (١٧٢/٤٧).

في دعائه بعرفة: «اللّٰهم لا تردّ الناس لأجلي».

وقال بكر بن عبد الله المزني: «لما نظرت إلى أهل عرفات، ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم».

وقال أيوب السختياني: «إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل».

ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة فقال له حماد: يا أبا عبد الله، أليس قد أمنت مما كنت تخافه، وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين، فقال: يا أبا سلمه، أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله إني لأرجو لك ذلك.

وعن جعفر بن زيد قال: خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة[١] فصلوا، ثم اضطجع، فقلت: لأرمقنّ عمله[٢] فالتمسَ غفلة الناس حتى إذا قلت: هدأت العيون؛ وثَبَ فدخل غيضة[٣] قريبًا منا، فدخلتُ على أثره، فتوضأ ثم قام يصلي، وجاء أسدٌ حتى دنا منه، فصعدت في شجرة. فتراه التفت أو عَدّه جروًا؟!![٤] فلما سجد قلت: الآن يفترسه! فجلس، ثم سلم، ثم قال: أيها السبع، اطلب الرزق من مكان

---

(١) أي: وقت صلاة العشاء.

(٢) أي: لأراقبنه.

(٣) وهي الشجر الملتف.

(٤) أي: لم يأبه به.

آخر. فولّى وإن له لزئيرًا أقول: تصدع الجبال منه. قال: فما زال كذلك يصلّي، حتى كان عند الصبح جلس فحمد الله تعالى بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللّهم إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة[(١)] قال: ثم رجع، وأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عالم.

وقال يونس بن عبيد: «إني لأجد مئة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة».

وقال محمد بن واسع: «لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إليّ».

وعن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «اللّهم اغفر لي ظلمي وكفري». فقال قائل: يا أمير المؤمنين، هذا الظلم، فما بال الكفر؟ قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤][(٢)].

وعن عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألتُ عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا عن قول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

---

(١) وهذا خلاف السنة، فرسول الله ﷺ أمرنا بسؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار، كما أنه لا يستحق أحدٌ الجنة بعمله، ولعل هذا الوارد قد هجم على فؤاد صِلَةَ في ذلك الحال إجلالًا لله تعالى، وتعظيمًا له، وإزراءً شديدًا على نفسه. والحق أحق أن يتّبع، فهو من الخطأ المغفور ـ بإذن الله تعالى ـ الذي يُعتذر له عنه، لا من السعي المشكور الذي يُقتدى به فيه.

(٢) الدر المنثور (٦/ ٧٦). وكل نعمة لم يُؤَدَّ حقّها فهي مكفورة، والله المستعان.

مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات؛ فمَن مضى على عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق، وأما المقتصد؛ فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه؛ فمثلي ومثلكم». فجعلت نفسها معنا(١)(٢).

ومقتُ النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله تعالى في لحظة واحدة أضعافَ أضعاف ما يدنو بالعمل.

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه؛ فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا.

فمن أنفع ما للقلب: النظرُ في حق الله على العباد، فإن ذلك يورث العبد مقت نفسه والإزراء عليها، ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يُكفر.

فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنه غير مؤدّ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة، وأنه إن أُحيل على عمله هلك.

فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من

---

(١) مسند الطيالسي (١٤٨٩).

(٢) علمًا بأنها من السابقين المقربين، لأنها مع رسول الله ﷺ في منزلته في الجنة.

أنفسهم، وعلّق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته.

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضدّ ذلك، ينظرون في حقهم على الله، ولا ينظرون في حق الله عليهم. ومن هٰهنا انقطعوا عن الله، وحُجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولًا، ثم نظره: هل قام به كما ينبغي ثانيًا.

وأفضل الفكرِ: الفكرُ في ذلك، فإنه يُسيّرُ القلب إلى الله، ويطرحه بين يديه ذليلًا خاضعًا منكسرًا كسرًا فيه جبرُه، ومفتقرًا فقرًا فيه غناه، وذليلًا ذلًّا فيه عزّه. ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أفضل من الذي أتى.

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه: أن لا يتركه ذلك يُدِلّ(١) بعمل أصلًا كائنًا ما كان. ومن أَدَلَّ بعمله لم يصعد إلى الله تعالى. كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله أنه قال له رجل: إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البقل من دموعي! فقال له: إنك أن تضحك وأنت تعترف لله

---

(١) الإدلال: هو النظر في العمل الصالح ومراعاته بعينه وملاحظته له والإعجاب بوجه خفي به، وإكباره في عين صاحبه، وقد ينتهي به إلى المِنَّة بعمله على ربه، فينتهي به إلى أن يظن أن له حقًّا واجبًا على الله تعالى. ومنه الدَّلَال. وقد قالوا:

بين التذلُّلِ والتدلُّلِ نقطةٌ ... في رفعها تتحيَّرُ الأفهــامُ

بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مُدِلٌ بعملك، فإن صلاة الدالّ لا تصعد فوقه. فقال له: أوصني. قال: عليك بالزهد في الدنيا، وألّا تنازعها أهلها، وأن تكون كالنحلة إن أكلت أكلت طيبًا، وإن وضعت وضعت طيبًا، وإن وقعت على عود لم تضره ولم تكسره. وأوصيك بالنصح لله عز وجل نصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم.

ومن هذا أخذ الشاطبي قوله:

وقد قيل كن كالكلب يُقصيه أهلُه   ولا يأتلِ في نصحهم مُتبذِّلًا

وعن الجريري قال: بلغني أن رجلًا من بني إسرائيل كانت له إلى الله عز وجل حاجة، فتعبّد واجتهد، ثم طلب إلى الله تعالى حاجته، فلم ير نجاحًا. فبات ليلة مُزريًا على نفسه وقال: يا نفس، مالك لا تُقضى حاجتك؟ فبات محزونًا قد أزرى على نفسه، وألزم إطلاقه نفسه فقال: أما والله ما من قِبَلِ ربي أُتيتُ، ولكن من قِبَلِ نفسي أُتيت. وألزم نفسه الملامة؛ فقُضيت حاجته»[(١)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا من قد ملكته نفسه، وغلبه حسّه، وقد دنا حبسه، وسَتُكَفُّ خَمْسُهُ، ولقد أنذره جنسه، عاتب نفسك لعلها ترعوي، وسلمها إلى رائض العلم عساها تستوي، أحضر دستور المحاسبة وحاسبها، واندبها إلى الخير فإن أبت فاندبها.

ابكِ لما بك، واندب في شيبك على شبابك، وتأهب لسيف المنون فقد

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٧ - ٨٩) باختصار وتصرف.

علق الشَّبَا بِك.

قـــد كـــان عمـــرُك مـــيلًا فأصـــبح الميـــل شـــبرًا
وأصـــبح الشـــبر عقـــدًا فـــاحفر لنفســـك قـــبرًا

عجبا للطرف كيف اغتمض، ولِمُكَلَّفٍ ما أدى المفترض، يا مشغولًا عن الجوهر بفاني العرض.

ألا يـــا غـــافلًا تُحـــصى عليـــه مـــن العمـــلِ الصـــغيرةُ والكبـــيرَة
يُصـــاح بـــه ويُنـــذر كـــل يـــوم وقـــد أنْســـتهُ غفلتُـــه مصـــيرَه
تأهـــب للرحيـــل فقـــد تـــدانى وأنـــذرك الرحيـــلَ أخٌ وجِـــيرَة
وكـــم ذنـــب أتيـــتَ عـــلى بصـــيره وعينُـــك بالـــذي تـــأتي قريـــرَة
تُحـــاذر أن تـــراك هنـــاك عـــين وإنَّ عليـــك للعـــينُ البصـــيرَة
وكـــم مـــن مَـــدْخَلٍ لـــو مُـــتَّ فيـــه لكنـــتَ بـــه نكـــالًا في العشـــيرَة
وُقيـــت الســـوء والمكـــروه منـــه ورحـــت بنعمـــةٍ فيـــه ســـتيرَة

هذا حادي المات قد أسرع، هذه سيوف المُلِمَّات تلمع، هذه قصور الأقران بلقع، إن وصلت الدنيا فعلى نيَّة أن تقطع، وإن بذلت فعلى عزم أن تمنع، أفيها حيلة أم في وصلها مطمع؟ يا مُعرِقًا في البِلى قل لي لمن تجمع؟! إذا خلوت وتخليت فكيف تصنع؟»(١).

«لله درُّ أقوام أقبلوا بالقلوب على مُقلِّبها، وأقاموا النفوس بين يدي

(١) المدهش (٥١٣ - ٥١٥) مختصرًا.

مؤدِّبها، وسلّموها إذا باعوها إلى صاحبها، وأحضروا الآخرة فنظروا إلى غائبها، وسهروا الليالي كأنهم وُكِّلوا بِرَعيِ كواكبها، ونادوا أنفسهم صبرًا على نار حطبها، ومَقَتُوا الدنيا فما مالوا إلى ملاعبها، واشتاقوا إلى لقاء حبيبهم فاستطالوا مدة المقام بها.

إذا كُنتَ قُوتَ النَفس ثُمَ هجرتَها فكَم تلبَثُ النَفس التي أَنتَ قوتها؟
ستبقَى بقاء الضَبِ في الماءِ أَو كما يَعيشُ ببيداء المَهَامِهِ حُوتُها

لله در أرواح تشتاق إلى روح قُرْبِه، وتلتذ عند ابتلائه بوقع ضَرْبِه، ويطول عليها الزمان شوقًا إليه لحبه، إن سألت عن صفاتهم، فكل منهم مخلص لربه، مجتهد في طاعته، خائف من عتبه، قائم على نفسه باستيفاء الحق منها على قلبه.

أيها العبد: راقب من يراك على كل حال، وما زال نظره إليك في جميع الأفعال، وطهّر سرّك فهو عليم بما يخطر بالبال.

إِلى متى تميل إلى الزخارف، وإلى كم ترغب لسماع الملاهي المعازف، كأني بك وقد هجم عليك الحِمام العاسف، وافترسك من بين خليلك وصديقك المؤالف، وتخلّى عنك حبيبك وقريبك ومن كنت عليه عاطف، لا يستطيعون رَدَّ ما نزل بك، ولا تجد له كاشف، وقد نزلتَ بفناء من له الرحمة والإحسان واللطائف، فلو عاتبك لكان عتبه على نفسك من أخوف المخاوف، وإن ناقشك في الحساب، فأنت تألف.

أين مقامك من مقام الأبطال يا بطّال، يا كثير الزلل والخطايا، يا قبيح الفعال، كيف قنعت لنفسك بخساسة الدون؟ وغرتك أمانيك بحب الدنيا يا

مفتون؟ هلّا تعرضت لأوصاف الصدق فاستحليت بها ألقاب الحق: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

إلى متى أنت مريض بالزكام؟ ومتى تستنشق ريح قميص يوسف عليه السلام يا غلام؟ لعله يرفع عن بصيرتك حجاب العمى، وتقف متذللًا على باب إله الأرض والسماء، خرج قميص يوسف من مصر إلى كنعان، فلا أهل القافلة علموا بريحه، ولا حامل القميص علم، وإنما قال صاحب الوجد: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ [يوسف: ٩٤]، كل واحد منكم في فقد قلبه كيعقوب في فقد يوسف، فلينصب نفسه في مقام يعقوب، ويتحسّر وليبك على ما سلف، ولا ييأَس.

قال أبو سليمان الداراني: «من صَفَا صُفِّي له، ومن كَدَرَ كُدِّر عليه، ومن أحسن في ليله كُفي في نهاره». وقال الفضيل بن عياض: «إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي»(١).

فيا من يريد دوام العيش على البقاء، دم على الإخلاص والنقاء، وإياك والمعاصي، فالعاصي في شقاء المعاصي، والمعاصي تُذلّ الإنسان وتخرس اللسان»(٢).

٩- صحبة ضعيفي التعلق بالله تعالى.

---

(١) قلَّت ذنوبهم فعلموا من أين أُتُوا.

(٢) مواعظ ابن الجوزي (١٤- ١٥) باختصار.



للصحبة تأثير لا يستوعبه أكثر الناس، فكثيرُهم يظن أنه محصّن من تأثير الأقران والأصحاب والأخلّاء، وأنهم إن أثّروا فيه فتأثيرهم ضئيل ولا يلبث أن يضمحل وتذروه الرياح. والحقُّ أنّ الأمر بخلاف ذلك تمامًا!

فالطباعُ سرّاقة، والجِبلّات نزّاعة، والصاحب ساحب، وهو يقود صاحبه بأخلاقه وألفاظه وإلماحاته ومواقفه وفرحه وغضبه وسائر أخلاقه، لكن ذلك النَّحت المؤثر في نفسية الصَّدِيق أنها يكون مع كرور الأيام وتطاول الليالي، فالنفس مجبولة على جذب ما يلائمها من السجايا، والتحلّي بها أطاقت من محبوباتها المطبوعة في الناس، بل حتى الرغبات والمستكرهات النفسانية تتأثر بمخالطة الجليس، واعتبر ذلك فيما حولك، فتراه واضحًا في الأخلاق والسلوك والألفاظ والإيماءات، بل وحتى الميول والاتجاهات، والأخطر من ذلك الأفكار والتصورات والقيم والمعتقدات.

فمن صاحب تقيًّا صالحًا عابدًا قانتًا فإن الحالة الروحانية الطيبة المحبوبة المحيطة بمجالس ذلك الإنسان الصالح سرعان ما تجد لها منفذًا في قلوب أصحابه، والعالم الربّاني الفقيه يؤثر في تلاميذه بأخلاقه وسمته وورعه أسرع من تأثرهم بكلامه، فالمسافة طويلة نسبيًّا بين كلامه ووقعه في النفس مالم يكن سبق تمهيد لقبول نفسانيٍّ للمتكلِّم، وهذا لا يتأتّى إلا بالشعور الناتج عن الثقة والحب والميل القلبي، وكل هذه ثمار المصاحبة والمجالسة.

كذلك الشجاع والكريم ـ ومعدن الشجاعة والكرم واحد كما أن معدن الجبن والبخل واحد ـ تجده يؤثر في أقرانه وأخصّائه بشجاعته وكرمه، فيخرج

الواحد من عنده وقد زادت شجاعته وانبسط سخاؤه، وما ذاك إلا تأثُّرًا بمن صاحبه، وانفعالًا بمن جالسه.

كذلك الفاسق الخبيث فتأثيره في صحبة صديقه كالسم البطيء الذي يسري في الجسد وصاحبه عنه غافل، حتى يفتك به ويعطبه ويهلكه أو يمرضه ويضعفه ويُغفّله.

وكذلك البطّال ساقط الهمة الذي لا يرفع رأسه لمهمّات الأمور، ولا يسمو بهمّته للدرجات العلى من الجنة، ويكتفي بالاعتماد على سعة رحمة الله تعالى ومغفرته دون بذل الجهد لنيل ذلك، وما علم أن تلك هي سلعة الأماني، والأماني رأس مال المفاليس! والجنة تريد عملًا لا بطالة، ومجاهدة لا لعبًا، وجدًّا لا هَزْلًا.

ومن أَوْلى وصايا المربّين للتائبين أن يرشدوهم لتغيير بيئة الصحبة، فالتوبة زرع ضعيف محتاج لعناية فائقة بحسن تأتٍّ وحكمةٍ، وترابٍ طيب بحسن صحبة، وهواء نقي بنقاء علمٍ، وشمس ساطعة بحزم مربٍّ، وملاحظة حنونٍ بعقار نُصح.

وعند أبي داود[(١)] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخَالِل**»[(٢)] وله[(١)] عن أبي

(١) أبو داود (٤٨٣٣) وحسنه الألباني.

(٢) يُخَالِل: يصاحب ويصادق ويحب.

سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا تُصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيّ**» وفي الموطأ(٢) عن مخبر أن ابن عمر قال - وهو يوصي رجلًا -: «لا تعترض فيما لا يعنيك، واعتزل عدوّك، واحذر خليلك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله، ولا تصحب فاجرًا كي لا تتعلم من فجوره، ولا تفش إليه سرّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله عز وجل».

إذا ما صحبتَ الناسَ فاصحبْ خيارَهُم ... ولا تصحبِ الأردَى فتردَى مع الرَّدِي

عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينه ... فكلُّ قرينٍ بالمُقَارنِ يقتدي

لقد ندب الله أولياءه إلى صحبة الأخيار فقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨] وأرصد الثواب الجزيل والأجر الوافر للمتحابين فيه، والمتزاورين فيه، والمتجالسين فيه، والمتباذلين فيه، وبيّن فضل الجليس الصالح، وحذر من ضده، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ: «**أن رجلًا زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصَد الله تعالى على مَدْرَجَتِه(٣) ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟(٤) قال: لا، غير أني**

=

(١) أبو داود (٤٨٣٢) وحسنه الألباني.

(٢) الموطأ برواية محمد بن الحسن (٣/ ٤١١) (٩٢٢).

(٣) أي: طريقه.

(٤) أي: تقوم بها، وتسعى في صلاحها. وأصلُ الرِّبا الزيادة.

أحببته في الله تعالى، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(١). فواهًا لتيك المحبة الإلهية ما أطيبها، وأيسرَ - بحمد الله تعالى - طريقها!

وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله، ناداه مناد: بأن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا»(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ، قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكِيْرِ، فحامل المسك: إما أن يُحذِيَكَ(٣) وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا منتنة»(٤).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «المرءُ مع من أحب»(٥) وفي رواية: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولمّا يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحب». ولما ذكر السائل عن الساعة أنه يحب الله رسوله، قال

---

(١) مسلم ١٢/٨ (٢٥٦٧) (٣٨).

(٢) ابن ماجه (١٤٤٣)، والترمذي (٢٠٠٨) وقال: حديث غريب. وقال ابن حجر في الفتح (٥١٥/١٠): «له شاهد بإسناد جيد» وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠٠٨).

(٣) أي: يُهديك من الطيب. فالحذيّة هي الهديّة.

(٤) البخاري ١٢٥/٧ (٥٥٣٤)، ومسلم ٣٧/٨ (٢٦٢٨) (١٤٦).

(٥) البخاري ٤٩/٨ (٦١٧٠)، ومسلم ٤٣/٨ (٢٦٤١).

رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت». قال أنس: فما رأيت فرح المسلمون بعد الإسلام فَرَحَهُم بهذا[(١)].

وعن أسير بن عمرو قال: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أتى عليه أمدادُ[(٢)] أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس، فقال له: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قَرَنٍ؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص، فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُرَادٍ، ثم من قَرَن، كان به برص، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برٌّ، لو أقسم على الله لأبرّه**[(٣)]**، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**» فاستغفرْ لي، فاستغفرَ له.

فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراءِ الناس أحبّ إلي[(٤)]، فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رثّ البيت قليل

(١) أحمد (١٢٠٣٦) والترمذي (٢٣٨٥) وصححه. وكذلك صححه الألباني.
(٢) أي: وفود وجماعات.
(٣) برّ والدته فأبرّه الله تعالى.
(٤) غبراء الناس: أي مختلط بعامتهم غير متميّز عليهم بجاه أو غنى أو شارة أو غير ذلك، فلا يختلف ظاهر حاله عنهم، وهذا من تمام تديّنه، وكمال عقله، وزهده في الدنيا، وصحّة يقينه، وأمارةِ توفيقه.

المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد من أهل اليمن، من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك، فافعل**» فأتى أويسًا، فقال: استغفر لي. قال: أنت أحدث عهدًا بسفر صالح، فاستغفر لي. قال: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه» (١) (٢).

هذا ومن فاز بصحبة تقي ماجد فليغتبط بذلك، وليدّخر محبته له في الله من صالح ذخائره يوم الدين، وليخبره بمحبته له في الله تعالى، فعن أبي

---

(١) مسلم ١٨٨/٧ (٢٥٤٢) (٢٢٣) و١٨٩ (٢٥٤٢) (٢٢٤) و(٢٢٥) وانظر لهذا الموضع شرح النووي لصحيح مسلم ٢٧٥/٨ (٢٥٤٢).

(٢) هربًا من الشهرة، وضنًّا بجمعيّة قلبه على شتاته، وحذرًا على إخلاصه من فتك المراءاة. وفي رواية عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إِنِّي سمعتُ رسول ﷺ يقول: «**إن خير التابعين رجل يقال له: أويس، وله والدة، وكان به بياض، فمروه، فليستغفر لكم**». (٢٥٤٢) وهذا نصٌّ في تفضيله على الناس بعد الصحابة، فتأمل فضل برِّ الوالدة، وقد نصر ذلك شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعلى. وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (١٦/ ٩٥): « هذا صريح في أنه خير التابعين، وقد يقال: قد قال أحمد بن حنبل وغيره: «أفضل التابعين سعيد بن المسيب». والجواب: أن مرادهم: أن سعيدًا أفضل في العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه ونحوها، لا في الخير عند الله تعالى، وفي هذه اللفظة معجزة ظاهرة أيضًا».

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - وذكر منهم -: رجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه»(١).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(٢).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(٣).

وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «قال الله عز وجل: المتحابّون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم(٤) النبيون والشهداء»(٥).

وعن أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: دخلت مسجد دمشق، فإذا فتى برّاق الثنايا(٦) وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا في شيء، أسندوه إليه، وصدروا عن رأيه،

(١) البخاري ١٣٨/٢ (١٤٢٣)، ومسلم ٩٣/٣ (١٠٣١) (٩١).
(٢) مسلم ١٢/٨ (٢٥٦٦) (٣٧).
(٣) مسلم ٥٣/١ (٥٤) (٩٤).
(٤) الغبطة: تمني مثل ما للغير من الخير من غير زواله عن صاحبه. دليل الفالحين ٣٣٥/٣.
(٥) الترمذي (٢٣٩٠) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.
(٦) وصف ثناياه بالحسن والصفاء، وأنها تلمع إذا تبسم كالبرق، وأراد صفة وجهه بالبشر والطلاقة. النهاية ١٢٠/١.

فسألت عنه، فقيل: هذا معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. فلما كان من الغد، هجّرت[(١)] فوجدته قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته مِن قِبَلِ وجهه، فسلمت عليه، ثم قلت: والله إني لأحبك لله، فقال: آلله؟[(٢)] فقلت: الله، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فأخذني بحبوة ردائي، فجبذني[(٣)] إليه، فقال: أبشر! فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ**»[(٤)].

وعن أبي كريمة المقدام بن معدي كرب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «**إذا أحب الرجل أخاه، فليخبره أنه يحبه**»[(٥)].

وعن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ، والله**

---

(١) أي: بكّرت وقت الضحى أو الظهر.

(٢) استفهام بقسم، بمعنى: هل تقسم بالله تعالى على ذلك؟

(٣) الجبذ والجذب بمعنى.

(٤) مالك في الموطأ (٢٧٤٤) برواية الليثي، وصححه النووي في رياض الصالحين. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١). ومعنى "**المتباذلين فيّ**" أي: الذين يبذلون أنفسهم في مرضاتي، كذلك من تباذلوا في الله تعالى بأي وجه كان بالمال أو بالجهد أو بالمعونة أو بالدعاء.

(٥) أبو داود (٥١٢٤) وسكت عنه، والترمذي (٢٣٩٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٣٤)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وصححه ابن دقيق العيد في الاقتراح (١٢٨) والألباني في صحيح أبي داود.

إني لأحبك[١] ثم أوصيك يا معاذ: لا تدعنّ في دبر كل صلاة تقول: اللّٰهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[٢].

(١) أيُّ فضلٍ ورفعة وغبطة بعد ذلك، فرسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يقسم بالله على حبه! رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وقد قالها لها وهو يودعه في ذهابه لليمن الذي لم يره بعده.

(٢) أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي ٥٣/٣ وصححه النووي في الرياض، وصححه الألباني. وهذا الدعاء معدود من أجمع الأدعية النبوية، فإن أعانك الله تعالى على ذكره وشكره وحسن عبادته؛ فقد حُزت الخير بأطرافه، فحريٌّ بالمؤمن المداومة عليه. وقال شيخنا ابن باز رحمه الله تعالى في فتاويه (١٩٧/١١) في موضع هذا الدعاء من الصلاة: "الأفضل أن يكون هذا الدعاء وأشباهه قبل السلام، لأن النبي ﷺ لما علّم الصحابة التشهد قال: «**ثم ليتخير من المسألة ما شاء**». ـ مسلم (٤٠٢) ـ وفي لفظ: «**ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو به**». ـ البخاري (٨٣٥) ومسلم (٤٠٢) ـ وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لا تدع أن تقول دُبُرَ كل صلاة: اللّٰهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**». ودبر الشيء آخره، كدبر الحيوان. ويلحق بذلك ما يلي الصلاة بعد السلام، فإنه يُسمّى دُبُرًا، لما ثبت في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال «كان النبي ﷺ يقول في دبر كل صلاة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللّٰهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ**». ـ البخاري (٨٤٤) ومسلم (٥٩٣) ـ. ومعلوم أن هذا الذكر يقال بعد السلام، وقد جاء ذلك صريحا في بعض روايات حديث المغيرة وغيرها، فدل ذلك على أنه لا حرج في الدعاء بعد السلام وبعد الذكر فيما بين العبد وبين ربه، عملا بالأدلة كلها. والله ولي التوفيق".

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا كان عند النبي ﷺ، فمرّ رجل به، فقال: يا رسول الله، أني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: «**أأعلمته؟**» قال: لا. قال: «**أعلِمْهُ**» فلحقه، فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له(١).

قال المـاوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعاقل يستزيد من الخير اقتداء بغيره، وهذا قد تثمره مجالسة الأخيار الأفاضل، وتحدثه مكاثرة الأتقياء الأماثل. فإذا كاثرهم المُجالِسُ، وطاولهم المُؤَانسُ، أحبّ أن يقتديَ بهم في أفعالهم، ويتأسّى بهم في أعمالهم، ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم، ولا أن يكون في الخير دونهم، فتبعثه المنافسة على مساواتهم، وربما دعته الحميّة إلى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم؛ فيصيروا سببًا لسعادته، وباعثًا على استزادته.

والعرب تقول: لولا الوئام لهلك الأنام. أي لولا أن الناس يرى بعضهم بعضًا فيقتدي بهم في الخير لهلكوا.

ولذلك قال بعض البلغاء: «مِن خير الاختيار صحبة الأخيار، ومن شر الاختيار مودة الأشرار». وهذا صحيح؛ لأن للمصاحبة تأثيرًا في اكتساب الأخلاق، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد. ولذلك قال الشاعر:

رأيـتُ صـلاحَ المـرء يُصـلح أهلَـه ... ويُعْـدِيهمُ عنـد الفسـادِ إذا فَسَـدْ

---

(١) أبو داود (٥١٢٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠١٠) وصححه النووي في الرياض.
والرجل المحبوب هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



يُعَظَّمُ في الدنيا بفضل صلاحه ... ويُحفظ بعد الموت في الأهلِ والولدْ

وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسدُ

عدوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ ... والجمرُ يوضع في الرمال فيخمدُ»(١)

وقال أبو حامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان. فلا بد أن يتميز بخصال وصفات يُرغب بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، ويطلب من الصحبة فوائد دينية ودنيوية:

أما الدنيوية، فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستئناس بالمشاهدة والمجاورة وليس ذلك من أغراضنا.

وأما الدينية، فيجتمع فيها أيضًا أغراض مختلفة؛ إذ منها الاستفادة من العلم والعمل، ومنها الاستعانة في المهمات فيكون عُدَّةٌ في المصائب وقوّة في الأحوال، ومنها الاستفادة من دعاء الصاحب، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة(٢). ولذلك حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد.

---

(١) أدب الدنيا والدين (١٣٠- ١٣١) باختصار.

(٢) ومن حزين كلام أهل النار وحسراتهم قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠- ١٠١].

وهناك شروط لمن تراد مصاحبته، وهي خمس خصال: أن يكون عاقلًا، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل: فهو رأس المال وهو الأصل، فلا خير في صحبة الأحمق، فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت. قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

فلا تصحبْ أخا الجهلِ	وإيّاكَ وإيّاهُ
فكم من جاهلٍ أرْدِى	حليمًا حين آخاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ	إذا ما المرءُ ماشاهُ
وللشيءِ من الشيء	مَقَاييسٌ وأشباهُ
وللقلبِ على القلبِ	دليلٌ حين يلقاهُ

كيف والأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري. ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه، إما بنفسه، وإما إذا فهم.

وأما حسن الخلق: فلا بد منه، إذ رُبَّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضب أو شهوة أو بخل أو جبن أطاع هواه وخالف ما هو المعلوم عنده، لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه، فلا خير في صحبته.

وأما الفاسق المصر على الفسق: فلا فائدة في صحبته، لأن من يخاف الله لا يصرّ على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغير بتغير الأغراض. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ

﴿هَوَىٰهُ﴾ [طه: ١٦] وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وقال: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق.

وأما المبتدع: ففي صحبته خطر سِرَايَة البدعة وتعدِّي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة، فكيف تؤثر صحبته؟!

وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة العطاردي في وصيته لابنه حين حضرته الوفاة قال: «يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة؛ فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدَّها، وإن رأى منك حسنة عدَّها، وإن رأى سيئة سدَّها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدَّق قولَك، وإن حاولتما أمرًا أمّرك، وإن تنازعتما آثرك».

فكأنه جمع بهذا جميع حقوق الصحبة، وشرط أن يكون قائمًا بجميعها. قال ابن أكثم: قال المأمون فأين هذا؟ فقيل له: أتدري لم أوصاه بذلك؟ قال لا. لأنه أراد ألّا يصحب أحدًا!

وقال بعض الأدباء: «إن لم تجد من يستحق صحبتك فلا تصحب إلا نفسك». وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

إن أخـاك الحـقّ مـن كـان معـك ومـن يضـرّ نفسَـهُ لينفعَـك
ومـن إذا شَـدُّ(١) الزمـانِ صَـدَّعَك شـتّتَ فيـه شـملَهُ ليجمعَـك

وقال بعض العلماء: «لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئًا من أمر دينك فينفعك، أو رجل تُعلّمه شيئًا في أمر دينه فيقبل منك، والثالث فاهرب منه».

وقال بعضهم: «الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه، وآخر مرّ كله فلا يؤكل منه، وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك، وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط»(٢).

وقال جعفر الصادق: «لا تصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرّب منك البعيد ويبعّد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرّك. والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفرّ عند الشدّة، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها».

وقال المأمون: «الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه، والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت، والثالث مثله مثل الداء

---

(١) في الأصل «ريب» فأبدلتها بـ «شدّ»؛ لأن في الأولى سب للدهر، ولا أظنه يصح عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكثيرٌ مما نسب له وللشافعي رحمه الله تعالى لا يثبت.

(٢) لعله أراد بالحموضة اختلاط الأخلاق، وبالملوحة حاجة الدنيا.

لا يحتاج إليه قط، ولكن العبد قد يبتلي به، وهو الذي لا أنس فيه ولا نفع».

وقد قيل: «مثل جملة الناس كمثل الشجر والنبات، فمنها ما له ظل وليس له ثمر، وهو مثل الذي يُنتفع به في الدنيا دون الآخرة، فإن نفع الدنيا كالظل السريع الزوال، ومنها ما له ثمر وليس له ظل، وهو مثل الذي يصلح للآخرة دون الدنيا، ومنها ما له ثمر وظل جميعًا، ومنها ما ليس له واحد منهما كأُمِّ غيلان(١) تُمَزِّقُ الثياب ولا طعم فيها ولا شراب، ومثله من الحيوانات الفأرة والعقرب، كما قال تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣]» وقال الشاعر:

الناس شتّى إذا ما أنت ذقتهم	لا يستوون كما لا يستوي الشجرُ
هذا له ثمرٌ حلوٌ مذاقته	وذاك ليس له طعمٌ ولا ثمرُ

فإذا لم يجد رفيقًا يؤاخيه ويستفيد به أحد هذه المقاصد فالوحدة أولى به. قال أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الوحدة خير من الجليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة».

---

(١) أم غيلان هي شجرة السَّمْر. قال ابن البيطار في جامعه (١/٥٧): «هي اسم للسَّمْر عند أهل الصحراء، وذكر أبو حنيفة أن العامة تسمّي الطلح (أم غيلان). قلت: وأهل البلاد يُسمّون ما عظم من شجر السّمر (الطلح) وأكثر ما يعظم بأودية الحجاز» ا.هـ باختصار.

قلت: وعروق السّمْر هي أجود الحطب.

وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٥] ولأن مشاهدة الفسق والفساق تهوّن أمر المعصية على القلب، وتبطل نفرة القلب عنها.

وأما الحريص على الدنيا: فصحبته سمٌّ قاتل، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرّك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تُكرهُ صحبة طلاب الدنيا، وتُستحبُّ صحبة الراغبين في الآخرة(١).

قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «أحيوا الطاعات بمجالسة من يُستحيا منه». وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُٱللَّهُ: «ما أوقعني في بليّة إلا صحبة من لا أحتشمه». وقال لقمان: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن القلوب لتحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر».

واعلم أنه ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين، بل من الوفاء المخالفة(٢)، فقد كان الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ آخى محمد بن عبد الحكم، وكان يقرّبه ويُقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره؛ فاعتلَّ محمدٌ فعاده الشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ فقال:

مـــــرِضَ الحبيــــبُ فعُدتُّــــهُ ... فمرضـــتُ مـــن حـــذري عليـــه

---

(١) ابحث عنهم وإن قَلُّوا، وأحسن صحبتهم وإن قَلَوا.

(٢) فصديقك من صَدَقَك لا من صَدّقَك.

وأتـــــى الحبيـــــبُ يعـــــودُنِي فبرئـــتُ مـــن نظـــري إليـــه

وظن الناس لصدق مودتها أنه يفوّض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علّته التي مات فيها رضي الله تعالى عنه: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه؛ فقال الشافعي: سبحان الله أيُشكُّ في هذا؟ وأرشدهم لأبي يعقوب البويطي. فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أن محمدًا كان قد حمل عنه مذهبه كلَّه، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع.

فنصح الشافعي لله تعالى وللمسلمين، وتَرَكَ المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضى الله تعالى. فلما توفي انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه، ودرس كتب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو من كبار أصحاب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وآثر البويطي الزهد والخمول، ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة، واشتغل بالعبادة وصنف كتاب (الأم) الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف به، وإنما صنفه البويطي، ولكن لم يذكر نفسه فيه ولم ينسبه إلى نفسه[(١)]، فزاد الربيع فيه وتصرّف وأظهره.

والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح لله تعالى. قال الأحنف: «الإخاء جوهرة رقيقة، إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات، فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل، ولا

---

(١) فكان كما قال شيخه الشافعي رحمها الله: «وددت لو أن العلم الذي في صدري قد بُثَّ في الناس ولم يُنسب إليّ منه شيء».

من أخيك التقصير».

ومن الوفاء للصديق: ألّا يسمع بلاغات الناس عليه، لا سيما من يُظهر أولًا أنه محب لصديقه - كي لا يُتّهم - ثم يلقي الكلام عرضًا وينقل عن الصديق ما يوغر القلب، فذلك من دقائق الحيل في التضريب، ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلًا.

ونذكر جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق ملتقطة من كلام بعض الحكماء:

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوّك بوجه الرضا من غير ذلة لهم، ولا هيبة منهم، وتوقير من غير كبر، وتواضع من غير مذلّة. وكن في جميع أمورك في أوسطها، فَكِلَا طَرَفَي قصد الأمور ذميم. ولا تنظر في عطفيك، ولا تكثر الالتفات، ولا تقف على الجماعات.

وإذا جلست فلا تستوفز، وتحفّظْ من تخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بصاقك وتنخمك، وكثرة التمطّي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها.

وليكن مجلسك هادئًا، وحديثك منظومًا مرتبًا، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدّثك من غير إظهار تعجّب مفرط. ولا تُحدِّث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شِعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصّك، ولا تتصنّع تصنّع المرأة في التزيّن، ولا تتبذّل تبذّل العبد، وتوّقّ كثرة الكحل والإسراف في الدهن، ولا تلحّ في الحاجات، ولا تشجع أحدًا على الظلم.

ولا تعلم أهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأوه قليلًا هنت عندهم، وإن كان كثيرًا لم تبلغ قط رضاهم، وخوّفهم من غير عنف، ولِن لهم من غير ضعف، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك.

وإذا خاصمت فتوقّر، وتحفّظ من جهلك، وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيديك، ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك، ولا تجث على ركبتيك، وإذا هدأ غيظك فتكلّم.

وإياك وصديق العافية، فإنّه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك، وإذا دخلت مجلسًا فالأدب فيه البداية بالتسليم، وترك التخطي لمن سبق، والجلوس حيث اتسع، وحيث يكون أقرب إلى التواضع، وأن تُحيّي بالسلام من قرب منك عند الجلوس.

ولا تجلس على الطريق، فإن جلست فأدبُه غض البصر، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وعون الضعيف، وإرشاد الضال، وردّ السلام، وإعطاء السائل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

ولا تجالس العامّة، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم، وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم.

وإياك وكثرة المزاح مع لبيب أو غير لبيب، فإن اللبيب يحقد عليك،

والسفيه يجترئ عليك»[(١)].

واحذر من صحبة من يبعدك عن ربك، ويضعف صلتك بمعبودك، ويوهن تعلّقك بإلهك.

فـما ينفـعُ الجربـاءَ قُـرْبُ صـحيحةٍ إليهـا ولكـنَّ الصـحيحة تجـربُ
فـإن كنـتَ لا تـدري فتلـكَ مصـيبةٌ وإن كنـت تـدري فالمصيبةُ أصعبُ

والعاقل لا ينزف عقله ومروءته في صحبة من يسرق منه ثمين عمره وسمين وقته، ويوهن من حزمه مع نفسه، ويضعف عزمه فيما ينفعه، ويُشتّت جمعيته فيما هو من شأنه.

«قال أرسطو طاليس: الأشكال لاحقة بأشكالها، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها. وقال: من لم يرفع نفسه عن قدر الجاهل، رفع الجاهل قدره عليه.

فصـاحب تقيًّـا عالمـًا تنتفـعْ بـه فصحبةُ أهلِ الخير تُرجى وتُطلبُ
وإيّـاكَ والفسـاقَ لا تصـحبنّهم فقُـرْبُهُمُ يُعـدِي وهـذا مُجَـرَّبُ
فإنّـا رأينـا المـرءَ يَسْـرُق طبعَـهُ من الإلْفِ ثم الشرُّ للناسِ أغلبُ
وجانـب ذوي الأوزارِ لا تقـرَبنّهم فقُـرْبُهُم يُـرْدِي وللعـرضِ يَثْلُـبُ

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لا تؤاخ الفاجر، فإنه يزيّن لك فعله، ويُحبّ لو أنك مثله، ومدخله عليك ومخرجك من عنده شين وعار. ولا الأحمق فإنه يجهد نفسه لك ولا ينفعك، وربما أراد أن ينفعك فضرك، فسكوته خير من

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ١٨ – ٢١) بتصرف واختصار.

نطقه، وبُعده خير من قربه، وموته خير لك من حياته. ولا الكذّاب فإنه لا ينفعك معه عِشْرَة، ينقل حديثك وينقل الحديث إليك، وإن تحَدَّثَ بالصِّدْقِ لا يُصَدَّق.

اتَّـــقِ الأحمـــقَ لا تصـــحبَهُ إنـــما الأحمــقُ كـــالثوبِ الخَلِــقْ
فهـــو إن رقّعتـــه مـــن جانـــبٍ عــادَ مــن هــونٍ سريعًـا فـانخرقْ

فلا يسوغ لك أيها العاقل الرشيد صحبة مثل هذا الأحمق البليد، فإنه يسوءُك بحمقه وتأنّبه، ولا تعرف رضاه من غضبه.

والصداقة تطلق على ما دون الأخوّة، والأخوّة هي المرتبة العليا، وإنما تقع الأخوة الصادقة إذا حصل التشاكل بين الأخوين في أصل الوضع»(١)(٢).

وقيد ابن الجوزي فائدة نفيسة في صيد خاطره(٣) فقال: «رأيت نفسي تأنس بخلطاء نسمّيهم أصدقاء، فبحثت بالتجارب عنهم فإذا أكثرهم حسّاد على النعم، وأعداء، لا يسترون زلة، ولا يعرفون لجليس حقًّا، ولا يواسون من مالهم صديقًا.

فتأملت الأمر فإذا الحق سبحانه يحمي قلب المؤمن أن يجعل له شيئًا يأنس به، فهو يُكدّر عليه الدنيا وأهلَها ليكون أنسُه به.

---

(١) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٤/ ٦٥ - ٦٩) مختصرًا.
(٢) وأعظم تشاكُلِ الأوضاع ما كان في المحبة لله تعالى.
(٣) الصيد، (٤٤٣) باختصار وتصرف يسير.

لذا ينبغي أن تعدّ الخلقَ كلهم معارف ليس فيهم صديق، ثم انفر عنهم وأقبل على شأنك، متوكلًا على خالقك، فإنه لا يجلب الخير سواه، ولا يصرف السوء إلا إياه. فليكن أنيسك وموضع توكّلك وشكواك.

فإن ضعف بصرك فاستغث به، وإن قلّ يقينك فسلْهُ القوة. وإياك أن تميل إلى غيره، وأن تشكو من أقداره، فربما غضب ولم يعتب.

وما طيب العيش إلا لمن يعرفه، ويعيش معه، ويتأدب بين يديه في حركاته وكلماته كأنه يراه، ويقف على باب طَرْفِه حارسًا من نظرة لا تصلح، وعلى باب لسانه حافظًا له من كلمة لا تحسن، وعلى باب قلبه حماية لمسكنه من دخول الأغيار».

«قال أبو حازم: كل ما يشغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم. وقد قيل:

فلا كان ما يُلهي عن الله إنه   يضرّ و يؤذى إنه لمشؤومُ

فالعاصي مشؤوم على نفسه وعلى غيره، فإنه لا يُؤمن أن ينزل عليه عذاب فيعمّ الناس، خصوصًا من لم ينكر عليه عمله، فالبعد عنه متعيّن، فإذا كثر الخَبَثُ هلك الناس عمومًا!

وكذلك أماكن المعاصي وعقوباتها، يتعين البعد عنها والهرب منها خشية نزول العذاب، كما قال النبي ﷺ لأصحابه لما مرّ على ديار ثمود بالحجر: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، خشية أن يصيبكم ما**

أصابهم»[١].

ولما تاب الذي قتل مئة نفس من بني إسرائيل وسأل العالِمَ: هل له من توبة؟ قال له: نعم، فأمره أن ينتقل من قرية السوء إلى القرية الصالحة، فأدركه الموت بينهما، فاختصم فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إليهم: «**أن قيسوا بينهما فإلى أيهما كان أقرب فألحقوه بها**». فوجدوه إلى القرية الصالحة أقرب برمية حجر، فغفر له[٢].

وهجران أماكن المعاصي وأخواتها من جملة الهجرة المأمور بها، فإن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه[٣] قال إبراهيم بن أدهم: «من أراد التوبة فليخرج من المظالم، وليدَعْ مخالطة من كان يخالطه، وإلا لم ينل ما يريد».

احذر الذنوب، فإنها مشؤومة، عواقبها ذميمة، وعقوباتها أليمة، والقلوب المُحبة لها سقيمة، السلامة منها غنيمة، والعافية منها ليس لها قيمة، والبلية بها ـ لا سيّما بعد نزول الشيب ـ داهية عظيمة.

يا من ضاع قلبه: أَنْشُدْهُ في مجالس الذكر، عسى أن تجده.

يا من مرض قلبه: احمله إلى مجلس الذكر، لعله أن يُعافى. مجالس الذكر

(١) البخاري ٦/ ٩ (٤٤١٩) و(٤٤٢٠)، ومسلم ٨/ ٢٢٠ (٢٩٨٠).
(٢) مسلم (٢٧٦٦).
(٣) البخاري (٦١١٩).



مارستان[١] الذنوب تُداوي فيها أمراض القلوب كما تداوى أمراض الأبدان»[٢].

١٠- الخوفُ من المخلوق ورجاؤه ومحبّته.

فعماد التعلق بالله تعالى وتوحيده وعبوديته هو الحب والخوف والرجاء، فإن اختلّت هذه الأعمدة وزلت تلك الأركان؛ فاضمحلال التعلّق يكون بحسَبها، والله المستعان.

والمتعلق بربه الموفق هو من جمعها في قلبه، فأَحَبَّ الله تعالى ورجاه وخافه بكل قلبه. وقد عقد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه بابًا سمّاه: (باب الرجاء مع الخوف) قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، ولا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكلٌّ منهما مذموم.

والمقصود من الرجاء: أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله، ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور. وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: «من علامة السعادة أن تطيع، وتخاف ألّا تقبل. ومن

(١) أي: مشفى (مستشفى).

(٢) لطائف المعارف لابن رجب (٨١) باختصار.

علامة الشقاء أن تعصي، وترجو أن تنجو!»

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»(١). وهذا كله متفق على استحبابه في حالة الصحة، وقيل: الأولى أن يكون الخوف في الصحة أكثر وفي المرض عكسه، وأما عند الإشراف على الموت فاستحبَّ قومٌ الاقتصار على الرجاء لما يتضمن من الافتقار إلى الله تعالى، ولأن المحذور من ترك الخوف قد تعذّر فيتعيّن حسن الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته، ويؤيده حديث: «**لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**»(٢).

وقال آخرون: لا يهمل جانب الخوف أصلًا بحيث يجزم بأنه آمن، ويؤيده ما أخرج الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: «**كيف تجدك؟**» فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف**»(٣).

---

(١) سنن الترمذي (٣١٧٥) وصححه الألباني.
(٢) مسلم (٢٨٧٧).
(٣) ابن ماجه (٤٢٦١) وحسنه الألباني.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكلِّ الذي عند الله من الرحمة؛ لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب؛ لم يأمن من النار**»[1] قيل: المراد أن الكافر لو علم سعة الرحمة لغطّى على ما يعلمه من عظم العذاب فيحصل به الرجاء، أو المراد: أن متعلق علمه بسعة الرحمة مع عدم التفاته إلى مقابلها يطمعه في الرحمة.

والحديث اشتمل على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف، فمَن علم أن من صفات الله تعالى الرحمة والانتقام لا يأمن انتقام من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمة من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة، قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] ومن تتبع دين الإسلام وجد قواعده أصولًا وفروعًا كلها في جانب الوسط، والله أعلم»[2].

١١- الشرك والكفر بالله عز وجل.

الشرك والكفر أظلمُ الظلمِ، وأجهلُ الجهلِ، وأشنعُ الذنوبِ، وأفحشُ الخطايا. وكل ذنب يقبل الغفران خلا الشرك والكفر والنفاق، نسأل الله

(١) البخاري (٥٦٥٤).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٨/ ٢٩٠- ٢٩٢) مختصرًا.

العافية والسلامة. والمؤمن الموفق حريص على معرفة دقائق التوحيد وتحقيقها، وظواهر وخفايا وأطراف وحقائق الشكر وتحصيلها، وأنواع الكفر ومزايلتها، ودقائق الشرك والبراءة منها.

وأول واجب على المكلف هو التوحيد، وهو حقيقة الشكر، وخلاصة الإسلام، وعِمادُ الإيمان، وبه يدخل الإنسان في ملة الإسلام، وتصح له من بعده صالحات الأعمال، وهل تحقيق الشهادتين إلا لأجله، وخلْقُ الدارين إلا للامتحان به، والجزاء عليه؟!

وغاية دعوة المرسلين التوحيد وحرب الشرك ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] وأولى أوّلويات الداعية إلى الله تعالى هي دعوة الناس للتوحيد، وتعبيدهم لله تعالى وحده لا شريك له، وهي محضُ الإيمان، وشرط الإسلام، ولُبَابُ الحنيفية، ومفتاح الجنة، والعروة الوثقى، وكلمة التقوى، جعلنا الله جميعًا ووالدينا وأحبابنا من أهل تحقيقها. وفي حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أوصاه بقوله - وتأمل الأوّليّة والأولوية -: «**فليكن أوّل ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى**»[1].

والشرك محبط للعمل كما يحبط الحدثُ الطهارةَ، وموجبٌ للخلود في النار مع أئمة الكفر وطُغاةِ الإشراك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢] والمشرك

---

(١) البخاري (٦٩٣٧).

محروم من العفو، ممنوع من المغفرة، محتومة له النار، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] وعمله كله حابط ولو جاء بعمل نبي ـ مع عصمتهم منه بكل حال ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥- ٦٦] فالشاكر حقًّا هو الموحد صِدقًا.

ولطالما نادى الأنبياء، وتتابع المرسلون، وتواصى العلماء المُسدَّدون، بالوصية بالتوحيد، وتعظيمه، وحراسته، وتنقيته، وسدِّ الذرائع المُنقصة أو الناقضة له. قال السعدي رحمه الله تعالى: «فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار، والخلود فيها، وحرمان الجنة إذا كان أكبر، ولا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه؛ كان حقًّا على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه، ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق.

وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته، وذلك بكمال التعلق بالله تألهًا وإنابةً وخوفًا ورجاءً وطمعًا وقصدًا لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله العبد وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة، فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك اثبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه»(١). والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد للسعدي (١ / ٣٠).

العلي العظيم.

هل ينافي التعلق بالله تعالى اتخاذ الأسباب والتداوي؟

لقد سبق في التوكل تفصيل هذا الموضوع، ولكن نسلط الضوء على جوانب أخرى منه، أو للتأكيد على أمور مهمة حياله، فنقول وبالله التوفيق:

التعلق بالله تعالى توحيد، والتعلق بغيره ينقصه أو ينافيه، فينافيه وينقضه كليّةً إن كان التعلق بغير الله تعالى تامًّا، أو صحبته أعمالٌ شركيّة كبرى كالسجود أو الذبح ونحوها، ويكون مُنقِصًا له إن كان دون ذلك.

فالتوحيد نَزْهٌ نقيٌّ صافٍ منيرٌ برّاق، والموحّد قد نزّه تعلقه من أن يكون لغير الله تعالى وحده لا شريك له، وحتى لو جرت جوارحه بموجبات الأسباب، وسرت أفعاله على وفق الظواهر، لكن قلبه لا يتعلق بغير مُسبِّب الأسباب، الذي له الأمر كله.

ومن تلك الأسباب التداوي، قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأمراض النفسية كثيرًا ما تستعصي على الأطباء إذا عالجوها بالأدوية الحسية، ولكن دواؤها بالرقية ناجع ومفيد، وكذلك الأمراض العقلية، تنفع فيها الأدوية الشرعية وقد لا تنفع فيها الأدوية الحسية، لذلك أريد منكم أيها الأخوة أن تلاحظوا هذا، وإذا أمكنكم أن تجمعوا بين الدواءين فهو خير، أي الحسي والشرعي، حتى تصرفوا قلوب المرضى إلى التعلق بالله عز وجل وآياته، وحينئذ أحيلكم إلى الكتب المؤلفة في هذا الشأن، أن تطالعوها وتحفظوها وترشدوا إليها المرضى، لأن تعلق المريض بالله عز وجل له أثر قوي في إزالة المرض أو تخفيف المرض.

الأدوية الحسية معروفة، وهي نوعان: منها ما تلقّاه الناس من الشرع، ومنها ما تلقوه من التجارب، فمما تلقاه الناس من الشرع: التداوي بالعسل، فإن ذلك دواء شرعي، ودليله قوله عز وجل في النحل: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

ومن ذلك: الحبة السوداء فإن النبي ﷺ قال: «**في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السامّ**»(١).

ومنها: الكَمَأ(٢) قال فيه النبي ﷺ: «**الكمأة من المَنِّ، وماؤها شفاء للعين**»(٣) وهذا أمرٌ مُسلّم يجب أن نؤمن به، حتى لو فرض أنه لم ينفع فليس ذلك لقصور السبب، ولكن لوجود مانع منعنا من الانتفاع به، لأن الأسباب التي جاءت في الشرع قد تتخلّف آثارها لوجود مانع، لكن هذا أمر مسلم.

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٦٤) ومسلم (٢٢١٥) قال ابن شهاب: «والسام: الموت. والحبة السوداء: الشونيز». والشونيز: هو الحبة المعروفة بحبة البركة، وتسمى (السويداء) وهو الراجح، وقد أجريت دراسات علمية وطبية أثبتت إعجاز هذه الأحرف النبوية، وقيل: هي الكمّون. فلعل من أسمائها غير المشتهرة الكمّون، ثم صار الكمون علمًا على غيرها فيما بعد، والله أعلم.

(٢) نوع من الفِطْر يشبه البطاطا، وهو من المَنِّ ويسمى: الفقع. وأنواعه أربعة: الزبيدي وهو أبيض كبير ـ وهو أشهرها ـ والهوبر وهو أسود صغير، والخلاسي ـ وهو أجودها وأقساها، والجبأ (الجبية) وهو أدناها طيبًا.

(٣) البخاري (٤٣٦٣) ومسلم (٢٠٤٩).

أما النوع الثاني من الأدوية الحسية، فهو متلقى من التجارب، وهذا كثير، حتى أنه يوجد الآن ممن لم يدرسوا الطب نظريًّا مَن استفادوا بالتجارب، فكانت أدويتهم أحسن من الأدوية المعقّمة التي صنعت على وجه صحّي.

ولا يجوز أبدًا أن ننكر هذا، وقد سمعنا كثيرًا من الإذاعات من اخترع أدوية عثر عليها من الأشجار والحشائش لم تكن معلومة من قبل، وأثرها أكبر من أثر الموجود المستعمل»(١).

والرقية مشروعة إن اجتمعت شروطها الشرعية، وهي:

أولًا: أن تكون من كتاب الله تعالى، أو من سنة رسول الله ﷺ، أو من الأدعية المباحة المشتملة على التعلق بالله وحده لا شريك له في جلب الخير ودفع الشر، وعلى اعتقاد أن الشافي هو الله وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ثانيًا: ألا تشتمل على صيغٍ مجهولةٍ من طلاسم ورموز ونحو ذلك.

ثالثًا: أن تكون باللغة العربية، أو بما يُفهم معناه من غيرها، وإذا كانت باللغة العربية فيجب أن تكون معلومة المعنى، ليست كلمات لا يعرف معناها، فلا بد أن تكون بأسماء الله جل وعلا وبصفاته، أو بما أبيح من الأدعية التي فيها التوسل بأسماء الله وبصفاته، وأن لا يكون فيها أسماء مجهولة. وقد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الرقى التي فيها أسماء مجهولة قال: «وما يدريك

---

(١) اللقاء بالأطباء (١٢ – ١٤).

لعلها كفر». يعني لعل في هذه الأسماء المجهولة ما يكون فيه أسماء شياطين أو أسماء ملائكة، فينادي الملائكة، ويستغيث بهم، أو ينادي الشياطين، أو يتقرب بذلك، فيكون بذلك كفرًا.

رابعًا: ألا يعتمد ولا يعتقد فيها ومنها الشفاء المباشر، بل هي مجرد سبب، والشافي هو الله وحده، حيث جعل الله الرقية سببًا للشفاء، والشفاء خاص بالله تعالى. فالرقية سبب، والراقي مثل الطبيب يبذل هذا السبب.

فعلى المريض صدق التعلق بالله جل وعلا، فيسأله سبحانه أن ينفعه بهذه الرقية وبقراءة القارئ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون في الرقية بإطلاق، فكانوا يعتقدون أنها مؤثّرة حتمًا، وكان يعظّمون الرقية والراقي، وهذا ضلال. والتوكل على الله جل وعلا حينذاك سيكون ضعيفًا، وهذا يكون في نفوس كثير من أهل العصر، فلا بد من تجريد التعلق بالله وحده، والله المستعان.

خامسًا: ألا يكون الراقي من أهل الضلال والانحراف والتعلق بغير الله والتقرب إلى من يتعلق به الشياطين ومردة الجان بوسائل العبادة والخضوع، كأن يطلب ممن يسترقيه شيئًا من أثوابه، أو أظفاره، أو شعوره، أو معلومات عن أسرته أو نحو ذلك مما هو مسلك الدجاجلة والمشعوذين وعَبَدَة الشياطين.

وتكون الرقية أنجع إن كان المسترقي من أهل الإيمان بالله ربًّا وإلهًا واختصاصًا بالحول والقوة والخلق والتدبير واستحقاق العبادة وحده، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وبالجملة؛ فالتعلق بالله تعالى لا يمنع اتخاذ الأسباب والتداوي، شريطة تجريد تعلق القلب بمن بيده مقاليد الأمور سبحانه وبحمده، والله أعلم.

وقد ابتدأنا اللّٰهم بحمدك ونتتهي بحمدك، فلله وحده الحمد، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وبه المستغاث، وعليه التكلان، وبه التوفيق، والعصمة، والفوز، والنجاح، والصلاح، والفلاح، والهدى، والتقى، والسداد، والرشاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

❁❁❁❁

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مات ابنٌ لأبي طلحة من أُم سليم، فقالت لأهلها. لا تُحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحُدِّثه.

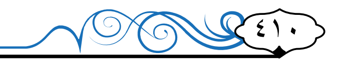
قال: فجاء فقرّبتْ إليه عشاء فأكل وشرب، ثم تصنّعَتْ له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها. فلما رأت أنّه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيتَ لو أنَّ قومًا أعاروا عاريَّتَهم أهلَ بيتٍ فطلبوا عاريّتهم، ألهُمْ أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فاحتسب ابنك!

قال: فغضب، وقال: تركتِنِي حتى تلطّختُ، ثم أخبرْتني بابني! فانطلقَ حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان. فقال رسول الله ﷺ: «**باركَ الله لكما في غابرِ ليلتِكُما**».

قال: فحمَلَت، قال: فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفرٍ لا يطرقها طروقًا، فدنوا من المدينة فضربَها المخاضُ، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ.

قال: يقول أبو طلحة: إنَّك لتعلمُ يا ربِّ أنه يعجبني أن أخرجَ مع رسولك إذا خرج، وأدخلَ معه إذا دخل، وقد احتبستُ بما ترى.

قال: تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجدُ الذي كنتُ أجدُ، انطَلِقْ. فانطلقنا، قال: وضربها المخاض حين قدما، فولدتْ غلامًا، فقالت لي أمي: يا



أنس، لا يُرضِعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلما أصبحَ احتملتُه فانطلقتُ به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادفتُه ومعه ميسَمٌ، فلما رآني قال: «**لعلّ أمّ سليم ولدت؟**» قلت: نعم. فوضع الميسم، قال: وجئتُ به فوضعته في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عَجوةِ المدينة، فلاكَها في فيه حتى ذابت، ثم قذفها في فِيِّ الصبي، فجعل الصبيّ يتلمّظُها. قال فقال رسول الله ﷺ: «**انظروا إلى حُبِّ الأنصار التمر**». قال: فمسح وجهه وسمّاه: عبد الله»(١).



(١) صحيح مسلم (٤ / ١٩٠٩) (٢١٤٤).

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

١) مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب
٢) التوحيد والإخلاص
٣) العبودية
٤) الصدق مع الله تعالى
٥) محبّةُ الله تعالى
٦) الشّوقُ إلى الله تعالى
٧) الأُنسُ بالله تعالى
٨) الإرادة
٩) العزم
١٠) الرّجاء
١١) الرّغبة
١٢) التّوكّلُ على الله تعالى
١٣) حُسنُ الظّنّ بالله تعالى
١٤) الثقةُ بالله تعالى
١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى
١٦) الاستغناءُ بالله تعالى
١٧) التعلُّقُ بالله تعالى
١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى
١٩) الاعتصامُ بالله تعالى
٢٠) سلامةُ الصّدر
٢١) العفاف
٢٢) الصَّبر
٢٣) الرّضا بالله تعالى
٢٤) شكر الله تعالى
٢٥) حمد الله تعالى
٢٦) الفرح بالله تعالى
٢٧) ....

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

١- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢- هل انتشر الإسلام بالسيف؟
٣- كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة
٤- النصرانية من التوحيد إلى الوثنية
٥- أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام
٦- يا سائلًا عن بني إسرائيل
٧- المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب
٨- سبع بشارات توراتية برسول الله صلى الله عليه وسلم
٩- أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله صلى الله عليه وسلم
١٠- نظرة فاحصة في الكتاب المقدّس (البيبل)
١١- العقائد النصرانية في الميزان
١٢- ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح عليهما السلام

كتب منوّعة

١- (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
٢- حديث الإفك (عَبرات وعِبر)
٣- لله درّك يا كعب
٤- إذا ذُكر الصالحون فحيهلًا بعمر
٥- كفاءة النسب وزيوف الجاهلية

٦- صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله)

٧- (ويكون الدين كله لله)

٨- نافذة على قصة الحضارة لديورانت

٩- المُدهشات

١٠- تهافت الليبرالية، أركون أنموذجًا

١١- متى يشرع البحث في تفاصيل القدر

١٢- وقد يجمع الله الشتيتين

١٣- دموع على سفح الفؤاد

١٤- نَظَرَاتٌ في أعماق النفس الإنسانية

١٥- أزمة الفكر المادي

١٦- السَّلفيّة محضُ الإسلام العتيق

١٧- إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه)

١٨- رقائق المتقين

١٩- شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية

٢٠- شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبيّة

٢١- مختارات من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميجي رحمه الله تعالى (تحقيق)

٢٢- من رسائل وقصائد العلماء، للشيخ محمد الدميجي رحمه الله تعالى (تحقيق)

٢٣- الحنيفيّةُ، مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام

٢٤- مِن سِيَرِ الرَّاحِلين

